رواية

عبدالوافي الفضمي

جارتي المراهقة



ناشرون وموزعون

Scanned by TapScanner

جارتي المُراهِقَة

Scanned by TapScanner

Scanned by TapScanner

عبد الوافي الفضمي

جارتي المُراهِقَة

ناشرون وموزعون

Scanned by TapScanner

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2020/ 11 / 4937)

813.03
الفضمي ، عبد الوافي
جارتي المراهقة / عبد الوافي الفضمي - عمان: دار زهدي للنشر والتوزيع،2020

الواصفات: الرواية العربية // الادب العربي // العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN978 -9923 -17 -192 --9

الطبعة الأولى:2023

جميع حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة للناشر

دار زهدي للنشر والتوزيع - المملكة الأردنية الهاشمية
عمان / الجامعة الأردنية
خلوي: 00962795555279 - 00962788771930
E- mail: dar.zuhdiforpublishing@hotmail.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Scanned by TapScanner

الإهداء

إلى زوجتي خـــوليتـــا.. النادرة التي لا تتكرر مرتين!

Scanned by TapScanner

رواية جارتي المراهقة هي رواية من وحي خيال المؤلف، وأحداثها لا تمُتُّ للواقع بِصِلة، فأيّ تشابه بين الشخصيات الموجودة فيها وبين الحقيقة هو مِن قبيل الصدفة الأدبية لا غير، كما إنّ الأفكار، والمعتقدات، والميول الواردة فيها، لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤلّف.

-عبد الوافي الفَضْمِي –بْلَايَا دِي كَابُو نِيگْرو، شمال المملكة المغربية-صيف 2022.

Scanned by TapScanner

Scanned by TapScanner

الجزء الأول[1]: التَّخَلّي الأَعظم

تتمثل فائدة التخلِّي الأعظم في أنَّهُ يمنحنا كبرياء الفضيلة التي ستجعلنا منذ تلك اللَّحظة قادرين على الإقبال بسهولة على العديد من التخلّيات الصغيرة.

نيتشه، إنسانِيٌّ مُفرِطٌ في إنسانِيَّته/ج.II

[1] - سبق أن نشرنا المسودّة الأولية للجزء الأول من رواية جارتي المراهقة، لأول مرة في يناير/كانون الثاني من العام 2021 ضمن منشورات دار زهدي للنشر والتوزيع عمّان-الأردن، وذلك للحفاظ عليها من التلف والضياع، ريثما نفرغ من كتابة الجزء الثاني والأخير. وقد آثرنا الآن دمج الجزأين معا في كتاب واحد نعتبره الصيغة النهائية للرواية، بعد أن أدخلنا بعض التعديلات على الجزء الأول. ومن هنا أدعو القراء الأعزاء، ممّن قرؤوا مسودّة الجزء الأول في الطبعة الأولى ويرغبون الآن في قراءة الجزء الثاني، أن يعيدوا قراءته في هذه الطبعة بعد تبييضه وتعديله، مع خالص محبتي وتقديري للجميع. عن المؤلِّف.

Scanned by TapScanner

Scanned by TapScanner

مضت سبعة عشر يوماً على استئجاري هذه الغرفة الصغيرة هنا في حي مولاي رشيد بكازابلانكا، إنها غرفة كئيبة في منزل يتكون من طابقين، أقطن أنا في الطابق الأرضي بينما يستوطن رب البيت رفقة أسرته الصغيرة الطابق الأخير. يبدو المنزل هادئا كالأدغال؛ إذ ليس يُعَمِّرُهُ سوى زوجين وطفلهما الصغير، إلى جانب ابنتهما المراهقة التي تظل رابضة على عتبة المنزل وهي تعبث بهاتفها، مسبلة شعرها المُغْدَوْدِن على كتفيها العاريين، مما يتكشّف عن حزام حمالة صدرها الحمراء. وبنطالها الأسود والضيق الذي ذكّرني منذ أول نظرة بِـ كاتي ليديكي؛ السَّبَّاحة الأمريكية الشهيرة! أظن أن اسمها لمياء، هكذا نادتها أمها ذات ظهيرة:- لمياء! لمياء! أين أنتِ؟ -نعم ماما! أنا في الأسفل. -اصعدي.. الغذاء جاهز.. اصعدي أيتها القحبة! لقد سقط فنجان القهوة من يدَيَّ حينئذٍ وتكسر، لم أسمع أُمًّا من قبل نادت ابنتها بهذه الصفة الشنيعة!

نظمتُ أوقاتي كعادتي، فصرت عند النهار أقصد الجامعة التي ليس يفصلني عنها سوى شارع واحد، وبعدها أذهب إلى أحد نوادي كمال الأجسام في شارع إدريس الحارثي. وفي المساء حيث تتوقف خَرْشَفَةِ الأقدام على الإسفلت؛ أربض أنا وحيدا في غرفتي كالوَشَقِ الإيبيري، أستمع للأغاني الإسپانية بصوت أليخاندرا گوزمان، المغنية المفضلة لدي، وآخذ قلمي المُشرِف على النفاد وأكتب بعد منتصف الليل عمّا

Scanned by TapScanner

تبقى من فُتَاتِ الحُب المتطاير على قلبي الموجوع، بينما المطر كالسياط يجلد زجاج نافذتي بقوة. وحينما يتوقف المطر عن الهطول؛ أنسى الكلمات، فأفتح نافذتي لألمح الندى يتراقص تحت أضواء أعمدة الإنارة كما ترقص الفراشة على أزهار الأُقْحُوَان. وذات صباح بينما أنا أقرأ كتاب المواقف والمخاطبات للنِّفَّري، قرع شخص ما باب غرفتي، فتحتُ الباب بعد تردد طويل فوجدت الفتاة المراهقة في أحسن حُلّة، وفي يديها فنجان قهوة. نظرتْ إليَّ متبسِّمة وقالت: تفضل خُذ، إنها قهوة لذيذة معطرة بنكهة الشكولاطة، تفضلْ لقد أعددتها لك بنفسي وسأعدُّها لك كل صباح. أهدتني القهوة ثم توقّلت الدرج مسرعة.

في اليوم الموالي حيث كنت عائدا من مكتبة الكلية، ألفيتها كعادتها جالسة أمام المنزل، قرأتُ عليها السلام فردَّته مع ابتسامة مرتسمة على شفتيها، وإذ أنا أقحم المفتاح في القفل لأفتح غرفتي القريبة من عتبة المنزل، سألتني وكفها على خدها الأيمن قائلة: ألستَ تدرس في كلية ابن مْسِيكْ؟ -بلى، أدرس هناك. أجبتها. -أيُّ شعبة؟-شعبة الفلسفة بسلك الماستر. -الفلسفة؟ سألتْ مستغربة ثم أردفتْ: - أف، أنا لا أحب الفلسفة، أنا أفضل مادة اللغة الإسبانية. فأجبتها متبسما:- الفلسفة يا عزيزتي فلسفاتٌ؛ منها فلسفة العلوم، وفلسفة الفن، والفلسفة السياسية وهَلُمَّ جراً، وكلها صَيَاقِلُ العقول الصدئة

Scanned by TapScanner

ومصابيح القلوب، الفلسفة مسار شيق جدا، لهذا ستحبينها فيما بعد، بل ستصبحين فيلسوفة بارعة. اتكأتْ على الجدران وقالت متنهدةً: -أتمنى ذلك يا أَنِيرْ. فسألتها مندهشا: -من أخبركِ باسمي؟ فأجابت: -لقد قرأتُ نسخة من بطاقة هويتك التي أعطَيتَها لأبي الخميس الماضي. ثم استطردتْ: أنتَ من نواحي مدينة وَرْزَازَاتْ أليس كذلك؟ -بلى أنا من ثَمَّ. -جميل، الوَرْزَازِيُّونَ أناس طيبون ووسماء الطلعة، بشرتهم تشبه الشكولاطة الإيطالية. -أنتِ تُحبين الشكولاطة قِرّي بذلك؟ قلتُ مبتسما. فتَنَحْنَحَتْ ثم أجابت في خجل مصطنع: -أنا أموت في الشكولاطة. لكن بِمَ عرفتَ ذلك يا أنير؟ سكتتُ لِهُنَيْهَةٍ ثم أجبتها قائلا: -لقد عرفت ذلك من خلال القهوة المعطرة بنكهة الشكولاطة التي أهديتنيها البارحة. فغرت فاهها وقالت: -واو مذهل! وفي الوقت الذي كنا نحن نتجاذب فيه أطراف الحديث رن هاتفي فجأة، فلم أجب على المكالمة، سألتني عن المتصل فأجبتها أنه مجرد صديق لا غير، فودعتها ودخلت غرفتي لأجيب المتصل على انفراد وغلقت الباب. لقد تحدثت في الهاتف ما يربو عن ساعة، وبعدها خامرتني فكرة أن أتسكع في إحدى الساحات المجاورة بدل أن أتقلب في فراشي كدودة القز، فارتديتُ معطفي البُنِّي وخرجت، فإذا بي أجد لمياء المراهقة لم تبرح مكانها بعد. شزرتني بنظرة حاقدة وهي تقضم أظفارها الطويلة بأسنانها، ثم سألتني: -مَنْ تكون مُولاَّ؟ أجبتها دون

Scanned by TapScanner

تَلَجْلُجٍ أنَّها حبيبتي الصحراوية التي تدرس هي الأخرى الفلسفة في جامعة مراكش، فبدت ساهية تفكر في شيء ما، احْمَرَّ وجهها ولم تتفوه بأيِّ كلمة فانصرفتُ وتركتها. ولمّا طوى النهار كافوره ونشر الليل عبيره عدتُ إلى المنزل؛ فَلاَحَ لي شيء ما مكتوب على باب غرفتي، إنه مكتوب بأحمر الشفاه، اقتربتُ من الباب بهدوء، خلعتُ نظارتي وقرأت العبارة التالية: *أيها القدر، قُل لـ مُولا أن حبيبها يوماً ما سيغدو زوجي أنا!*

-2-

السابعة والنصف صباحاً، القذى يملأ عيني، وضباب الصباح يزحف فوق هذه الأحياء المهترئة، الحاجة المُلِحَّةُ لقهوة تذهب عني ملامح التعب؛ دفعتني إلى أن أدلف نحو مقهى سوزانا الواقعة بشارع إدريس الحارثي، بينما قطرات الندى تسجم على رأسي. أخذت مقعدي في المقهى وطلبت من النادلة أن تحضر لي قهوة إيسبريسو الداكنة وسيجارة مارلبورو، كنت أمُجُّ سيجارتي بعنف كأني في ساحة القتال، ومن أمام المقهى يمر عشرات التلاميذ والتلميذات ذوي الوزرات البيضاء، يظهرون لي مثل طيور البجع، والكُهَّل على الرصيف يحثون الخطى في طريقهم إلى العمل، وآخرون ينتظرون قدوم الباص. في حين أنا جاثم في المقهى، أنظر إليهم وأبكي، حيث

Scanned by TapScanner

أشعر بنوع من احتقار الذات؛ أشعر بأني عالة على هذا المجتمع، أبكي وألعق دموعي قطرة، قطرة!

في الوقت الذي أرقب فيه أنا الغادي والرائح؛ مرت لمياء على الرصيف المتاخم للمقهى؛ مرتدية لباسها المنزلي الضيق، تحمل في يسراها كيسا شفافا من الزيتون الأسود وفي يمناها أربع خبزات من نوع الباريزيان، فنكسْتُ رأسي كيلا تلمحني. أف، لقد أبصرتني، قلت في نفسي. ها هي ذي قادمة باتجاهي والريح تهز شعرها المتهدل أثناء مشيتها. -صباح الخير! كيف حالك؟ -أنا في أفضل حال، تفضلي بالجلوس، هل تشربين شيئاً؟ -لا، شكرا أنا مستعجلة في أمري، ينبغي عليّ إيصال الخبز إلى المنزل، فماما تنتظرني. -ماذا عنك؟ تبدين نشيطة. -أنا جد مسرورة وسيكون يومي هذا جميلا لأني التقيتك هذا الصباح. -شكراً لك. -وهل أنتَ سعيد أيضا؟ -السُّعَداء لا يتنفسون الصُّعَداء. تعتعتُ بصوت غير مسموع. رنّ هاتفها فجأة فقوستْ حاجبيها وقالت مرتجفة: - ماما تتصل، لقد تأخرتُ، عليّ الذهاب حالاً، رجاءً لا تغادر مكانك سأحتسي كوب شاي فقط وأعود، أنا في حاجة إلى سماع صوتك.

تبدد ضباب الصباح فرمح ضياء الشمس، إنه يوم خريفي جميل، عادت لمياء بعد نصف ساعة بهندام فاتن هذه المرة، فطلبتُ من النادلة أن تقدم لها عصير برتقال على الرغم من أني لا أملك في تلك

Scanned by TapScanner

اللحظة سوى تسعة دراهم. شكرتْني على ذلك وبعدها سألتني إذا ما كنتُ قد تأقلمتُ مع أجواء كازابلانكا وضوضائها أمْ ليس بعد، وعن حالي مع دراسة الماستر. أخبرتها أني لا أهتم لأجواء المدينة ولا تطيب لي دراسة خلال هذه الفترة، بقدر ما أنا حزين ومنهك بالتفكير في القوت اليومي، وأن أبي الذي كان من المفترض أن يرسل إليّ المال قد قضى نَحبَه بعدما وارته الثلوج رفقة ماشيته القليلة في جبال الأطلس الكبير، أثناء هبوب عاصفة ثلجية في شتاء 2014. لم أتوقف عن سرد قصتي المملة، بدوتُ ثرثارا مثل عجوز في التسعين. حتى قاطعتني صارخة في وجهي والدموع المدرارة ترفرف في عينيْها. -يا إلهي! قصتك تقطع نياط القلب، لِمَ لمْ تخبرني بوضعيتك من قبل؟ لماذا..؟ لماذا..؟ ثم استطردت قائلة: - سأخبر بابا بحالك كيلا يستلم منك أجرة الكراء هذا الشهر لأنك في حاجة إلى من يعطيك لا إلى من يأخذ منك. لكن، لا تقل له من فضلك، إننا اجتمعنا في المقهى، وحاول أن تبقى هذه الليلة في غرفتك، حينها سأنزل إليك وجبة العشاء. -لا داعي لذلك عزيزتي، إذا علم والدكِ بالأمر فلا ريب سنقع في مزلقة لا تُحمد عقباها. قلتُ لها وأنا أكفكف دموعها. -لا تخشَ شيئاً، لقد سافر بابا قبل أربعة أيام إلى مدينة الداخلة. -وما وظيفة والدكِ؟ أجابتني بعد أن رشفت جرعة من العصير:- بابا سائق شاحنة دولية من نوع السْكَانْيَا، قال لي إنه سيسافر إلى مدينة الداخلة بغية تعبئة شحنة

Scanned by TapScanner

من سمك الأخطبوط، وبعدها سيتوجه نحو إسبانيا. -ممتاز! هذا يعني أنه سيتأخر. -تماماً. -أظنكِ تتناولين الأخطبوط دوماً؟ قلتُ لها وأنا متحمس لوجبة العشاء التي وعدتني بها. -لا، إطلاقا. -وأنتَ؟ هل سبق لكَ أن تذوقتَ طعمه؟ -لا، أنا أكتفي بالسردين. -هذا رائع، إذاً سأعِدُّ لك الليلة طاجينا بسمك السردين على شكل كرات مع شرائح البطاطا!

توسطت الشمس كبد السماء، وعزمتُ على مغادرة المقهى. أشرتُ بيدي إلى النادلة موهِماً بأني سأدفع لها ثمن المشروبين، إلا أنه ومن حسن طالعي منعتني لمياء من دفع الثمن ودفعتْ للنادلة ورقة نقدية من فئة مائة درهم، أدتْ الحساب المطلوب ومنحتني الباقي بعد إلحاح شديد. غادرنا المقهى حوالي الساعة الحادية عشرة وبعدها قصد كل منا مقصده. لم تقع عيناي على عينيها بعد ذلك حتى إذا عسعس الليل فوق سماء كازابلانكا رأيتها تلعب النرد رفقة صديقاتها تحت عمود الإنارة، فلم ترَني هذه المرة.

دخلتُ غرفتي عند الساعة العاشرة مساء، فقررت أن أغوص في معاني أحد الكتب الصوفية لأبي البنّاء السرقسطي، ريثما تأتيني بالعشاء الموعود. وبعد مضي ساعة تقريبا قرعتْ الباب ففتحتُ لها متحمسا، كانت تتزيى عباءة سوداء، كما كان أحمر الشفاه القاني كثيفا على شفتيها، وحاجبها كأنه نون خُطّ بالقلم، أما عطرها الفوّاح

Scanned by TapScanner

فقد أنساني ما تحمله من طبق شهي. -مساء النور أنير، أعتذر كثيراً عن التأخر أظنك تتضور جوعا، فأنا أيضاً لم أتعشَّ بعد، لأني عزمتُ الليلة أن أشاركَكَ الطعام، هل تأذن لي بالدخول؟ -شكراً على كل ما تفعلينه من أجلي لمياء، لكن لن أسمح لكِ بالدخول، آسف جدا. -خشيتَ أن ترانا ماما أليس كذلك؟ -بلى، هو كذلك. -لن تستيقظ ماما ولو انفجر بركان *إِتْنَا* عند أذنيها، اطمئن عزيزي، الأقراص المنومة لن تسمح لماما بالتزعزع من مكانها هذه الليلة. - الأقراص المنومة؟ سألتها مشدوها.-نعم الأقراص المنومة، ما الغريب في ذلك؟ -لا، لا شيء.. فقط أقصد... قاطعتْ كلامي بوضع سبابتها على شفتيَّ ثم قالت:- شششش هذا ليس يعنيك. بعدها دخلتْ غرفتي دون إذن مني. -أين سأضع هذا الطاجين؟ عجيب ألا تملك حتى منضدة لتأكل عليها، هل نحن متصوفة حتى نأكل على الأرض؟ قالت بامتعاض. ثم أردفت: -سامحني إن صرختُ في وجهك غدا سأمنحك منضدتي.

تناولنا العشاء بنهم، ولما أنهينا أخذتُ أنظف المكان من فضلات الطعام، في حين فتحت لمياء علبة أقراص وتناولتْ حبة منها. -إي لمياء ما الأمر؟ أتؤلمكِ رأسكِ؟ لِمَ تليق هذه الأقراص؟ سألتها في حيرة. -كما خمنتَ، إنها دواء لصداع الرأس. –أنت تكذبين هذه منشطات وليست دواء.

Scanned by TapScanner

أثارت تصرفاتها حنقي مما جعلني أفتح الباب منتظرا انصرافها حيث كان الوقت مناسبا جدا للنوم، بيد أنها لم تبالي أبدا وصارت تنكش أسنانها بظفرها، وتنظر في قطعة مرآة كانت لصيقة بزجاج نافذتي بواسطة اللصاق المائي الممتاز. -أرجوكِ لمياء، انصرفي، لا نريد فضيحة في هذا الليل، بالإضافة إلى أن هذه الغرفة صغيرة جدا، ألا ترينها لا تتسع لأكثر من شخص واحد؟ اعتصمتْ بالصمت لحظة ثم التفتتْ نحوي بهدوء وقالت: -الدنيا بأسرها ما تَسَعُ متباغضيْنِ وإنّ شبراً في شبرٍ ليسع متحابيْن، كما كُتِبَ على جدار مدرستنا. سكتتُ لبرهة ثم قلتُ لها:- لمياء! إنها الثانية والنصف بعد منتصف الليل ألم يداعب النوم أجفانَكِ؟ عندها دَنَتْ مني موصدة الباب وهمست في أذني قائلة:-لن ننام هذه الليلة عزيزي، أتسمع؟ لن ننام، أريد هذه الليلة أن أرى فحولتك وهي ترقص على السرير. فدفنتْ رأسها في صدري وراحت تتحسس بيسراها قضيبي، حاولتُ دفعها إلا أنها أخذت يدي ووضعتها على صدرها الناشز. انتصب أَيْرِي في غضون ثوانٍ، الأمر الذي دفع بي إلى الاستسلام لرغبتها الجامحة، إذ أخذتُ أُقَبِّلَ عنقها بهدوء وأتحسس جسدها الناعم، كانت بارزة الأرداف والأطراف والأعطاف، حسنة القد والخد والنهد. بدا أنينها يتجاوز جدران الغرفة، فأرديتها ممددة على سريري المهلهل وساعدتها في خلع عباءتها فابتسمت قائلة:-لن يساعدكَ أحد في هذا البلد السعيد، إلا

Scanned by TapScanner

مَنْ رغب في نَكْحك! كدت أشرق من الضحك على كلامها، وصرتُ أُقبِّلُها من قُلّة رأسها حتى أخمص قدمَيْها وألعق حلمتيها الورديتين وجميع تضاريس بدنها. وبين نهديها تفاجأتُ بحرف *"إي"* اللاتيني موشوما بالأخضر، سألتها عن لغز هذا الحرف فأجابتني أن معناه *إلياس*؛ وهو حبيبها الأول الملتحي الذي كان طالبا في شعبة الدراسات الإسلامية بجامعة الحسن الثاني على حد قولها. أخبرتني أنها كانت تحبه إلى حد الجنون مما دفع بها إلى أن تمنحه شرفها حفاظا على حبه، غير إنه سافر إلى العراق في السنة الفارطة وتخلى عنها. -أتعلم يا أنير، لم يسبق لي أن بلغتُ معه رعشتي الجنسية، كان أنانيا خلال علاقاتنا الحميمة، لكن إذا بلغتُ نشوتي معكَ هذه الليلة فأعدكَ أني سوف أزين شرفتي بصورك، لقد تخلى عني ذاك الإرهابي في الوقت الذي كنت أنا أحبه بصدق. –لا عليكِ عزيزتي فالذين يحبون بصدق لا يجدون حبا يليق بهم، ليس لأنهم يسيؤون الاختيار، وإنما العالم كذلك هو؛ يبصق في وجه الصادقين! قلتُ وأنا أداعب شعرها الحريري وأقبلها، إذ القبلة بريد الجنس، فيما صدري لصيق بصدرها. كان ثدياها كخشفَتَيْ ظبية توأمين يرعيان بين السوسن، كما جاء في العهد القديم، كنا مجرّدَيْن كليا من ملابسنا، وقد داعبتها ولعقتُ بين ساقيها حتى كادت أن يغمى عليها. وخلال الإيلاج بدت تصرخ وتتأوه بصوت عالٍ وهي تقول: -أسرع.. أسرع، رجاء بشكل

Scanned by TapScanner

أقوى..أقوى. لقد بلغتْ أنفاسها عنان السماء فأعطيتها قميصي لتعض عليه بأسنانها كَيْمَا تُسمع شهقاتها، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً. لم أجد حلاً سوى رفعُ صوت المذياع، إذ كانت الإذاعة الوطنية تبثُّ أغنيةً "لِوردة الجزائرية" التي كانت تقول في مطلعها: «*فِي يُومْ وْ لِيلَة...يوُمْ وْ لِيلة.. أخذنا حلاوة الحب.. كُلُّو في يوم وليلة..*». ضاعفت الأغنية الرومانسية من فحولتي فصرتُ لا أتوقف عند كل قذفٍ، وأصفع مؤخرتها البضة بعنفٍ، فيما كانت هي منفرجة الساقين وجسدها مستعر يقول هل من مزيد. أخيرا بلغت الفتاة المراهقة نشوتها المتأخرة لتستلقي على بطنها مسترخية، فيما استمررتُ أنا في مداعبتها وشفتاي مطبقتان فوق شفتيها، كنت أتلذذ ريقها الشبيه بلعاب النحل وتمر النخل، كان مثل الرحيق المختوم. لقد أمسينا فريستين للسهاد في ليلة استسلمنا فيها لشهوة هوجاء أبحرنا عبرها إلى عوالم من العواطف واللذة غير العابرة، وأقول غير عابرة لأنه قد يكون للذة الجنس أحيانا وقع كبير على شخصية الشريكين بل قد يفضي إلى نشوب حب بينهما وهذا ما لا أتمناه. وفي اللحظة التي كنت أتحسس جسدها سمعتُ أحدا ما يقرع باب غرفتي، مددتُ يدي نحو المذياع وخفضتُ صوته. ساد صمت مطبق، ثم سألتها بهمس إذا ما كانت هي الأخرى سمعتْ قرع الباب، فأومأت لي برأسها بعدما وثبتْ من السرير واضعة يدها اليمنى على قلبها وأصابع يدها اليسرى

Scanned by TapScanner

ترتجف كالأغصان. قُرع الباب للمرة الثانية وهذه المرة بشكل قوي فاكْفَهَرَّ وجهي وعاد جسدي يتصبب عرقا، إنها الساعة الرابعة، تُرى مَنْ يقرع باب غرفتي في أقاصي الليل، وماذا يبغي هذا الذي يقرع الباب ؟! قُرع الباب للمرة الثالثة. يا للمصيبة، يا للورطة الكبرى!

-3-

زلزل الخوف جسدي، لم أستطع ضبط نفسي، فبدوتُ مرتبكا شيئاً ما، أما لمياء ذات الفؤاد الرقيق، فقد امتقع وجهها وارتفع وجيب قلبها لقاء الطرْق المتتالي على الباب. -لا تخافي ولا تحزني عزيزتي، أنا سأتدبر الأمر مهما كان الثمن. قلت لها بصوت منخفض. فأومأتْ برأسها في ذعر شديد وهي تحاول ستر نهديها وفرجها بيديها معاً، بينما أخذتُ أنا أبحث عن حلول ناجعة تجعلني أنسل عن ربقة هذه الفضيحة انسلال الشعرة عن العجين، وتحول دون كشف هذا الفعل المحظور، مما جعلني أجنحُ نحو السرير فأرفعه بيديَّ عن الأرض حتى تتمكن لمياء من الاختباء تحته. كانت تحدق إلي وترتعد، لم أعد قادراً على النظر إلى مُحيّاها الذي غدا أصفراً من شدة الوَجَل. غمزتُها بعيني كي تنفذ الأمر، ففعلتْ مترددةً فقبّلتُ جبينها، ومن ثَمّ كسوْتُ السرير بالدثار حتى يختفي أثرها. ربما بدأ الأمر المخيف في التحسن نسبيا، حينئذ ارتديتُ بنطالي الذي كان ملقيا

Scanned by TapScanner

على البِلاط بشكل سريع، وبعدها وضعتُ يديَّ على مقبض الباب بإحكام، وفتحتُ أخيراً.

كان والد لمياء ذو الشارب الكثيف ماثلاً أمامي كنصب تذكاري، يرتدي معطفا قطنيا أسود يتعدى ركبتيه ويحمل على ظهره حقيبة رمادية اللون. -أأطرش أنتَ؟ منذ ربع ساعة وأنا أقرع الباب. ما هذه الفوضى العارمة التي تحدثها؟ أصداء الموسيقا بلغت عنان السماء، لقد سمعتها من الخارج. -أعتذر سيدي، لقد كنتُ متعبا فغشيني النوم فجأة وغططتُ في سباتٍ عميق، وبالتالي لم أنتبه للمذياع الذي نسيته مشتغلا. قلتُ له وأنا ناكس رأسي إلى الأرض وواضع ذراعي على ضلع الباب. -لا تفعل هذا في المرة القادمة، لا أريد أن أُحرَج مع الجيران بسبب تصرفاتك الصبيانية. قال بلسان ناثر للعاب. -حسنا سيدي، أعدك أنني لن أفعل. -جيد، إذاً اتفقنا. -طابت ليلتك سيدي. مدد عنقه وهو يجيل ناظِرَيْه في الغرفة، ثم غادر. ها هو ذا يعود مجدداً، تبا له! قلت في فكري. -مهلا لقد نسيتْ، أنتَ لم تتمم لي أجرة الكراء لهذا الشهر الذي مَارَبَ أن يودعنا. -أعلم ذلك سيدي، سأدفع لك المبلغ الاثنين المقبل. -في كل مرة تقول لي الاثنين.. الاثنين.. ليس لديّ وقت لسماع ترهاتك، أنا مدين لك بمائتيْ وخمسين درهما، غدا أحضر لي المبلغ. *كونيو!* أنتم الطلبة كلكم سواسية كأسنان الحمار، *آديوس*. قال بالإسبانية وانصرف. فأغلقتُ الباب وتنفستُ

Scanned by TapScanner

الصعداء. كانت لمياء غبّ ذلك تحشرج من تحت السرير الملتحف بالدثار الخشن، تبدو في حاجة إلى استنشاق بعض الهواء. لم أتردد في رفع السرير عنها ومساعدتها على النهوض، لقد ذبلت المسكينة كوردة يكسوها الغبار، وأضحت شاحبة الوجه. نظرتْ إليّ بعينيها العسليتين ثم أغمضتهما وعانقتني بحرارة فأسعفتها بكوب ماء شربَتْه على عَجَلٍ ثم تنهدتْ، وكأنها بُعثت من جديد. -لمياء ماذا ستفعلين الآن؟ -سأمكث في غرفتك بضع دقائق ريثما يخلد بابا إلى النوم، حينها سأرتدي ملابسي وأصعد إلى غرفتي. هكذا تلعثمتْ وهي تلهث مثل طفلة خائفة. ارتدتْ عباءتها بعد هنيهة وأخذتْ صندلها في يدَيها. -أنا سأغادر الآن، رجاء حافظ على الطاجين سأعود لأخذه في الغد، وسامحني لأنني لن أستطيع تزويدك بمنضدتي بعد عودة بابا، وداعا شكولاطتي. تأهّبتْ للانصراف، إلا أنني أمسكتها من ذراعها وحدجتها بنظرة صارمة. -أنتِ كذّابة، قلتِ لي إن والدكِ سيسافر إلى مدينة الداخلة وبعدها سيتجه صوب إسبانيا، كيف يُعقل أن يقطع آلاف الكيلومترات ويعود خلال خمسة أيام؟ -أُتركني، أنا لم أكذب عليك، أنا أيضاً لم أفهم شيئاً. كانت تتنهد.

نزعتُ يدي عنها ثم غادرتْ صاعدةً الدرج بأقدام حافية، كانت تتسلل في الظلام كقطة رشيقة حاملة صندلها بيديها في وقت تشير فيه الساعة إلى الخامسة فجراً. آثرتُ ألاّ أنام نظرا إلى كوني مُطالب

Scanned by TapScanner

بالحضـور إلى حصـة الفلسـفة السياسـية المزمـع بـدؤها في السـاعة الثامنـة صـباحاً، لـذا أطفـأتُ المصـباح واسـتلقيتُ على ظهـري فـوق السرير مشبكا أصابعي على صدري ومُبقيا على عينيَّ مفتوحتين. كان الهـم اللاعـج ينخـر جسـدي الهزيـل، والـدموع تنسـاب على وجنتيَّ لما تـذكرتُ حبيبتي مُـولا التي أحبهـا حتى النخـاع والتي تبـادلني نفـس الشـعور، نـدمتُ كثيرا على خطيئتي الشـنعاء، لأنني خنـت حبيبتي الصحراوية التي طالما كانـت وفيـة لي، والتي وعـدتها بـالزواج بعـدما أتخـرج مـن الجامعـة وأصـبح أسـتاذاً للفلسـفة، على الـرغم مـن أن الـزواج هـو مقبرة الحـب حيـث يُـدفن هـذا الأخير ويتلاشى، شـعرتُ بحاجـة إلى صـفع وجهي في كل لحظة، وفكـرتُ بـأن أشـنق نفسي بين الأشـجار المتشـابكة، آهٍ كـم تمنيـتُ ألاّ أكـون فعلـتُ! سـامحيني يـا حبيبتي لقد خنتكِ دون أن أشعر بذلك، أنا آسف يا مُولا!

مضى الليـل أدراج الـذكريات، وأشـرقت شـمس جديـدة علّهـا تـرمم جسدي المتداعي، ارتديتُ بذلتي وحملت دفتري ذو الحجم الكبير، ثم شـرعتُ أتهـادى في مشـيتي نحـو الكليـة، وعلى وقْـعِ خطـواتي البطيئـة سـمعتُ هسـهسـةً منخفضـة مـن مكـان قريـب، اسـتدرتُ بعفويـة فألمحـتُ لميـاء تراقبني من النافـذة وتبتسـم. ألقـتْ إليّ بكـيسٍ بداخلـه شيء ما وأغلقت النافذة، فالتقطته من على الأرض وتفحصته متأبطا دفتـري تحـت ذراعي. كـان في الكـيس رغيفـا بائتـاً محشـوا بـالجبن

Scanned by TapScanner

وقصاصةٌ ورقية مطوية كُتب عليها باللغة الإسبانية *تي كييرو*. لقد كنتُ أتضور جوعا حينئذ، وآيُ ذلك أنني هدرتُ كل طاقتي في الليلة الماضية، فتناولتُ قطعة الرغيف على عجل، أما القصاصة الورقية فمزقتها ونثرتها في الهواء، كانت العصافير تنظر إلى فتات الوريقة وهي تنضو عن أجنحتها قطرات الندى فوق الأغصان.

تمكنتُ من الحضور إلى الدرس الفلسفي الذي بدأ في تمام الساعة الثامنة، حيث استهل الأستاذ الأصلع محاضرته بالحديث عن مفهوم العدالة السياسية، لاشك أنه اعتاص عليّ فهم ما يقول، إذ كنتُ شبه ناعس، والجملة الوحيدة التي استطعت فهمها هي قوله:«علينا أن نحمد الله مادام وطننا ينعم بكل صنوف العدالة». وشرع يفصل في قوله هذا، فيما أنا ساهٍ أتخيل نفسي فوق قمة جبلٍ والأستاذ الأصلع تحت سفحه، هو يتحدثُ عن العدالة وأنا أتبول على رأسه!

انتهت المحاضرة في تمام العاشرة، وبعدها قررت رفقة صديقي ياسين المتعصب للمبادئ الفلسفية أن نتسكع داخل رحاب الكلية، لم نجد بدا من التوغل بين صفوف حلقة طلابية كانت تديرها إحدى الجماعات الإسلامية، كانوا طلبة ذوي لحى طويلة، وجلابيب بيضاء قصيرة بعضها ملطخ بمرق المطاعم الجامعية، بدا أحدهم يصرخ قائلا:« ينبغي علينا كمؤمنين أن نحارب كل زندقة وبندقة، يجب أن نناضل من أجل إلغاء تدريس الفلسفة داخل جامعاتنا؛ لأنها تفسد

Scanned by TapScanner

طباع الطلاب وترسخ مبادئ الإلحاد». وما إن انتهى من مداخلته حتى صار الطلاب المشكِّلون للحلقة يصرخون بحماس شديد:«*الله أكبر..الله أكبر!*» حتى انفلتت من مؤخرة أحدهم ضرطة مدوية عكرت صفو الهواء، وذلك من كثرة ما كان يصرخ. خَلّف رأي المتدخل شنآناً كبيرا في فؤادي، مما دفعني إلى التدخل قائلا:«علينا إخواني الفضلاء أن نناضل من أجل نبذ العنف والتعصب الطائفي الذي حول عالمنا إلى أنهار من دم، أما الفلسفة فكانت دوما داعية إلى السلم والتسامح تجاه الآخر المختلف منذ غابر الأزمان!» فجذبني صديقي ياسين من حاق الحلقية بشدة، وهمس في أذني: -كيف تجرؤ أيها المجنون، ألا تخشَ أن يضربوا عنقك؟ خاطِب الناس بقدر عقولهم يا صديقي. حملقتُ فيه شزرا، ثم قلتُ له: إذا عاملتَ كل البشر بقدر عقولهم فحتماً ستجوب الشوارع وأنتَ توزع مَصَّاصَاتْ!

على الأرجح لم يعجبه قولي، بيد إنني لم أعبأْ لحاله فتركته وانصرفت، فأنا لستُ بحاجة إلى صديق، أنا محتاج إلى أن أسمع شكوى ذاتي، أنا في حاجة إلى الجلوس على شاطئ البحر علّ هذا الأخير يلملم جراحي العميقة. لطالما كانت العزلة دَيْدَني ومثار فخر لي، إذ كنت غالبا ما أتجافى البشر وضجيجهم، ولهذا داهمتني فكرة أن أستقل الباص وأمضي صوب الشاطئ بحثا عن قسط من الراحة النفسية، لا جرم أن جيبي صَفِرٌ عن المال، لكن هذا لا يمنع من رغبتي الجامحة في

Scanned by TapScanner

سماع هدير الأمواج، لذا فأنا سأستقل الباص، ومجانا كما يفعل مشاغبو كازابلانكا.

وقفتُ على الرصيف الأيمن منتظرا قدوم الباص رقم 11 الذي يتجه نحو شاطئ "لالّة مريم"، لم أنتظر كثيراً، لقد قدِمَ خلال بضع دقائق فقط، فصعدتُ من الباب الخلفي وتمسكتُ بمسند الركاب بِيَد، والدفتر في يدي الأخرى. كنت أتمنى ألاّ يصعد مراقبو التذاكر إلى الباص الذي سار سريعا باتجاه البحر، مارًّا بقاع المدينة عبر الشوارع الطويلة، كان كل شيء يسير إلى الوراء؛ الشجيرات، الناس، السيارات، المدارس، الوطن بأكمله كان يسير إلى الوراء. وأخيرا لاحت لي زرقة البحر من بعيد، كانت نفسي تهفو إلى ذلك المنظر الجميل، توقف الباص في إحدى المحطات لينزل ركاب ويصعد آخرون، وبدوتُ حينها أشهق خوفا من صعود مراقبي التذاكر، آه، *خودير!* كم حظِّي عاثر، لقد صعد ثلاثة رجال ذوو بذلة زرقاء يتبدى من مظهرهم أنهم رجال أشداء، فسرعان ما فتئوا يتفحصون تذاكر الركاب حتى وصلوا إليّ. -التذكرة من فضلك. -حسنا.. حسنا، لقد وضعتها داخل الدفتر. قلتُ لهم وأنا أتظاهر بأنني أنتشل التذكرة من الدفتر. -لا بأس، خذ وقتك، سننتظر إلى أن تجدها. فقلت متلعثما: -متأكد أنني وضعتها هنا، ربما سقطتْ من الدفتر. -لا يمكنها أن تسقط يا أخي فهي ليست إبرة، أنتَ تكذب، أنت لم تؤدي ثمن التذكرة وستعرض نفسك

Scanned by TapScanner

للعقوبات الجاري بها العمل. قال أحدهم صارخا في وجهي. -في الحقيقة أنا لم أؤدي ثمن التذكرة لأني مجرد طالب في الجامعة ولا أملك نقودا. -أُحجيتك أقُصُصها على وزارة التعليم العالي، كان من الأفضل لك أن تلج مركز التكوين المهني بدل أن تضيع وقتك في الجامعة، فهذه الأخيرة ليست امتيازا، ألم ترَ كيف تقدمت أوروبا وأميركا الشمالية وجنوب شرق آسيا بفضل التكوين المهني، وصرنا نحن متخلفين لأننا نولي للجامعات والبحث الأكاديمي العقيم أهمية كبيرة. على أي حال فهذا الأمر لا يناط بنا، ما يهمنا هو أنك لن تنزل من هذا الباص حتى تسدد مبلغ خمسة وثلاثين درهما كغرامة على فعلتك هذه سعادة الطالب الفقير. وهنا تدخلتْ امرأة خمسينية تبدو من هيئتها أنها امرأة حداثية، كان شعرها المعقوص تتخللهُ خصلات الشيب. صرختْ في وجوههم بعربية تغلب عليها الفرنسية:« أُتركوه وشأنه، لقد صارحكم أنه مجرد طالب ولا يحمل نقودا، أنتم لا تملكون ذرة رحمة في قلوبكم» ثم استطردتْ:«للأسف بني، لا أحمل معي حافظة النقود، أكتفي بالدفع عن طريق البطاقة الائتمانية، لو كان ما بجيبي كافيا لسددتُ عنك الغرامة، آسفة بُنَي.» قالت لي بصوت تملؤه الحسرة. ثم أردفت صارخة:«أف لكم، أف لوطنكم، أف لحكومتكم القذرة!» فتظاهروا غير عابئين بكلامها ووصلنا أخيرا إلى محطة النهاية في الشارع المحاذي للشاطئ.

Scanned by TapScanner

-ستذهب معنا. قال الرجل. -إلى أين؟ -سترى قريباً. فركبتُ رفقتهم نفس الباص أثناء عودته فنزلنا في "درب غَلَّفْ" في شارع بئر أنْزَرَانْ. توجهنا مشيا على الأقدام إلى مكان يبدو على هيئة محطة واسعة لتركين الباصات، كانت فعلا حافلات *"نقل المدينة"* مصطفة هناك ومغبرة جدا. نظروا إليّ بسخرية وأمروني بغسل أربع حافلات متسخة في الصف الأخير كعقوبة لي، فأحضرتُ السلّم وسطول الماء المرفوقة بمناديل البُّوتْشَامُو وأخذتُ أغسلهن حتى مَجِلَتْ يدي من كثرة العمل. بينما كان جبيني يَرشَحُ عرقا، بدا أحدهم ينظر إليّ بنظرات تملؤها الشفقة، كان هو الآخر مثلي يرتدي نظارة طبية، أما الآخران فاستمرا في الاستهزاء بي. انتهيتُ من غسل الحافلات عند الخامسة والنصف عصرا ثم أذِنوا لي بالانصراف فانصرفت، غير أن صاحب النظارة لاحقني عند البوّابة ماسكا ذراعي، فأخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة خمسين درهما، قائلا:« خذ، اعتبرها أجرة عملك، وسامحنا من فضلك، خذ يا صديقي واصبر صبرا جميلا، فيوما ما ستضحك لما تتذكر الماضي وأنتَ تحزمُ ربطة العنق». أخذتها من يده وسرتُ نحو إحدى المقشدات لأسُدَّ رمقي، لم أتناول شيئاً طيلة النهار عدا تلك الفطيرة البائتة التي ألقتها لي لمياء من عَلٍ، فاحتسيت عصير برتقال بارد مع بعض البسكويت، كما أنني اقتنيت بطاقة تعبئة وخمس سجائر واينستون وولاّعة كذلك، ثم احتفظتُ بخمس دراهم

Scanned by TapScanner

فقـط كـثمن لتـذكرة البـاص عنـد العـودة. وسـرت بعـد ذلـك أمشـي بخطى وئيدة ناحية شاطئ "عين الذياب"، حيث استغرقتُ ما يقارب ساعة من الوقت. انتابني شعور بأنني لم أستغرق سوى بضع دقائق فقـط إذ كنـتُ أتحـدث مع أمي في الهـاتف أثنـاء المشي، أخبرتهـا أنني بخير، وعمـا قريـب سـأغدو روائيـا مشـهورا وسـأعوض لهـا كل جهـد بذلتـه مـن أجلي، لأنهـا تسـتأهل ذلـك، وهي ألطـف بي مِنّي بنفسـي. أخبرتها أيضا أن تعتني بإخوتي الصغار الذين لم يتجاوز كبيرهم عشر سـنوات؛ ميرا الجميلة، وأخي إكسيل، وخاصة الصغرى تيليلا؛ أختي المفضلة، وبعدها اتصلت بحبيبتي مُولا وتبادلنا أسمى عبارات الحب. بلغتُ الشاطئ عند اقتراب المغيب، مستكينا إلى صخرة تلطمها أمواج البحـر، ثـم أشـعلتُ سـيجارة وأخـذتُ أحـرق التبـغ بشـفتيَّ اليابسـتين، فيمـا بريـق السـماء الأحمـر يـتلألأ في الأفـق، والشـمس الغاربـة بـين أحضـان المـوج تـؤدي مراسـم الـوداع! كنـتُ وحيـداً، أصـارع أفكـاري بعـدما اعتـورتني الهمـوم، وتضـيَّفتني الأحـزان. تأملـتُ ذلـك المنظـر السامي إلى أن اكتسحتْ عتمة الليل البر والبحر، ورغم ذلك واصلت التأمل لساعات طوال، ثم توجهت صوب موقف الباص القريب من ماكدونالـد، وصـرتُ أنتظـر، انتظـرتُ طـويلا، فلـم يـأتِ أي بـاص. اضـطررت أن أسـألُ أحـد حـراس الڤـيلاّت هنـاك عـن سـر ذلـك، فأخبرني أن الباص في كازابلانكا يتوقف عن العمل في التاسعة ليلا،

Scanned by TapScanner

وقد كانت الساعة وقتئذ تشير إلى العاشرة والربع، فتحسّرتُ كثيرا على حياتي التي غدتْ مسرحا للأحزان. سألتُه عن الحل إذاً، فأجاب أنه لا خيار لدي سوى أن أستقل تكسي صغير، فابتعدتُ عنه قليلا ووقفتُ ألوح بيدي إلى سيارات الأجرة العابرة من هناك إلى أن وقفتْ إحداهن. -مرحبا سيدي، حي مولاي رشيد من فضلك. قلت له. - أجل، اصعد. -كم السعر أولا؟ -لا يمكنني الجزم، ذاك شُغل العدّاد. -أريد معرفة الثمن بشكل تقريبي لو سمحت. -خمسة وسبعون درهما على الأقل لأنها مسافة بعيدة، زد على ذلك أن التسعيرة ترتفع في الليل. -ماذا؟ سألته باندهاش وأغلقتُ باب التاكسي بعنف لأعود أدراجي إلى الشاطئ من جديد، فرقدتُ على رمال البحر متوسدا دفتري تحت جنح الظلام، وعينيّ مشرئبتين نحو النجوم وهي تلمع من بعيد، بعضها ينطفئ كعود الثقاب، وبعضها الآخر يسقط كأوراق الخريف، وقد كان سرطان البحر في تلك اللحظة يرنو إلى قدميَّ والريح تعوي.

على مدار الساعات القليلة غطَطْتُ في نوم عميق ناسيا مآسي النهار، حتى استيقظتُ على إثر ركلات الأقدام، فنهضت على عجل، لم أتمكن من رؤية الراكل في الظلام، لكن من خلال صوتهما أدركتُ أنهما شخصان؛ رجل وفتاة. -عذرا.. عذرا لم أقصد لطمك، كنتُ أخبط خبط عشواء بسبب الظلام المدلهم. قال الرجل. -لا بأس

Scanned by TapScanner

سيدي. -لماذا ترقد هنا؟ أليس لديك مأوى؟ قالت الفتاة مسلطة ضوء هاتفها ناحية وجهي. –لا، لا.. أنا أملك منزلا، المشكلة هي أنني تأخرت عن موعد الباص. تلعثمتُ. -ولِمَ لمْ تستقل التاكسي؟ -لا أملك نقودا سيدتي. -آه.. آسفة أخي. قالت لي وهي تفتح حافظة نقودها فيما الرجل يسلط الضوء بهاتفه. -تفضل خذ إنها مائة درهم، لا تنم هنا، هذا المكان خطير جداً وليس يلجأ إليه غير السكارى أمثالنا. قالت ضاحكة وثغرها يضوع برائحة الخمر.

شكرت لهما فضلهما ومضيت أجري صوب الشارع حاملا دفتري في يدي، كان هناك في الجهة اليمنى تكسي أحمر متوقفا عند الرصيف، وبابه الأمامي من جهة مقعد السائق مشرع على مصراعيه، كان السائق في الخارج يتبول على العجلة الخلفية، قلتُ له قبل أن أعبر الشارع. -إي.. حي مولاي رشيد من فضلك. -نعم هيّا بنا. فصعدت إلى المقعد الأمامي، إذ كان التاكسي دافئا والساعة تشير إلى الثانية وأربعين دقيقة بعد منتصف الليل، سرنا والمحيط الأطلسي على يسارنا، حيث تصفع الأمواج بعضها البعض، كان غطاء الليل يلفُّ البحر والسماء تمطر نجوما، والمصابيح الخلفية الحمراء للسيارات تدحرج ضوءها الشاحب أمامنا، بينما نحن نتدبر كلمات كوكب الشرق "أم كلثوم" إلى أن وصلنا الحومة في أقاصي الليل.-كم سيدي؟ -تسعة وسبعون درهما.- تفضل.- شكراً لك.

Scanned by TapScanner

قصدت مباشرة المنزل وأنا طافح بالسرور، أدخلت يدي إلى جيبي كي أنتشل المفتاح. أوه؟ أين المفتاح؟ قلت في نفسي وأنا أفتش جيوبي. آه تذكرت الآن، لقد وضعته هو والقلم على عجلة الحافلة حينما كنت أغسلها. اندحرتْ نفسي وخارتْ قِواي، فجلستُ القُرفُصاء على مَسَّاحة الأحذية في عتبة المنزل، وشرعتُ أجهش بالبكاء مثلما تفعل السبايا المُغتَصبات، لم يسبق لي يوما أن رأيتُ دَمْعَ الرجال، لكن همومي أنا فاقتْ رؤوس الجبال!

-4-

انتظرتُ طويلا أمام عتبة المنزل والحزن يلوي جسدي، حاولتُ في كل مرة أن ألامس الباب ببراجم يدي وأطرق عليه، فلم أستطع فعل ذلك، فكرتُ بأن طرق الباب في هذا الوقت المتأخر من الليل سيسفر لا محالة عن عواقب وخِيمة؛ إذ سيطرح عليّ رب المنزل أسئلة محرجة من قبيل؛ "لِمَ أيقظتنا في هذا الوقت؟ " "أين مفتاحك الخاص؟ " "ماذا كنتَ تفعل في آخر الليل؟" والأخطر من ذلك، "أين أجرة الكراء؟". وستكون النتيجة مؤلمة جدا بحيث يمكن أن تصيبني بالجنون في بعض جوانبها، وهي أن أعود يوماً ما من الكلية فأجد مؤلفات الفلاسفة والمفكرين المغاربة القدامى -الذين أُجِلُّهم أكثر من غيرهم من مفكري العالم بأسره، حيث أضع كتبهم في مكانة خاصة جدا؛ كابن جلجل، وأبو مسلمة المجريطي، وابن زيدون، وابن حزم،

Scanned by TapScanner

وابن باجة، وابن السيد، وابن طفيل، وابن رشد، وكذا ابن عربي- ودفاتري، وأسمالي المهلهلة، ودثاري ذو الصوف الخشن، علاوة عن صور حبيبتي البَدِينَة، أجدها كلها مبعثرة في الزقاق. آه إن كل شاة برِجلِها تُناط!

مضتْ ريح الليل الباردة تنفح وجهي، وأسناني تصطك من شدة الزمهرير، ساورتني فكرة أن أتكوم فوق مسّاحة الأحذية كقط صغير وأخلد إلى النوم ريثما ينصدع الصباح، إلا أن صياح سكران مترنح كان يستند إلى شجرة النارنج القريبة مني، حال دون ذلك. كانت تتكلّلُه سعادة عارمة قد خلّفها فوز الرجاء العالمي على فريق إنْيِيمْبَا النيجيري، يمر ثمِلاً بمحاذاتي، يرفع ذراعيه عاليا ويغني: *"...في هادْ لبْلادْ عايْشِينْ في غْمَامَة، طالْبينْ السّلامة، انْصُرنا يا مُولانا... صَرْفُوا عْلِينا حْشيشْ في كْتامة خَلاّوْنا كِاليتامى، نَتْحَاسْبُو في القيامة... مَواهِبْ ضَيَّعْتُوها، بالدُّوخَة هَرَّسْتُوها، كِيفْ بْغَيْتُو تْشوُفُوها؟ ... فْلُوسْ لَبْلادْ كَاعْ كْلِيتُوهَا لَلْبَرّاني عْطَيْتُوها، جينيراسيون قْمَعْتُوها... أووو أووو وْقْتَلْتُو لَا پَاسْيُونْ...!"* إلى أن انحدرت النجوم وشالت أرجلها فانصدع الفجر، وحلقت العصافير في أعالي السماء.

على مدار الأيام التالية وتحديدا مساء السبت، اتصل بي صديق كازاوي يدعى رشيد؛ شخص أربعيني محب للفكر الفلسفي، كنتُ قد تعرفت عليه قبل أسبوع في الترام. -أهلا أنير كيف حالك؟ -في أفضل

Scanned by TapScanner

حال صديقي، وأنت؟ ماذا عنك؟ وكيف حال الأسرة الكريمة؟ -الكل على ما يرام عزيزي. وأضاف: «آه، ماذا عن الماستر؟ أأعجبتك محاضرات الدكتور "ب" ؟» -بالطبع، محاضراته عميقة جداً لقد أخبرني زملائي الموظفون أن دروسه ممتعة وتصيبهم بخشوع فلسفي، لكنني للأسف لا أسمع محاضراته ولو حاولت ذلك، ما أسمعه هو صرير أحشائي الجائعة. -ماذا؟ أتذهب إلى الجامعة من دون أن تفطر؟ -تماماً صديقي لأنني لا أملك نقودا. -ألازالوا لم يصرفوا لك المنحة بعد؟ -ليس بعد للأسف، منذ شهرين وأنا أنتظر صرفها كمن ينتظر حلول الملكوت الإلهي على الأرض. -لا عليك عزيزي سأحاول دعمك بالمال من حين إلى آخر ولا تنسَ أنك محظوظ كونك صرت تلميذا من تلامذة الدكتور "ب" وبفضله ستتعرف على الفلسفة السياسية عند الأمريكيين، خاصة عند *"روبرت كابلان"* ، *"دايفيد إيستلوند"* و*"جايسون برينان"* ، تابع رشيد: -أنا لازلتُ أتردد على الكلية للاستماع إلى محاضراته الجميلة، وأسجل أفكاره بجهاز الطّابْليتْ! -ممتاز صديقي، أعلمُ أنك من عشاق الفلسفة. قلت له ضاحكا. -إي، أنير وددتُ أن أستشيرك إذا ما كنتَ شاغرا يوم الأحد لتعمل رفقتي في مدينة بُوزْنِيقَة، إنها غير بعيدة عن كازابلانكا.-أكيد، أكيد. قلتُ له متحمسا، وأضفتُ: أنا في مسيس الحاجة إلى العمل يوم الأحد، ليس لدي ما أفعله سيد رشيد. -ممتاز، إذاً حاول أن تقوم

Scanned by TapScanner

غـدا في الصـباح البـاكر حـوالي السـاعة السادسـة، اذهـب مباشـرة واسـتقل البـاص رقـم 97 ثـم أخبر السـائق أنـك سـتهبط عنـد جـامع السُـنة فى درب السـلطان حيـث سـأنتظرك هنـاك لنتجـه بعـدها إلى مدينـة بوزنيقـة. -حسـنا اتفقنـا، سـأكون في الموعـد. -وداعـا. قـال لي ثـم أغلق الخـط.

لـم أسـأله لا عـن طبيعـة العمـل ولا عـن الأجـرة، وقمـتُ صـبيحة الأحـد فاسـتقليتُ البـاص متتبعـا توجيهاته التي كان يمليهـا عليّ ذاك الصـباح عبر الهـاتف، كان يسـألني في كل لحظـة أيـن وصـلت، فأضـطر إلى أن أسـأل أحـد الـراكبين عـن اسـم المكان. -إي، من فضلك أين وصلنا؟ - مقاطعـة سـباتة، شـارع الشـجر. ردّ الرجـل. -مـن فضـلكِ أيـن وصـلنا؟ سـألت إحداهن بعد قليل. -عين الشق، كلية الآداب. أجابت.

لـم يكن الطريق مزدحما كالمعتاد مما جعل البـاص يمضي سـريعا، أما أنا فطفقتُ أعبث بهاتفي حتى لكزني رجل مسن بعكازه: «الآن يمكنك النزول في هـذا الموقـف، ذلـك هـو جـامع السُـنّة حيـث أشـير بعُكّازي». توقـف البـاص مهسـهسا فنزلتُ واسـتكنتُ إلى صومعة الجـامع واتصلتُ برشـيد. -أهلا رشـيد، لقد وصلتُ، أنا واقـف بجـوار الجـامع، أين أنت؟ -لقـد رأيتك، أنظر إلى يمينك، أنـا في سـيارة ضاسـيا لوغـان السـوداء، المركونـة أمـام المقشـدة. -سـيارة ضاسـيا السـوداء، ضاسـيا لوغـان... ضاسـيا... ضاسـيا... ، لا، لم أبصرها بعد، هناك العديد من السـيارات

Scanned by TapScanner

المركونة على الرصيف، قلتُ وأنا ألتفت ذات اليمين وذات الشمال. - السيارة السوداء التي ترمح بغمازات الانعطاف، أرأيتها. قال لي صارخا. -لا، لم أرَ شيئا. -أظن أن نظاراتك فقدت صلاحيتها. قال وهو يضحك ثم أضاف: السيارة التي تُزَمّرُ الآن هل سمعتها؟ -أجل، الآن رأيتُ السيارة. اتجهتُ أتهادى في مشيتي صوب السيارة المركونة وسط صف طويل من السيارات الخفيفة. ترددت أحيانا في المشي إليها، بينما هي لازالت تومض بغمّازاتها البرتقالية، ثم قصدتُ بعد ذلك باب السائق: يا إلهي أين السائق؟ قلت في حيرة. نوافذ السيارة مفتوحة، لكن أين السائق؟ المقشدة قبالتي لكنها مغلقة، تُرى ما الأمر؟ اقشعر بدني حُيال هذا المنظر الرهيب واستفحل الغضب في نفسي، سيارات مركونة تكسوها قطرات الندى، شارع مقفر من البشر، جو قاتم، غيوم داكنة، ريح هوجاء تعزف سيمفونيات الرعب، وهزيم الرعد يجلجل في السماء، حاولتُ الاتصال به، إلا أن هاتفه لم يعد مشغلا، ألاَ يمكن أن يكون رشيد الكازاوي عميلا لدى مافيات الاختطاف ورشيد مجرد اسم مستعار؟ تساءلتُ في قرارة نفسي. من حقي أن أشك، أنا أشك إذاً أنا موجود! لا، لا أخالُهُ يكون كذلك، رشيد ليس مجرما ولا ينبغي له، قس على ذلك أني لست طفلا صغيراً حتى يتم خطفي، قلت في فكري.

Scanned by TapScanner

رن هاتفي بُعيد لحظات، كان هو من يتصل. -أهلا، أظنك واقف أمام السيارة. -بالطبع، كما أمرتني، أنا جاثم أمام السيارة، هل أنا مخطئ؟ قلتُ بلهجة يملؤها الغضب. -آسف صديقي، آسف، أنا على مقربة منك، فقط أحسستُ أن النوم لم يغادر أجفاني بعدُ فذهبتُ إلى المقهى لارتشاف قهوة ثقيلة، حاوِلْ أن تعبر الشارع ثم استدر يمينا، اسم المقهى هو بريماڤيرا، تعال لتحتسي معي فنجان قهوة قبل أن نتوجه إلى العمل. -حسنا أنا قادم في الحال، إي نسيت، ماذا عن نوافذ السيارة؟ إنها مشرعة على مصراعيها. سألته في دهشة. - مفتوحة؟ سحقا! لقد أغفلت عن ذلك، إذاً من الأفضل ألاّ تأتِ، رجاء تسمَّر أمام السيارة لا ترفع عينيك عنها، أنا قادم في الحال، ذلك الشارع مليء باللصوص، *كراخو!* أتى مهرولا بعد هنيهة فعانقني عناقا حارا وكأنه لم يرني منذ عام الفيل. -أمستعد للعمل سيد أنير؟ قال مبتسما. -أكيد مستعد. -أعتذر لأن العمل سيكون شاقا شيئا ما، لكن الجو الممطر سيثير إعجابك أثناء مزاولتك له. -لا بأس لقد اعتدتُ على ذلك، عفوا لم تخبرني عن الأجر سيد رشيد، أردفتُ بنبرة متأنية. -مائة درهم، هل توافق على ذلك؟ أومأت بالقبول. -إذاً اصعد، فقد تأخرنا.

تأهبتُ للصعود إلى السيارة والجلوس في مقعدها الأمامي فصدّني رشيد عن فعل ذلك. -أنير مهلا، أليس يعجبك تقلب الأمواج العاتية

Scanned by TapScanner

يا فيلسوفنا؟ سألني في ابتسامة عريضة. -بلى يعجبني ذلك. -إذاً لن نسير عبر الطريق السريع الباعث على النعاس، وسنختار السفر عبر الطريق الساحلية. -سيكون ذلك ممتعا في جو مطير كهذا. -تماما، إذاً أنصحك أن تصعد إلى المقعد الخلفي الأيسر حتى تستمتع أكثر برؤية البحر في لونه النادر؛ اللون الرمادي، لأننا سنسير والبحر على شِمالنا. فعلتُ كما طلب مني وسرنا متوغلين بين أحياء كازابلانكا، حتى تخلصنا أخيرا من تلك الطرق الملتوية والأحياء المتداخلة، وانحرفنا يميناً ناحية الطريق الساحلية. التفتُّ ورائي وعيناي ترمقان كازابلانكا بنظرات تملؤها الحسرة، كانت تبدو لي من زجاجة السيارة الخلفية وكأنها ترجع إلى الوراء وتبتعد رويدا رويدا، تبدو مثل أم واقفة ترفع يدها لتوديع ابنها المسافر، كانت صومعة مسجد الحسن الثاني العالية تبتعد هي الأخرى والضباب الكثيف يتلولب حولها، أطلتُ التحديق في ذلك المنظر المؤلم حتى بدت كازابلانكا تختفي شيئاً فشيئاً كأنها تَسِيخُ في الأرض.

أخذت السحائب المَوَّارة ترشح بزخات مطر خفيف راسمة لوحة من الرذاذ المتساقط فوق زجاج السيارة الذي أضحى معتما، حتى توارت المدينة الكبيرة عن الأنظار، فطرفتُ أجفان عيني والتفتتُ بهدوء إلى الأمام. -أنير ما بك؟ أراك صامتا لم تنبس بكلمة، هل الجو المطير لا يروق لك؟ قال رشيد ناظرا إليّ من المرآة العاكسة. -لا بالعكس، إني

Scanned by TapScanner

أحبه. -هل سبق أن زرت مرة مدينة بوزنيقة؟ -لا، لم تسنح لي الفرصة لزيارتها للأسف. -هي مدينة صغيرة وجميلة تفصلها عن كازابلانكا مدينة المحمدية، هل زرتها هي الأخرى؟ فأجبت بلا. -سنمر عبرها بعد قليل وستراها، لأننا سننزل بها لاقتناء بعض المأكولات وقنينات الماء المعدني. –ماذا، ألا توجد دكاكين في بوزنيقة؟ سألته. - بلى توجد، لكننا لن نعمل في مركز المدينة، وإنما في ربض من أرباضها المجاورة، وتحديدا في ورشة بناء للشقق الاقتصادية على شفير وادي الشَّرَّاط الخلاب، سيعجبك المنظر الأخَّاد حيث يخترق الوادي غابات الصنوبر الكثيفة. لكن للأسف ما يعاب على ذلك المكان هو أنه منعزل وبعيد عن الدكاكين الواقعة في الضفة الأخرى للوادي. -سيد رشيد هل تسمح لي أن أسألك عن طبيعة العمل؟ قلتُ وأنا ملتفت أتأمل منظر البحر. –بكل سرور صديقي هذا من حقك، سأوضح لك إذاً طبيعة العمل. ثم استطرد: نحن تابعون للمختبر العمومي للتجارب والدراسات، قسم المترولوجيا، ووظيفتنا هي تقديم خدمات في ميادين البناء والهندسة المدنية. وتغطي هذه الخدمات جميع مراحل حياة المنشآت؛ من تصميم، دراسة، تجارب، تتبع ومراقبة. والمطلوب منا هذا اليوم عزيزي أنير أن نذهب كما قلتُ آنفا إلى إحدى ورش البناء التي لم تُكتمل بعدُ، فنتحقق إذا ما كان يوجد ثمَّة غشا في البناء أم لا، عن طريق فحصنا لجودة الأسمنت والحصى،

Scanned by TapScanner

والأسياخ الحديدية والخرسانة، والتأكد كذلك من قوة الدعامات باستعمال جهاز الكاروتاج. -وما المطلوب مني أنا فعله بالضبط؟ سألته في حيرة. -المطلوب منك عزيزي هو أن تكشف عن حديد التسليح في الخرسانة بواسطة المطرقة والإزميل، كي أتمكن أنا من قياس قُطره بالجهاز الإلكتروني فأرى هل هو مطابق لمقترحات المهندس في التصميم، كما إنك ستكشف بالفأس عن حد قواعد الساريات، حتى أقيس عمق توغلها في الأرض، والتأكد مما إذا كانت ستتحمل إضافة طوابق أخرى أم لا عن طريق التقرير الذي سنعده لاحقا. -ممتاز، هذا عمل تقني بامتياز.

وصلنا بعد خمسين دقيقة إلى مدينة بوزنيقة النائمة على أنياب المحيط الأطلسي إلى أن تجاوزناها، حيث أضحت سيارة الضاسيا تقاوم بعجلاتها أكوام الوحل في طريق غير معبد يؤدي إلى وادي الشَّرّاط. توقفنا عند بوابة الورشة المُصاقبة للوادي والمجاورة لغابة الصنوبر، وطفقنا نقرع البوابة إلى أن فتح لنا حارس الورشة، ودخلنا. كان الحارس يدعى مروان وهو رجل عبوس ذا لحية كثة طويلة، لم يكن أحدا غيره هناك؛ لأن مشروع البناء كان قد توقف عن الأشغال منذ ما يزيد عن ثلاثة أشهر بسبب مشاكل نشبت بين شركاء المشروع. تزيى صديقي التقني بلوزته وخوذته الصفراء، وارتديت أنا بعض الملابس الممزقة وبدأنا العمل. ظل هو يسيح في

Scanned by TapScanner

الورشة مصورا بهاتفه هنا وهناك، فيما كنت أنا في الطابق الأول أسعى جاهداً لخرق الخرسانة الصلبة بالإزميل والمطرقة الثقيلة، حتى امتلأ كفي بالبثور المائية، والمطر في الخارج يواصل هطوله. وقف بجنبي بعد ساعة من العمل ويداه وراء ظهره.-أنير، هل تدخن؟ سألني بنبرة جادة. -نعم أدخن. أجبته. -لم أرك تدخن هذا الصباح منذ مجيئنا، إذاً واصل عملك بينما سأذهب أنا بالسيارة لأحضر لك بعض السجائر كي تحسن مزاجك. –شكرا لك رشيد. قلت له في تنهيدة مواصلا ضربات المطرقة. -عفوا، أي سجائر تفضل؟ -سجائر واينستون. -وماذا إن لم أجدها؟ سألني ضاحكا. -إن لم تجدها أحضر سجائر مارلبورو. المهم ألا تأتيني بسجائر ماركيز المُرّة. -أنير حاول رجاء ألا تتبادل أطراف الحديث مع الحارس، إنه رجل متزمت. وأضاف: أنا أعرفه عن قرب. -أيُّ حارس؟ -مروان، صاحب اللحية الطويلة. -آه، تذكرته، الذي فتح لنا البوابة. -هل سبق لك أن خُضتَ في نقاشٍ مع رجل متزمت حول موضوع ما؟ سألني مبتسما. -نعم كان ذلك قبل عام. -حدثني كيف وقع ذلك قبل أن أنصرف. -كنتُ قد احتسيتُ فنجان قهوة مع رجل متدين شديد الوُثوقية، كان المسكين يفسر زمجرات الرياح بأن ميكائيل يضربها بالسوط، وأن هزيم الرعد يحدث نتيجة تصفيقات إسرافيل، وحينما عارضته وفسرتُ له حدوث ذلك بأسباب علمية ملموسة لاذ بالفرار ونسي قبعته

Scanned by TapScanner

البيضاء فوق الطاولة. وبعد ذلك أصبح المسكين مجنونا يتجول في شوارع المدينة وهو يلهج: "قُبّعتي.. قُبّعتي.. لقد سلبني قُبَّعتي!" انفجر ضاحكا حتى كاد يشرِقُ من الضحك وقال: -يا لك من طنّاز. ثم مضى قاصدا سيارته، وواصلتُ العمل. لقد شعرتُ بشيء من الكآبة في هذا المكان العامر بقطع الخشب، المسامير الصدئة، ركام الرمل، والحصى. من حسن طالعي أن الإقامة التي أعمل فيها لازالت في طور البناء ولم تكن محوطة بالجدران الجانبية، كانت توجد فقط سواري وبلاطات خرسانية تدعمها دعامات خشبية، مما جعلني أطيل النظر ناحية غابة الصنوبر القابعة تحت ستائر المطر، مواصلا طقطقات المطرقة فيما جبيني مرصع بقطرات العرق، وفي الوقت الذي كنتُ أشيح بنظري من هذا المنظر البانورامي نحو الأجمة والوادي، وقعتْ سبابة يدي اليسرى بين المطرقة ورأس الإزميل فصرختُ بأعلى صوتي، لم أستطع تصديق ما رأيت، كان إصبعي داميا ومنفطرا إلى شطرين بشكل طولي؛ إذ تهشم نتيجة الضربة القوية للمطرقة الثقيلة. هممتُ بالركض سريعا في اتجاه البوابة قصد طلب إسعافات أولية من الحارس، وبينما أعدو، كانت تقع قطرات دمي على الأرض فتمتزج بالوحل، كان المطر غزيرا جدا، غزيرا وأسودا كالنفط. -مروان.. مروان! أسعفني، أسعفني. ناديته صارخا. -ما بك؟ ماذا جرى؟ -لقد انفلج إصبعي إلى نصفين. اندحرت قواه لما رأى ما

Scanned by TapScanner

حل بإصبعي، فبدا يرتجف وأخذ يلف إصبعي بكتّانة قصها من جلبابه الأبيض رغبة في توقف النزيف. -لا تحزن يا بني، كل شيء سيغدو على ما يرام، قدر الله ما شاء فعل، قال لي متأسفا ثم أضاف: آسف جدا لا أملك أدوية لأسعفك، كما أنه يمنع عليّ مغادرة مكاني حتى تحين دورية الحارس الليلي عند المغيب، لكن إصبعك سيتعفن إذا لم تقم بمداواته، لا يسعني إلا أن أعطيك النقود لشراء الدواء إن لم تكن تملك نقودا. -شكراً لك، بحوزتي نقود، لكن هل توجد صيدلية قريبة من هنا؟ -أكيد إنها تبعد من هنا ميلا ونصف الميل تقريباً، توجد في الضفة الأخرى للوادي. -من أين أسلك إليها؟ -توغلْ في الغابة حتى تجد الوادي، إنه واد مقفر، أُعبره ثم اصعد إلى تلك التلة الخضراء حيث أشير بإصبعي، وراءها ستجد قرية تشبه المدينة بها توجد صيدلية واحدة. -حسنا، أشكرك سيد مروان. –هذا واجب، إي مهلا، خذ هذا المعطف المشمع وارتدي حذائي المطاطي بسرعة، فالمطر قوي، والوادي قد يكون موحلا، إذاً أسرع قبل انقصاف السيل الجارف.

انتعلتُ الحذاء المطاطي، ثم فتح لي البوابة وأخذت أخب بذلك الحذاء الثقيل على الوحل، فيتطاير هذا الأخير ملتصقا بشفتي إلى أن تشطفه خيوط المطر، توغلتُ بين أدغال الغابة المتشابكة تائها بين جذوعها كسفينة تبحر في بحر بلا ساحل، حتى بلغت الوادي.

Scanned by TapScanner

كان ثَمّة سيل رقيق بني اللون بدأ يتسع شيئا فشيئاً ليملأ حفر الوادي العميقة، عبرته بحذر وتجاوزتُ التلة المحدودبة التي كانت تقبع خلفها قرية ذات طرق معبدة ودكاكين، باحثا عن الصيدلية، بينما ألم إصبعي بدأ يتضاعف. بانت لي القرية شبه خاوية، بعدها ذهبتُ مباشرة إلى أحد الدكاكين فسألت البقال عن موقع الصيدلية، فأخبرني أنها توجد في نهاية الشارع على يساري، وأنها مقابلة لمدرسة إخوان الصفا الابتدائية، فسِرتُ على مشارف الشارع الطويل أركض تحت المطر وأتألم، إذ لم أبلغ مدرسة إخوان الصفا إلا بشق الأنفس. أحسستُ بالتعب من كثرة ما جريت، حيث أسندت رأسي على سور المدرسة وصرت ألهث مغمضا عيني، فتحتهما بعد برهة فكانت الصيدلية قبالتي، يا حسرتاه! لا يمكنني أن أصدق، خاطبت نفسي بعدما رأيت الصيدلية مغلقة، خلعتُ نظارتي وكانت حقا مغلقة، ارتديتُها من جديد وعبرت الشارع دانيا منها وكانت فعلا مغلقة. كان ثَمَّة ورقة بيضاء لصيقة ببابها الأخضر، لم أستطع قراءة ما كتب عليها بفعل قطرات المطر المرسومة على نظارتي، ولم يكن لدي وقت لخلع هذه الأخيرة إذ قُضِيَ الأمر، كما ليس باستطاعتي أن أتحدى قوانين الطبيعة، فعدتُ أدراجي من حيث أتيت، ماشيا الهوينى على امتداد الشارع ذو شجيرات النارنج اليانعة والمتمايلة بدلال فوق الرصيف المفضض. ناداني صاحب الدكان من بعيد: - أيا

Scanned by TapScanner

مجنـون! هـل وجـدتَ الصـيدلية؟ حملقـتُ فيـه دون أن أجيبـه، ثـم طأطـأتُ رأسـي وأكملـتُ المسـير مقحمـا يـدي اليمنى في جيبي، فقـال للمرة الأخيرة صارخا بينما كنت أسمع صدى صوته من بعيد: «عـذرا لقـد نسـيت، الصـيدلية لا تفـتح أبوابهـا أيـام الأحـد، أنصـحك أيهـا المعطوب أن تبحث عن عجوز تضمد جراحك بالأعشاب اليابسة!» لم أكترث لقوله المسموع من بعيد، ونحوت إلى الوِهاد الموحلة حيث يمر وادي الشراط. كان هذا الأخير موحلا جدا وتتوسطه برك مليئة بمياه المطر المختلط بالوحل، حاولتُ أن أتفاداها فانزلقتُ واقعا على ظهري داخل كومة من الطين، ورغم ذلك استطعت أن أبقي على يدي اليسرى مرفوعة إلى أعلى خوفا من إيذاء إصبعي الملفوف مرة أخرى.

أضحى المطر يتوقف تارة ويهطل أخرى، بينما أنا مستلقٍ على ظهري الذي ما فتئ هو الآخر يؤلمني. عجزت عن النهوض من تلك الكومة في قلب الوادي، وأغمضت عيني متنهدا تحت زخات المطر، وزمجرات الريح العاتية، وأحسست بعد ذلك بشيء غريب يتسلل من تحت ظهري ويداعب شحمة أذني، كان باردا جدا، كما أنني سمعت دَرْدَرَة السيل تدوي في الوادي، ففتحت عيني بسرعة لأتفقده فوجدته سيلا مائيا رقيقا تطفو عليه أعواد التبن وبُراز الأغنام، فأدركتُ مباشرة أن هذا المجرى الصغير ينبئ بوقوع كارثة. اندلق السيل خلال دقيقة

Scanned by TapScanner

تقريبا، فقمت من مكاني متأوها ووقفت بعد عناء شديد، ملتفتا ناحية اليسار، فلاحت لي من بعيد شجرة مقتلعة من جذورها تطفو باتجاهي، أنعمت فيها النظر فبدت لي قادمة نحوي بشكل سريع، فهممت بالفرار هاربا نحو الضفة ومقاوما ثقل الوحل، لقد ركضتُ بأعلى طاقتي حتى لم يعد يفصلني عن حافة النجاة سوى مترين تقريبا، إلا إنني انزلقت للمرة الثانية، وهذه المرة كبوت على وجهي وسط بِركة موحلة وفقدت نظّارتي. حاولت النهوض مجددا، لكن الوحل كبّل ساقيّ وثبّط من قدرتي على المقاومة، شعرت بأنني كائن ضعيف فصرت أصرخ: رباه أنقذني.. رحماك ربي.. رحماك! صرخت بأعلى صوتي لما أبصرت السيل الجارف قريبا مني، وجذع الشجرة الضخم قادما باتجاه رأسي. كان لابد لي أن أجد حلا عن طريق إعمال عقلي، وإلا لن ينقذني أحد في هذا الكون، وسيلتهمني الماء المرتفع كالطود بعد لحظات، لم أجد بدا من أن أستجمع أنفاسي وأغوص في عمق البركة الموحلة حتى تمر الشجرة المقتلعة من فوق رأسي، كي أتمكن بعد ذلك من التشبث بعروشها، وهذا ما جرى بالفعل، إذ انبطحتُ تحت الشجرة حتى مرت بسلام، ومن ثم تمسكتُ بها مثل طفل يعانق أمه الحنون. ربما استطعت أن أنجو من ربقة الغرق، لكن الأسوأ في ذلك هو أن المياه العنيفة كانت تقودني بقوة إلى جانب الشجرة نحو البحر الهائج الذي كان قريبا جدا، فاحتضنت جذع

Scanned by TapScanner

الشجرة وصرت أصرخ قائلا:«أنا سأموت! أيتها الحياة لن تستطيعين ردعي، أنا مسافر على رمث من خشب، سأمنح نفسي لغَطْمَطَة الموج، لأنياب القروش الضارية، أنا حر أيتها الحياة ولن تستطيعي سجني داخل قفصك الآسن، أنا جبان وسأختار الموت، أخبروا أيها الحمقى المتعطشون للحياة صاحب الصيدلية أننا سنلتقي في محكمة السماء، وداعا!» انتهيت من صراخي وأسندت خدي الأيمن على جذع الشجرة مثل مَن يحتضر، وكأني في النزع الأخير من الحياة.

شاءت قوانين الطبيعة خلال بضع لحظات أن أمكث حيا بإصبع متعفن، إذ ارتطمت الشجرة الطويلة بأسطوانات قنطرة السكة الحديدية، عالقةً بالشجيرات النابتة هناك. أمسى فؤادي في تلك اللحظة مهجعا للمشاعر المتناقضة؛ حب الحياة، والرغبة في معانقة الموت، ألم الجرح، ولذة النجاة. مكثتُ متمسكا بأغصان الشجرة العالقة إلى أن توقف المطر، وخبا السيل الجارف خلال بضع ساعات من الزمن، ثم هفوت كالتمساح صوب الضفة حيث كان منسوب المياه آنذاك يتعدى سرتي حتى لمستْ يدي المرتجفة حافة النجاة، فتمددت على الضفة مندحرا. قمتُ واقفا لكني سقطتُ، فجثوت على ركبتي متعثرا بين الأشواك، وبرد الشتاء لازال يهرأ جسدي المثلوج، بدأت الشمس الدافئة تظهر خلسة وتختفي بين السحائب العابرة، حتى إذا تبددت الغيوم وغدا الجو مشمسا طفقتُ أكشط

Scanned by TapScanner

الوحل عن حذائي الأيسر، أما الأيمن فقد جرفته مياه الوادي. وبقدم حافية، وجسد ملطخ بالوحل، سرتُ أترنح بين السهوب المبللة وجذوع الشجر، باحثا عن ورشة البناء التي صارت بعيدة شيئا ما. أخيرا لمحتها من بعيد وبدون نظارة، ثم أخذت أرنو صوبها لأقف كرجل من طين أمام البوابة بحذاء مطاطي واحد في يوم شاتٍ ذا مسغبة!

-5-

فتح حارس الورشة البوابة بعدما سمع نداءً غير معهود، وتسمر في مكانه مندهشا، فعلى الرغم من أن مروان رجل مقطب الوجه وعبوس، إلا أن الحزن الممزوج بالابتسامة العريضة حفر قنوات من الدموع المنهمرة على خديه، إلى درجة أن سُبْحَته التي يحملها بين أنامله سقطت من بين يديه من جراء الصدمة، أما صديقي رشيد فظل ينتظرني على أحر من الجمر بعدما حاول الاتصال بي مرات ومرات، لم يكن يعلم أن هاتفي عطلته مياه الوادي، وأنه صار قطعة من طين. استغرب كثيراً عند رؤيته ما حل بي، لم يسألني عما جرى، وأخذ يساعدني في خلع معطفي المثقل بالوحل تحت أشعة الشمس الدافئة، فيما أعطاني مروان جلبابا خشنا وصندلا بلاستيكيا كان ينتعله عند كل وضوء على حد قوله، وأمرني أن أدلف نحو الشاطئ المجاور فأشطف الوحل عن سائر جسدي. وقد رافقني رشيد في

Scanned by TapScanner

طريقي نحو الشاطئ، وأثناء المشي حكيت له ما وقع بالتفصيل، كان يعلم ما حل بسبابتي ووعدني بأنه سيتكلف بعلاجي وسيمنحني هاتفا ذكيا من الطراز الجيد كان يضعه في سيارته.

تخلصتُ من كل آثار الوحل، وعبء الشتاء، من خلال غطسة منعشة في بحر تصطخب أمواجه تحت أشعة الشمس المتحررة من حلكة الغيوم، غير مبالٍ لدمامل إصبعي التي لا تزال تنزف، إذ كان مرادي في تلك اللحظة هو إزالة الوحل العالق بإصبعي لئلاّ يسبب لي ما لا يحمد عقباه، لقد كنتُ أستشعر لذة السباحة، وفي نفس الوقت أعاني من حرقة الألم الشديدة في إصبعي، التي كانت تضاعف ملوحة البحر من حدتها. وبعد الانتهاء من السباحة، شطأتُ نحو صخرة بجنب الشاطئ وأنختُ هناك ساعيا لاستعادة إيقاع قلبي المفجوع، في حين كان رشيد؛ الشاعر بالذنب واقفا ومشبكا ذراعيه على صدره يراقبني من بعيد، حتى لوح لي بيده فارتديت الجلباب الأحرش ثم سرنا حذو النعل بالنعل نتعقب بتؤدة الطريق المفضي إلى الورشة.

شرع رشيد يجمع أدوات العمل غبّ وصولنا إلى ورشة البناء ويقحمها في صندوق الأمتعة، وعقب انتهائه من ذلك، وَدَّعْنَا مروان؛ الحارس الودود الذي لا يترجم مظهره مكنونات جوهره. اقتعدنا السيارة مغادرين المكان، فيما مروان يتأهب لإغلاق البوابة، كان يلوّح بيده

Scanned by TapScanner

تحية إلينا ويهتف قائلا: «-أنير لا تعد لي الجلباب، خذه إنه هدية مني لك، وادرس جيدا، لقد قال لي رشيد إنك متخصص في الفلسفة، أنا أيضاً أحب الفلسفة وتعجبني أفكار ابن رشد، في أمان الله وحفظه !» ومضينا تاركينه وحيدا ينتظر رحمة المساء.

أوصلني رشيد؛ الصديق الكازاوي بسيارته عند الغسق إلى الحي الذي أستوطنه، أعني -حي مولاي رشيد- ثم أعطاني هاتفا جميلا من نوع سامسونغ غلاكسي إس7 ومد لي ثلاثمائة درهم قائلا:« خذ، هذي مائة درهم لقاء عملك المشؤوم، وحينما يندمل جرحك ستظل تعمل معي كل أيام فراغك لئلا تسقط ضحية شفقة الغير، ريثما تُصرف لك المنحة الجامعية، وهذه مائتا درهم ستقتني بها أدوية لعلاج سبابتك» وأردف:«اسمع جيدا، قل للصيدلي أن يعطيك ضمادات مع لفائف جيدة، وسائل البيتادين أو البوفيدون يودي، لا تنسَ أيضا أن تشتري حبوب الأمريزول إنه دواء مضاد للبكتيريا، أجدد لك أسفي عزيزي وأتمنى لك شفاء عاجلا.» قال ذلك وولّى إلى منزله. فدخلتُ غرفتي المظلمة كفوّاهات البنادق، وأشعلت المصباح المرقط بذرق الذباب. خلعت عني الجلباب معلقا إياه في مشجب الملابس، وبعدها أشعلت سيجارة ورميت العقب من النافذة، هبّ نسيم المساء البارد، فصفق أبواب النافذة محدثا ضجة مدوية تلاها سكون رهيب قادني إلى تفحص كل الصور التي سجلتها ذاكرتي خلال هذا اليوم اللعين.

Scanned by TapScanner

كان أول شيء قمتُ به في تلك اللحظة هو أنني نزعتُ الشريحة التي تحمل أرقام أصدقائي وأقربائي كل واحد باسمه من الهاتف المعطل ونظّفتها، ثم وضعتها في هاتف *سامسونغ* الأنيق قبل أن أهوي على السرير مُصدرا آهة عميقة، غططتُ على إثرها في نوم لذيذ قطعه رنين الهاتف للأسف. مَن يكون هذا الأحمق الذي يبغي إزعاجي؟ سألتُ في نفسي. آه إنها حبيبتي مولا، قلتُ بعدما أبصرت كلمة حُبّي بارزة على شاشة الهاتف. -أهلا وسهلا بحبيبتي مولا، اشتقت إليكِ كثيرا حبيبتي. -لا أهلا ولا سهلا، وليس يهمني شوقك المصطنع. قالت مُستشيطةً غضباً. -حبيبتي ما لَكِ؟ رجاء قولي ماذا فعلتُ بحق السماء؟ -أرجوك لا تعاود تكرار كلمة حبيبتي، أرجوك فأنت لا تدري قيمة هذه الكلمة الثقيلة. -إذاً اشرحي لي ما الأمر؟ -اسمع جيدا، تصرفاتك الصبيانية ما عادت تروق لي إطلاقاً، فأنتَ أوصيتَ أصدقاءك البلداء مثلك بأن يراقبونني عن بعد هنا في جامعة مراكش. ثم تابعتْ: أينما التفتُ إلا ووجدتُ غبيا من أغبيائك المرضى يشيح بعينيه ناحيتي، نظراتهم الشاخصة تشعرني وكأني مجرمة في سجون غوانتنامو، إليك عني، *بِّيِنْدِيخُو!* حتى المحاضرات الفلسفية ما عدت أتدبرها بفعل تشويش هؤلاء الحمقى الذين يحملقون فيّ كل يوم، لقد تبين لي بالملموس أنك لا تثق بي. قالت بلهجتها الحسّانية. - أقسم أنكِ أضحكتني يا مولا، أيعقل في نظرك أن آمر أصدقائي

Scanned by TapScanner

هنـاك بـأن يراقبـوك؟ ولمـاذا سـيراقبونك؟ مـولا افهمي جيـدا ولا تلعبي بالنـار، أنـت تعلمـين كـم أحبـك وأثـق بوفائـك لي، رجـاء لا تنشـغلي بترهـات الآخـرين وركـزي على دروسـك حبيبتي الغاليـة. -أركـز على دروسي أو لا أركز هذا لا يعنيك في شيء وانقضى الأمر. ثم تابعت: من هذه الليلة فصاعداً لم يعد بيننا شيء، أتسمعني؟ إنسَ اسم مولا، أرجوك امحه من ذاكرتك فأنا في حاجة ماسة إلى الراحة. -مولا أبهذه البساطة استطعتِ أن تتخلي عن شخص يحبك من أعماق الفؤاد؟ تُرى ماذا أفعل؟ أنا أحبك مولا؟ فردت مجيبة: - أنت لا تحبني وحِيَلُكَ لا تنطلي عليّ، حتى وإن افترضنا أنك كنت حقاَ تحبني فحبك شعور بارد ما عاد يعنيني، أنت لا تهتم بشأني، صدعت رأسي بـ مشغول.. مشغول.. رجاء تفَهّم قصدي، أنا لم أطلب منك سوى الثقة والاهتمام، سوى أن تسأل عن حالي وظروفي حتى أستشعر دفء الحب وأدرك أنك حقا تحبني، إن الحب يا أنير شعور بالاهتمام وليس مجرد كلام، وهذا ما لم ألتمسه فيك للأسف، لذا فلينسَ كل منا الآخر، واتركني من فضلك وحيدة فأنا كالوردة في الهجير؛ لا الحر يذبلني ولا النحل يؤذيني، أنت لازلت لم تدرِ بعد من تكنَّ الصحراويات، وداعا يا أفضل صديق صادفته في حياتي. ثم انقطع الخط. -ألو .. ألو مولا! ألو حُلوتي..! لا جواب. عاودتُ الاتصال بها فكان الجواب كالتالي: «اتصالات المغرب ترحب بكم..!» حاولت في

Scanned by TapScanner

أسرع ما يمكن أن أراسلها عبر الفيسبوك، فوجدتها قد حظرتني من قائمة أصدقائها، فأردت أن أرسل لها رسالة عبر الواتساب أبين لها من خلالها أنني بريء مما تقول ولم أقارف ذنبا في حقها، فاكتشفت أنها حظرتني من الواتساب أيضاً، بل حظرتني قبل أن تتصل بي. لقد تحطمتُ، اندحرتُ، وتجهّم وجهي، عذاب بعد عذاب، معاناة تلوَ أخرى. ماذا يجري بحق الجحيم؟ ماذا تفعلين يا قوانين الطبيعة؟ "حبيبي،" "حياتي،" "أنتَ نجمي الذي أهتدي به إذا ضللتُ،" "لن أتخلَّ عنكَ ولو تجف البحار وتهتز الجبال،" "سننجب طفلاً وطفلةً،" "سنقطن في ورزازات الهادئة..." كلمات كلها مضت أدراج الرياح، كلمات تلاشت بين عشية وضحاها. إنّ كل ما كنتُ أبنيه وأطمح في أن أبنيه، دَكَّتهُ مولا في غضون عشر دقائق وعبر الهواء، كل ذلك الحب الذي كنت أرزح تحت رحمته، والكلمات التي كنتُ أكتبها من أجل حبيبتي في أعقاب الليل، وأصيغها من ضوء النجوم؛ جَبَّتْها مولا فغدت بلا طائل! لقد كانت عيني مترعة بالدمع وقلبي مطفح بالغيظ، في الحقيقة أنا لازلت لم أصدق بعدُ، فأحياناً تخامرني أفكار مترجرجة من قبيل أنني كنتُ أحلم فقط، وحينما أدرك أن الواقع ليس حلما، أقول في سري إن مولا كانت على غير سجيتها أثناء اتصالها بي، فلربما أضناها وجع الطمث، وستعود إلى سيرتها الأولى!

Scanned by TapScanner

-6-

في صباح اليوم التالي، أخذتُ محفظتي الجامعية متوخيا الذهاب إلى الكلية، وعند نهاية الزقاق انتصبتُ واقفا أمام عربات باعة الفواكه والخُضار؛ أشيح بعينيّ الصغيرتين هنا وهناك بحثا عن بائع فطور ساخن، لأن فطور المحلبات بات شيئاً غير مناسب في فصل تَدْلَهِمُّ سماؤه بسُحُب مزجاة. ومن بعيد لاح لي بائع فطائر يتهافت عليه طلاب الجامعة، كان عليّ أن أعبر إلى الجانب الآخر من الشارع كي أتناول أنا أيضاً ما لذ وطاب من الفطائر الكازاوية. لم يُكرِّس بائع الفطائر المدعو الدُّكَّالي كراسي للجلوس، إذ كان زبائن الدكالي يفطرون واقفين كجنود هتلر في معارك الشتاء. وقفتُ أنا الآخر كباقي الزبائن، وأثناء وقوفي نعرني شخص ما تحت إبطي حتى اضطرب كوب الشاي الحار بين يدي. التفت مباشرة فوجدت لمياء في وجه بشوش وابتسامة عريضة ترقص على شفتيها، لابسة وزرتها البيضاء المدرسية، كانت فقط تود مداعبتي. -أين طال الغياب شكولاطتي؟ لم أرَك هذه الأيام رغم أننا نقطن في منزل واحد، لقد اشتقتُ إليك. فأجبتها بعد قضمة من الفطيرة الساخنة:«لقد كنتُ جاثما هذه الأيام في غرفتي بسبب هطول المطر.» -إي ما لكَ؟ أراك عبوسا ومُحمَرّ العينين أين ذهبتْ بشاشتك؟ سألتني مشدوهة. -لا شيء، فقط لم أَنَمْ البارحة وبتُّ أنحب في ليلة جافاها القمر وهذا سبب

Scanned by TapScanner

احمرار عيني. -ولِم النحيب عزيزي؟ وأين نظارتك الطبية؟ أريد أن أعرف لقد اعتراني الفضول. -نظارتي تكسرت. -هل تشاجرتَ مع أحدهم؟ -تكثرين طرح الأسئلة مثل طفلة صغيرة. تأفّفتُ. وقلتُ: - كلا، لم أتشاجر مع أحد قط، لقد كانت نظارتي ملقية في الغرفة فرفستها بقدمي، لم أبصرها بسبب الظلام، لأن المصباح كان معطلا آنذاك. كذبتُ وأضفتُ متمتما: لكن، سأقتني أخرى هذا الأسبوع. — لا. صرخَتْ. لا تقتنها، أنتَ تبدو أجمل من دون نظارة، أقسم لك. غمغمتْ بنبرة بريئة. -كلا لمياء، سأشتري نظارة هذا الأسبوع. -أف، ولماذا؟ -حتى أراكِ جميلة أكثر. -ألستُ جميلة أنا؟ -بل أجمل. -كفى، أنت تكذب عليَّ. رطنت قلقة واستطردتْ: كم أنت بطيء في تناول الفطور، لِماذا لا تفطر في غرفتك؟ -لا أملك قنينة غاز، سأشتريها اليوم. -أنير أسرع فالوقت يداهمنا، الساعة الآن تشير إلى السابعة وسبع وأربعين دقيقة، ربما سأنصرف الآن لأني أخشى أن تفوتني حصة العلوم الفيزيائية ثانية. -انتظري، دقيقة وسأنصرف. وأضفتُ: لمياء أنت لم تخبريني عن مستواك الدراسي. -الأولى باكلوريا علوم تجريبية قسم اللغة الإسبانية، في ثانوية الفارابي المتاخمة لكليتك. أجابت. -لم أفهم، اعترضتُ. وقلتُ لها: ماذا تقصدين بقسم اللغة الإسبانية؟ -أقصد أننا ندرس اللغة الإسبانية كلغة أجنبية ثانية استعاضاً عن اللغة الإنجليزية عكس الأقسام الأخرى. وضّحتْ. -آه

Scanned by TapScanner

جميل جدا، المهم أننا سنعرج معا في الطريق الآن. جذبتني من ذراعي بعنف وقالت مستغيظة: - إذاً أرشف كوبك سريعا وهيا بنا. فأنهيتُ كوب الشاي اللاهب على مضض وذهبنا معا، وغِبَّ وصولنا إلى باب الكلية خلال بضع دقائق قالت لي من جديد: -أنير شعرت أن لديك مشكلة ما، أنا واثقة من ذلك، رجاء متى ستحكِ لي عن مشكلتك؟ - سأخبركِ لاحقا، عندما نلتقي مرة أخرى. -هل لديكَ حصة في المساء؟ -لا، لستُ أدرس مساء الاثنين. -واو، ممتاز، أنا أيضاً مثلك لا أدرس مساء اليوم. قالت مبتسمة. -يعني هل سنلتقي في المساء؟ سألتها. - أكيد، وسنذهب إلى مكان جميل سيثير إعجابكَ، وسنمكث هناك إلى حين تتدثَّر كازابلانكا بستار الظلام. -أيُّ مكان؟ -الغابة الخضراء، إنها غير بعيدة، أعدكَ أنها ستعجبكَ، هل أنتَ موافق؟ قالت بحماس مبالغ فيه. فأومأتُ بالقبول. -يو يو يو. زغردتْ بفرح شديد مثيرة بذلك استغراب الطلبة والمارة المبتسمين. أنا جد مسرورة أقسم لكَ، سنتحدث معا وسنأكل الفُشار، ستنسى همومك يا خوان كاميلو هيرناندیز. -من يكون هذا؟ أهو ممثل مكسيكي؟ سألتها مقوسا حاجبي. -كلا، إنه لاعب كرة قدم كولومبي مشهور كالعيد، ومعروف باسم كوتشو، إنه يشبهك كثيراً، مُذ يومنا هذا سأناديك باسم كوتشو. قالت ضاحكة. -في أي فريق يلعب كوتشو؟ سألتها. -في نادي هويسكا وهو فريق يقبع في الدرجة الثانية من الدوري الإسباني. -

Scanned by TapScanner

للأسف لم يسبق لي أن سمعتُ بهذا النادي، وأردفتُ: على أيٍّ؛ أين سنلتقي قبل الذهاب إلى الغابة الخضراء؟ -أفضل أن تنتظرني أمام بائع الفطائر عند الرابعة عصراً إذا كان التوقيت يناسبك، ما رأيكَ؟ فهززتُ رأسي مبتسما. -إذاً سأذهب الآن قبل أن يغلق حارس مدرستنا الباب في وجهي، وداعا كوتشو، موعدنا في الرابعة، إياكَ ألا تأتي. فودعتها ودخلت الكلية متنهدا.

أصررتُ على ألا أنكث وعدي مع العلم أني رجل متقلب المزاج، وعادة ما أخلف الوعود، لكن، ما دامت هذه المراهقة بشوشة وتقهقه بلا سبب، فسأنتظرها، لأني في حاجة إلى شخص ينفس كربي، وأضحك معه قليلا، على الرغم من أنني شخص عاشق للعزلة، فالضحك مع الغير هو ترياق لمواجهة مآسي الحياة. انتظرتها في المكان والزمان المتفق عليهما، فأتت متأخرة بأربع دقائق فقط، كانت متبرجة بمكياج المساء، ووجنتاها حمراوان كشقائق النعمان، مفتعلة ابتسامة عفوية. ظهرتْ أكثر جمالا في هيئة تخطف الأبصار، وإشراق يستميل القلوب نحوه؛ كان وجهها مثل مرآة مجلوة، وكانت ترتدي بنطال الجينز الضيق في لون سماوي، قصيرا شيئاً ما مما يبدي عن كاحليها. وحذاء باللونين الأحمر والأسود من نوع إيرماكس، وتيشُرتْ أسود وضيق هو الآخر، لم يكن يبلغ الحزام الأحمر لبنطالها مما يبين عن سرتها، كما أنه مُشبَّكٌ من جهة نهديها. ومن فوق، كانت تلبس معطفا

Scanned by TapScanner

أحمر اللون، فضفاضٌ وواسع الردن، ذو أكمام مزدانة بفيونكة تمنحه لمسة عصرية، وحقيبة صغيرة على ظهرها، تشبه حقائب أطفال دار الحضانة، مرصعة بنقاط حمراء وأخرى سوداء. في الحقيقة كانت تبدو مثل عارضة أزياء مصورة على ظهر مجلة؛ نهدان ناشزان مثل رمانتين، مؤخرة بارزة وممشوقة في ثنايا البنطال، وشفتين مُحمَرَّتين. أما شعرها المصبوغ حديثا باللون الكستنائي فقد كان مربوطا ومشدودا خلف أذنيها مما ينمُّ عن أناقة رفيعة. والذي زادها جمالا بالنسبة إلى ذوقي الخاص؛ هو أنها فتاة شغواء؛ فحينما تبتسم يبرز نابها الأيمن في فكها العُلوي خارجا عن صف أسنانها اللامعة، كما أنّ لديها حاجبان مقوسان كأشرعة السفن القديمة. - تبدين أشد فتنة من زهرة البيغونيا يا حسناء كازابلانكا. قلتُ لها في إعجاب كبير. فتوَرَّدت خجلا ثم قالت: -سررتُ كثيرا لما رأيتك تبتسم الآن، كان وجهك محتقنا في الصباح. -صحيح لمياء، كان وجهي وكل جسدي لاهبا كلهيب الثودكا بسبب الحزن والأسى، أما الآن فقد خبا لهبي بعد فورة الغضب بفضل جسدك المضمخ بشذىً من العطر الزكي. -أحقا؟ سألت في ابتسامة يطبعها الخجل. –بالتأكيد لمياء. لقد سبق أن قالت لي لمياء في الصباح إنني سأنسى كل همومي بمجرد أن نجلس معا في الحديقة، إلا أن أحمرها الجذاب، وعطرها الفواح؛ جعلني أنسى شظف الأيام الخالية، وخلّصني من البلاء الذي جثم

Scanned by TapScanner

على صدري منذ أول وهلة رأيتها فيها هذا المساء، بعدما كنت أرى أبواب السعادة في وجهي مُنْسَدَّةٌ، والمعاناة على صدري مُمْتَدَّةٌ، والحياة بصفة عامة ضنكى ومُسْوَدَّة. سألتها عن نوع العطر الذي يفوح من ثيابها الفاقعة اللون، فأخبرتني أنه عطر "*ميدنايت رومانس*" الذي اقتناه والدها الأسبوع الماضي من مدينة كاسيريس الإسبانية بمناسبة عيد ميلادها السادس عشر. أحيانا كان يتسلل إلى روحي شعور بالندم شديد، بعدما سألتها عن نوع العطر الذي تستعمله، بسبب الإجابة غير المتوقعة التي تلت سؤالي، إذ اكتشفت عن طريق هذا السؤال الاعتباطي أنها تصغرني بسبع سنوات بعدما ظننت أنني لا يمكن أن أكبرها إلا بثلاثة أعوام على الأكثر، والباعث الثاني على ندمي هو أنني لم أسمع إطلاقا هتافات حفلة عيد ميلادها وأنا الذي أشاركها نفس الدار وأبيت راعيا النجوم طوال الليل. مكثنا واقفيْن أمام بائع الفطائر ندردش للحظات حتى قالت مطرطقة أصابعها المرهفة بنعومة: -إي، هل سنظل واقفيْن هنا؟ هيا لنمض إلى الحديقة قبل أن ترانا ماما فأنا أخبرتها أن لدي حصة الفلسفة في تمام الرابعة.

مشينا الهوينى نحو الغابة الخضراء، إذ كانت لمياء ترفق ذراعها بذراعي متجاذبين أطراف الحديث، وكثيرا ما كنت أذعن بالضحك غير متعمد كلما تلفظتْ كلمة بها حرف سين، كونها فتاة لثغاء لا تقوَ

Scanned by TapScanner

على نطق هذا الحرف، إذ تنطق ميسي لاعبها المفضل بميثي، وهكذا سرنا نضحك معا ونتمايل على طول الرصيف المحدودب كشجيرات اللِّيتْشِي. ولما انتهينا إلى الغابة الخضراء لمحْنا كرسيا من الأسمنت فارغٌ تتجه صوبه امرأة وطفليها الصغيرين، كانوا يرغبون في الجلوس، لكن لمياء التي كانت بمعيتي جاءت من خلف المرأة تهرول إلى الكرسي، ثم جلست ووضعت حقيبتها المزركشة جنبها حتى لا تشاركها المرأة وطفليْها الكرسي، فأمسكتُ لمياء من ذراعها وفسّرتُ لها أن هذا سلوك لا أخلاقي، لأننا إذا عممناه على الجميع فلا غرو ستعم الفوضى في المجتمع، وسيغدو الناس كالبهائم يتسابقون وراء الكراسي. -لستُ وحدي من يتسابق نحو الكراسي، الكل يفعل ذلك. تمتمت لمياء مستغيظة. -أرأيتِ يوما شخصا يتسابق نحو الكراسي؟ - نعم، أصحاب البطون المنتفخة. رطنت بصوت غير مسموع. -هؤلاء نعذرهم يا عزيزتي. -ولِمَ نعذرهم؟ -لأن بطونهم ثقيلة ولا يقوَوْن على الوقوف، لذا وجب أن نُكَرِّسَ لهم كراسي عليها يستريحون. -إذاً أنت تقر أننا نحن من منحهم حق التربع على هذه الكراسي، أليس كذلك؟ -بلى لمياء هو كذلك. -ومن أعطى الحق لهذه المرأة حتى تجلس على هذا الكرسي؟ -أنا. أجبتُ بجدية. -إذاً اجلس على هذا. أشارتْ بالوسطى. -لمياء أنتِ في حالة غضب الآن لذا لن أكترث لِما تقولين. - أنتَ الذي أغضبتني، أف. همهمتْ غضبانة. -لا يا لمياء لستُ أنا من

Scanned by TapScanner

أغضبك وإنما تفاؤلك. -تفاؤلي؟ كيف ذلك؟ -التفاؤل عزيزتي هو سبب غضب الإنسان، بمعنى أن الشخص يتوقع أن الذي سيصادفه في المستقبل القريب أو البعيد هو شيء حسن، فيحدُث أن يقع عكس ذلك فيصاب بإحباط وتذمر، ومن ثم يقع فريسة للغضب، وعلى هذا المنوال تفاءلتِ أنتِ بأنك ستجدين كراسي الحديقة شاغرة، وسنجلس معا مستمتعين بهدوء المكان، فكان الواقع عكس ما توقعتِ مما جعلك تغضبين. في حين كنت أنا متشائما بأنني سأجد في الحديقة سكارى ونشالين وأعشاب مجتثة، فلم أجدها وسررت بما لم أجد، لذا فأنا سعيد من هذا الجانب. -لقد جنَّنتك الفلسفة أيها المعتوه، كيف تتجاسر على قول هذا؟ وأضافت: هل تقصد أنه يتوجب علي أن أكون متشائمة. -بالفعل، كي تتمتعين بالسعادة. —آه حسنا، سأحاول رغم أنني لم أستوعب قصدك جيدا، على أيٍّ انسَ الموضوع وهيا بنا نجلس فوق ذاك العشب الناعم. قالت مشيرة بحقيبتها الصغيرة.

ابتركنا تحت شجرة متفيِّئيْن بظلها السَّجْسَج، إذ كانت لمياء جالسة وممدة ساقيها على العشب، فيما أنا مسند رأسي على فخذيها الثخينين كما أمرتني؛ يداي مجموعتان على صدري، وعيناي مقابلتان لعينيها حيث تتلاقا نظراتنا في الفراغ. كانت تصفعني بلطف على خذي وأحيانا تجتث العشب فتنثره على وجهي بابتسامة

Scanned by TapScanner

مرسومة على شفتيها. عضّتْ بأسنانها على شبرة الشعر الحمراء وصوبت نظرها نحو إصبعي المربوط بضمّاد الشاش بينما هي تسدل شعرها. -إي كوتشو، ما بال إصبعك؟ لم أنتبه إليه في الصباح. قالتْ بكلام غير واضح بفعل عضها على مشبك الشعر. -اطمئني، إنه مجرد جرح بسيط وسيندمل. -هل تملك مطهر الجروح؟ -سأشتريه هذه الليلة، لكن سبق وأن عقمتُ إصبعي ليلة البارحة بمبيض الغسيل.- مبيض الغسيل؟ قوست حاجبيها. -نعم مبيض الغسيل.- يا مجنوناً! هل أصبعك جورب حتى تطهره بمبيض الغسيل؟ أظنه سيضاعف من ألمك، إنه يحرق -.صحيح، لقد آلمني. -كوتشو هل نسيت؟ قالت متحسسة خدي بأظفارها المطلية باللون الأحمر. -وماذا سأنسى؟ - وعدتني صباح اليوم أنك ستخبرني عن مشكلتك بمجرد أن نلتقي. -آه تذكرتُ الآن، مشكلتي يا لمياء هي أن حبيبتي تخلت عني، لقد انفصلنا يا لمياء، وهذا كل ما في الأمر. -انفصلتما؟ فَغَرَتْ فاهها مصدومة، واستطردت في شهقة عميقة: آسفة كوتشو! الحب شيء جميل لكنه مؤقت كهطول المطر، أرجوك أخبرني كيف حصل ذلك. –لمياء، في الحقيقة أنا عاجز عن سرد قصتي المأساوية في هذه اللحظة، المهم أنها هجرتني. -هجرتك؟ تساءلتْ ضاحكة وأضافت تقول: وماذا بعد؟ هل تغيرت قوانين الفيزياء؟ هل سينتهي العالم؟ أنتَ الآن في أفضل حال من دونها، تسند رأسك على فخذين ناعمين وتتدرَّج إلى نهدين

Scanned by TapScanner

يحبسان الأنفاس وتبتسم، هي لم تدرك قيمتك ومكانتك لذا هجرتك، لكن، فيمَ يضر هَجْرُ النحلةِ النَّخلةَ جنبَ الوادي؟ لم يعُد هناك فرق بين مرتبط ووحيد، الحياة اللعينة ستنكح الجميع يا كوتشو. -هل تظنين أنني سأستطيع أن أنساها بهذه السهولة، وبعد كل ذلك الحب العميق الذي كنتُ أكنه لها؟ -نعم تستطيع فعل ذلك، أحرق كل صورها وجعِّد كل الأوراق التي لطختها باسمها، مزقها وانثرها في بحر كازابلانكا وهكذا ستنساها. -لن أستطيع يا لمياء، أنا لا زلتُ أحبها، أنتِ مخطئة يا لمياء. صرختُ ضاربا على العُشب براحة يدي. وتابعتُ: لكن لماذا تخلتْ عني وهي تعلم كم أحبها؟ لماذا ذهبت وتركتني وحيدا. قلت مذرفا الدموع. -إي ما لكَ تبكي؟ صاحت لمياء. كفكفْ دموعك فهي لا تستأهل هذه الدموع الغالية. وأضافت: أُتركها تذهب حيث تشاء، فلتنطفئ كشمعة تحت زعيق الرياح ولتمضِ نحو الظلام، تبا لها فهي لم تسمع المسكينة صوت السماء بعد. -وماذا يقول صوت السماء يا لمياء؟ -يقول إن أرض الله واسعة! - يا لمياء، إني أحبها وهي عندي أرفع من السماء وأعذب من الماء، أتفهمين معنى ذلك؟ -نعم أفهم، أفهم، ولا داعي لأن تصرخ في وجهي. رمتني بنظرة سامة. -آسف لمياء. ربتتُ على ظهرها بحنان وأضفتُ: أتعلمين يا لمياء لقد كنتُ أطيعها إلى حد بعيد، كنت أفعل كل ما تأمرني بفعله وكأنني أمحضها الولاء. –يا لها من دناءة في النفس، لم

Scanned by TapScanner

أكن أعلم أن أنير؛ الرجل الصارم، هو شخص ذليل في الحب. -لمياء عليكِ أن تعلمي جيدا أن ما إن يتنسم السيد الجبار ريح الحب ويتذوق طعمه، حتى يصير عبدا مطيعا لمحبوبه المولاء، فتتغير نظرته القاسية إلى الحياة، حيث يرى ظلمات الأرض نجوما متلألئة في السماء، وتبدو له الأسود الزائرة في البراراي غزلانا باغمة في الحدائق الغَنَّاء، هذا ليس دناءة في النفس يا لمياء، وإنما الحب كذلك هو، فيه يغدو الأعزاء أذلاء! -أف، أنا لا يهمني هراؤك الصوفي، ما يهمني هو أن لا تثق ثانية في أية أفعى من الأفاعي السامة، لأن الأفعى لا تستحق الحب، لذا كن حذرا ولا تتعامل بحسن نية، فما تجيده الأفعى هو التهام الطرائد السمينة ولدغ أنصاف الرجال! لا تثق مجددا يا كوتشو حتى تستطيع أن تتمدد على سريرك وأنت مفعم بالطمأنينة والهناء، وليس بعقل مصدوع وقلب موجوع، وعين مولعة بالدموع.

مر من أمامنا عجوز يعتصي عصا، وهو بائع قهوة متجول يحمل في يده مرجلا نحاسيا وعلب سجائر. اقتنيتُ منه بضع سجائر وكوبين بلاستيكيين من القهوة المنسمة بالأعشاب، وشرعت أرشف قهوتي وأرضع سيجارتي بلطف، بينما ألقت لمياء بكوب القهوة على العشب. -ما هذا المذاق بحق الجحيم؟ قالت متقززة. -ما بك لمياء؟ لِم سكبتِ القهوة؟ -لم يعجبني مذاقها المقزز وكأن ابن العاهرة هذا قد تبول فيها. -لا أظنه يفعل ذلك يا لمياء، تلك مجرد نكهة القرفة. تمتمتُ

Scanned by TapScanner

وضباب السيجارة يتلولب حول عنقي. -أنا لا أثق مطلقا في هؤلاء العجزة. -بالفعل هم مصدر كل الشرور في هذا العالم. -لأنهم يكونون على شفا حفرة من الموت يخربون العالم من ورائهم قبل أن يرحلوا. - تماما لمياء. -كوتشو هل أنتَ مدمن على التدخين؟ ربما هذه هي المرة الأولى التي أراك تدخن فيها. قالت دون أن يرف لها رمش. -أنا لا أدخن على الإطلاق يا عزيزتي. قلتُ بلهجة محترمة. -وماذا عن هذا الدخان المتصاعد من شفتيكَ المتفحِّمتين؟ سألت مندهشة. -ذاك دخان قلبي وهو يحترق!

-7-

أثناء دردشتنا الفضفاضة التي دارت على موضوع الحب، استنتجتُ أن هذه المراهقة صارت ترقص على أحزاني وجراحي، حيث كانت تطفح سرورا إثر هجر حبيبتي لي، وما يعزز افتراضي هذا، هو إلحاحها عليّ بأن أنسى مولا، وأبدأ حياة جديدة باسم جديد هو كوتشو، وفي مدينة جديدة تدعى كازابلانكا. إن كل ما قرأتُه عن الحب في مجلدات الفُرس والعرب القدامى، غدا رمادا تنثره لمياء كيف شاءت، كل تلك الأفكار العظيمة عن الحب والوفاء، والتي أفنى من أجلها هؤلاء الفلاسفة أعمارهم؛ تبخرت أمام نهدي مراهِقة. – كوتشو، كوتشو، اضحك، هيا لا تمكث هكذا مقطب الجبين. قالت بعدما دغدغتني في إبطي. -لمياء من فضلك ليس لدي رغبة في المزاح،

Scanned by TapScanner

أفضل أن تنصرفي وتتركينني وحيدا ليتني أجد نفسي. -كوتشو ما بك؟ بم تشعر؟ تخللتْ شعري بأناملها الرقيقة. -أشعر أنني بحاجة إلى الانتحار يا لمياء، بحاجة إلى السفر بعيدا، إلى مكان فيه ألتقط أنفاسي، إلى السهوب الموحشة حيث أمنح نفسي لغربان جائعة تنهشي، أو للسفن الراحلة في الليالي المطيرة تحملني، إلى هجيرٍ حيث يلهث الأسى وأطلق الرصاص على جبيني، حبيبتي ظلمتني يا لمياء، أتسمعين، لقد ظلمتني يا صغيرة. -لا تقل هذا الكلام عزيزي فمولا ستجزى بما فعلت، وسهم الظالم يرجع عليه، أنا واثقة أنها خدعتك أول مرة بحلو منطقها، ومليح لفظها أو ما ضارع ذلك، أو ربما بابتسامة مصطنعة استطاعت أن تضعك في جيبها، أنا أعرف الفتيات على حقيقتهن، دائما ما يصطدن ضحاياهن بألسنتهن، لأن الكلام اللين مصائد القلوب كما يقال.-أنتِ شيطانة يا لمياء. -وأنت شكولاطة تذوب حزنا. -عندكِ حق يا لمياء، أنا فعلا حزين وقد أضناني الإطراق والوجوم وضيق النفس، منذ أن سمعت كلمات الوداع من حبيبتي ليلة البارحة، كانت كلمات قاضية وقاسية جدا، أتعلمين يا لمياء إن الفراق إذا ما حل بين الحبيبين شبّت في قلوبهما نار الشوق التي لا تخمد، فحين يغيب المحبوب يبدو للمحب كل أبيض في الدنيا أسود، حتى نضارة وجهه تبيد فيصير كعجوز أجعد، فبعد أن كان الحبيب نجمة متلألئة في السماء، يبدد بنوره وحشة

Scanned by TapScanner

الظلماء، انقطع أخيرا حبل اللقاء، فأصبح ذانك المتحابان كالقوارب الزرقاء، تغدو باحثة عن رفيع الأسماك، فتصادف العواصف الهوجاء، لتروح إلى المراسي خاوية جوفاء، وهذا ينطبق عليّ وعلى مولا. -تبدو وكأنك كنت مسجونا في كهف أفلاطون، هجرتك مولا فكدتَ أن تقلب العالم، هل هذه هي المرة الأولى التي ستحب فيها فتاةً؟ -نعم. -صراحة سيكون الفراق شيئا مريرا في هذه الحال، لقد عانيته أنا أيضا مدة طويلة حينما تخلى عني إلياس الذي هاجر إلى العراق. قالت وهي تخفض أنظارها، وقد اغرورقتْ عيناها من الدمع حينما تذكرتْ حبيبها الأول، وتحولت من فتاة تؤنس الوحشة ومعها تنجلي الأحزان، إلى مراهقة تجهش بالبكاء وتحتاج إلى من يكفكف دمعها، رغم أن علاقتها بإلياس قد عفا عليها الزمن، فحتى ما تبقى من صوره المجعدة قد اغبرت في أرفف مكتبتها التي لا تضم سوى مجلات التجميل وبعض روايات الكاتبة الأمريكية "أَلِيسْ ووكر". لقد أمسيتُ أواسيها وأضمها إلى صدري مستشعرا دفء أنفاسها، كان همي هو أن تنسى جرح الماضي، بيد إنّ عناقي لها كان بمثابة منشط حيوي بعث فيها الحياة من جديد، وضخ في قلبها دماء دافئة أغرتها على أن تنسى الذكريات وتسألني من جديد. -كوتشو هل تمانع إن سألتك عن طبيعة علاقتك بمولا؟ -لم أفهم. قلتُ في حيرة وتابعتُ: إن كنت تقصدين نوع العلاقة التي كانت تجمعنا فحتما هي علاقة

Scanned by TapScanner

عاطفيـة. -أعـرف، لكـن أقصـد.. يعني هـل سـبق لكمـا أن عانقتمـا بعضكما البعض..؟ صراحة لست أقصد العناق وإنما أقصد هل فعلتما ذلك؟ سألتْ متلعثمة. -ماذا تقصدين بالضبط؟ تكلمي بدون لف ودوران، إلامَ ترمين؟ -أرمي إلى ذلك الشيء الذي يخطر على بالك. قالت وهي تدلك أصابعها. –آه، كراخو، الآن فهمتُ قصدك يا مشاغبة، لكن منذ متى وأنت تستحيين مني؟ -سامحني هذه المرة سأصيغ السؤال بوضوح. اعتذرت بابتسامة فاترة ثم طرحت السؤال: هل سبق أن تضاجعتما؟ -كلا لم نفعل ذلك. -عجيب! فغرت فاهها وتابعت: هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن حب بلا جنس، يا له من حب مقرف هل كنتما تلعبان الغميضة طوال هذه الفترة؟ وأضافت: الآن عرفت لِمَ هجرتك مولا. قالت ساخرة. -يا لتفكيرك العاهر! قلتُ مستغيظا وتابعتُ: مولا فتاة متحفظة صعبة المراس ويستحيل أن تحركها هبّة ريح. -وهل لثمت ثغرها يوما؟ -في الحقيقة لا، لأنها دائما ما كانت ترفض ذلك. -هل هذه فتاة أم تمثال أبو الهول؟ تأففتْ باستياء شديد. -أظن أنه ليس من الضروري أن يُرفق الحب بالقبلة أو المضاجعة. -نظرتْ إليّ بشرود ثم قالت: -اسمعْ جيدا أيها الأرمل، الحب من دون مضاجعة وقبلة كالسحاب بلا مطر؛ لأن القبلة هي حلاوة الحب، والذي لا يقبل حبيبته ستغدو شفته يابسة فتتهشم وتذروها الرياح، ما قيمة الحب إذا لم تروي ظمأك بشهد

Scanned by TapScanner

لعاب حبيبتك؟ خفضتُ عيني بإذعان دون أن أنبس بكلمة، فسكتتْ لحظة تنظر إليّ ثم استطردت: - القبلة يا كوتشو بوابة نحو المتعة، والمتعة عصارة الحب ودوامه، أما الجنس الذى هو جزء لا يتجزأ من المتعة فهو شيء ضروري بالنسبة إلى الحب، بل هو أحد أسباب الوقوع في الحب، لأن العلاقة الجنسية السليمة والمنتظمة بين الحبيبين تفضي إلى حب صلد، متين ودائم، بتعبير آخر؛ الانجذاب الجنسي القوي يحفز الوقوع في الحب. -لست أظن أن هنالك علاقة بين الجنس والحب. اعترضتُ. -في نظرك أيها المخبول هل ستستطيع المرأة أن تحافظ على حبها لرجل لا يقضي وطرها ولا تبلغ معه رعشتها الجنسية؟ عليك عزيزي أن تعلم أن الحب هو رغبة في ممارسة الجنس مع الحبيب ومعه وحده فقط، ليس لأن المحب بلغ ذروة الشهوة، وإنما من طبيعة الحب الناضج أن يميل المحب إلى مضاجعة محبوبه، كما إن المرأة ليس بمكنتها أن تحب رجلا عنينا بغض النظر عن كونه جميل المظهر، جليل المخبر، وذو مال أوفر. أنا أعرف صديقة لي اسمها آسِيَّة ربما لا تكبرك إلا بعام واحد تقطن في حي سباتة، فتاة وذيلة ذات عينين زرقاوين، وقع في حبها جارها الشاب وهو بائع فواكه متجول، كان يعشقها أكثر من الوطن نفسه. يختلق صورتها في هاجسه أثناء نومه، وفي يقظته يمشي ذليلا خلفها يَقِفُّ آثارها ككلب وفيّ، ودائما ما كانت تتجافاه وتأبى الوقوع في شرك حبه،

Scanned by TapScanner

لكن مع مُضي الوقت استسلمت لغرامه. كانت تقول لي إنها تبغضه وأن طموحها ليس يزيد على أن يكون رغبة في التسلية وقضاء أوقات ممتعة، ومع مر الأيام دخلت معه - كما أخبرتني- في علاقة جنسية ستكتشف على وقعها أن شريكها فحل لا يمل ولا يكل، وكأنه سفينة حربية تمخر عباب الموج في شتاء عاصف، مما جعلها تجنح إليه وتغار عليه غيرة عمياء، وأخيرا أضحت تحبه من أغوار الفؤاد، حتى أمست تفكر فيه باستمرار وتتشوق إلى سماع صوته. ألم تسمع أيها الكسول بالمقولة الجميلة التي ترددها النساء في غرب دولة النِّيپال؟ - أيُّ مقولة؟ -*"ناسا باسيو، مايا باسيو"* لقد شاهدت ذلك في برنامج وثائقي. -وما معنى هذا؟ أبديتُ عن استغرابي. -معناه:*" يدخل القضيب، فيدخل الحب"* . فسّرتْ ثم تابعتْ: أضف إلى رصيدك المعرفي أيضا أن أغلب أسباب الطلاق بين الأزواج هي مشاكل جنسية تقطع حبل الحب، وهذا كان سبب طلاق عمتي من زوجها، لا تنسَ كذلك أن بغضي لحبيبي الأول هو استخفافه بالجنس، بينما حبي العميق لكَ هو نتيجة لتلك الليلة الحمراء التي قضيناها معا، ألازلت تذكر أيها الفحل؟ -*پِينْدِيخا!* ألم تنسي بعدُ تلك الليلة اللعينة؟ تأففتُ. -المرأة لا تنسى الجنس الطيب، الجنس الصحيح والمشبع يا كوتشو يزيد من مستوى الدوبامين في الدماغ. -ماذا تقصدين بالدوبامين هذا؟ -الدوبامين يا من يضيع وقته في قراءة الكتب الأدبية

Scanned by TapScanner

الجافة هو الهرمون المسؤول عن الحب، وهو ذلك المرح الذي نشعر به عندما نكون برفقة من نحب، ينبغي أن تتذكر كذلك أن البيولوجيا في القرن الواحد والعشرين اكتشفت أن في لحظة النشوة الجنسية بين الشريكين يفرز المخ الأوكسيتوسين في المرأة والفازوبريسين في الرجل، وهما مادتان تحفزان الوقوع في الحب، وأنا واثقة من أن الشيء نفسه هو الذي دفع بي إلى أن أحبك. -هل أنتِ تحبينني؟ سألتها في دهشة. -نعم أحبك وأقولها بملء الفم. ربتت على كتفي. -ماذا تقولين أيتها الحمقاء، أتعرفين أولا معنى الحب؟ سألتها بصوت مشروخ. -ليس يهم إن كنت لا أعرف الحب، المهم أن أشعر به، هزت كتفيها وأضافت: يهمني فقط أن أحبك أنت كشخص وكذات تحمل اسما هو أنير الذي لقبتُه بكوتشو، لكن هذا لا يعني أنني لا أحب صفاتك بل هي مسببات حبي لك. -وما هي هذه الصفات؟ سألتها من باب التوق إلى الإطراء على شخصيتي. -صفاتك هي أنك أفضل رفيق، هي إحساسك الرقيق، تفكيرك العميق، لفظك الذليق، أسلوبك الأنيق، ووجهك الطليق، هي كتاباتك المارقة، نيتك الصادقة، والأهم من ذلك فحولتك الحارقة. أجابت خافضة بصرها وهي تلفّ شعرها حول إصبعها وتبتسم. -يا لرعونتك أيتها المراهقة الغبية، لعقتُ شفتي وأردفتُ أقول لها: تربطين الحب بوتد الغرائز الحيوانية دون أن تتذكري أن الإنسان كائن عاقل. -الإنسان كائن

Scanned by TapScanner

عاقل؟ تساءلتْ ساخرة. وتابعت: الإنسان ليس كائنا عاقلا يا من جننته الفلسفة، الإنسان كائن عاطفي وانفعالي يا كوتشو، حتى وإن كان عاقلا فإنه ليس يعقل إلا في أندر الحالات، الإنسان عزيزي هو توليفة من الحب، الشهوة، الحقد، الاعتقاد، الحماقة، الدعابة، الكَرَاهَة، الغيرة، والجنون، هذا الأخير الذي كان مصدر الإبداع لدى الكثيرين من الكتاب والفلاسفة والرسامين، رغم إني لا أحب الفلسفة يا كوتشو كما قلتُ لك ذات مرة إلا إني أعشق جنون الفلاسفة، المهم.. لا أعرف ماذا سأقول، لكن، فكرتي هي إنه توجد أشياء يعجز العقل حتى عن مصافحتها. -كيف ذلك لمياء؟ هل يمكنك أن توضحي أكثر أو على الأقل تعززي فكرتك بمثال من الواقع؟ -اسمع جيدا، هناك أشياء مثل الحب والاعتقاد.. -نقول في الفلسفة مفاهيم وليس أشياء، الأشياء -عزيزتي- هي الطاولة والحجارة والكأس وكل ما هو ملموس وجامد. للتوضيح فقط وأعتذر عن المقاطعة. -لا بأس بذلك. ارتبكتْ ثم تابعت تقول: كنت أقصد أن ثمّة مفاهيما كالاعتقاد وطاعة الوالدين والحب ومفاهيم أخرى عديدة يستحيل أن نخضعها للعقل، لأن الحب على سبيل المثال إذا عقلته دمرته، أي إذا حاولت جاهدا أن تفصله عن المشاعر الجوانية فلا مرية ستجمده، كما إنك لن تستطيع أن تحتاز حبيبا إذا أنت جعلت من الحب معادلة رياضية، لأن الإنسان كما أشرتُ قبل برهة

Scanned by TapScanner

هـو كـائن ذو انفعـالات ولـيس عقـلا. لازال الحيـوان يـا كوتشـو يثـوي داخـل الإنسـان، أُنظـر مـن حولـك في الشـوارع، في السـاحات، في الحدائق وفي الباصات، هل تجد عقلا؟ لا يا حبيبي، ما ستجده هو انفعالات وأهـواء وغرائـز. أعـدك أنك لـن تجـد عقـلا بقـدر مـا سـتجد حيوانا متطورا، اعلمْ يا عزيزي الفيلسوف الذي يمسك الفلسفة من إستها أن الإنسان حينما يشم رائحة الشواء أو النشيل يسيل لعابه كالكلب، والرجل عندما يرى امرأة ممشوقة المؤخرة ينتصب أيره كالحمار. حتى الحرب تدل على غريزة الافتراس لدى الإنسان، ماذا تعني الحرب غير تجسيد الغرائز الحيوانية داخل الإنسان، وإذا كانت الحرب تُدار من أجل المصالح فهذه الأخيرة نفسها هي غرائز حيوانية مهذبة لازالت تقبع في الإنسان حبيبي كوتشو. والدليل الآخرعلى حيوانية الإنسان المفترسة هو عادة أكل الحيوان، فمهما حاول الإنسان أَخْلَقَةَ طبيعته الحيوانية إلا أنه حسب رأيي لن يستطيع التجرد منها، ولن يستطيع التخلي عن عادة أكل اللحوم مهما بدا كائنا نباتيا. -أنّى لكِ بكل هذا؟ استغربتُ وأضفتُ: أحيليني على هذه الكتب، أريد أنا أيضا أن أنشط هذا الدماغ الخامل. -آسفة، أنا لم أقرأ هذا في أي كتاب، كل هذه الأفكار التي تفوهت بها قرأتها في الواقع وبعض ما قاله لنا أستاذ مادة علوم الحياة والأرض، أنا لا أتيهُ مثلك بين ظلال الحروف، وضباب الكلمات، لذا أنصحك بأن تحرق

Scanned by TapScanner

كل كتبك العقيمة وتستيقظ من سباتك العميق، وأن تذهب إلى السوق والمعامل والشوارع، وعند الجزار والخضار والبناء لترى بعينيك وتتعلم أفكارا مفيدة تعود عليك بالنفع. الكتب كاذبة يا كوتشو، أقسم أنها كاذبة، كل ما يُكتب فهو كاذب، وكل من يستطيع أن يَكتب يستطيع أن يَكذب، فلا تضيّع نظرك في القراءة.

هبط الليل على كازابلانكا ففاحت رائحة الشبق في الحديقة، إنها لعنة المساء! ورغم ذلك استمرت لمياء في تلقيني دروسها حول خبايا الحب وحيله، فيما واصلتُ أنا الإصغاء إليها دون أن أحيد أنظاري عن الأرض، وأحيانا كنت أدخل معها في سجال حاد، إذ كان النقاش بيننا حول الحب يحتدم فنغدو نتراشق بالأفكار كفيلسوفين من الحقبة الأندلسية، بل إن حدة النقاش قد أخمدت لهيب الجوع الذي كان يلكز أحشاءنا في كل لحظة.

من المعروف أن الغابة الخضراء تمسي أثناء الليل ملاذا للسكارى والعاهرات ذوات الجلابيب الرخيصة، حيث لا يستشعر هؤلاء لذة الحياة إلا تحت وطأة الظلام، لكن لمياء الكازاوية المشاكسة بدت غير آبهة بمخاطر الليل، وأمضت تتلخبط في الكلام عن الحب بعدما أقرت طواعية أنها تحبني. أشعلتُ سيجارة وألححتُ عليها بأن نغادر المكان للتو بدل أن نستحم في الظلام مع أولئك الصعاليك. -لمياء إنه الوقت المناسب لكي نغادر. همستُ. -لن نغادر حتى تجيب على سؤالي

Scanned by TapScanner

بصدق. -وما هو سؤالك؟ -هل نسيتَ مولا أم ليس بعد؟ *-تُشِينْگادَا!* كم تحبين النبش في القمامات! حدجتها بنظرة شزرة. -أعتذر إذا كنتُ نكأتُ جرحك، لن أسألك مرة أخرى فأنت تغضب بسرعة. -إذاً هيا لننصرف. أمرتها بغضب بعدما رميت عقب السيجارة. -كم الساعة أولا؟ سألتْ غير مبالية. -ليس بحوزتي ساعة يدوية وساعة هاتفي غير مضبوطة للأسف. -معصمك بدون ساعة يدوية شبيه بأرض قاحلة. سخرَتْ وتابعت تقول: لكن لا بأس؛ السبت المقبل سيعود بابا من إسبانيا وسيمنحني مبلغا ماليا كما وعدني، حينها سأشتري لحبيبي ساعة يدوية باهظة الثمن كي تستطيع أن تذكرني كلما اطلعت على الساعة. -آسف لمياء، أنا لست بحاجة إلى ساعة باهظة الثمن فحبيبتي أهدتني الوقت كله. -أهدتك الوقت كله؟ سألت بنبرة ساخرة وأضافت مستغيظة: لو أهدتك الوقت كله ما كانت لتتخلى عنك ساعة. لقد استشاطت لمياء غضبا من ردة فعلي واحمرّت عيناها حينما نطقتُ بكلمة حبيبتي، ووقفتْ دون حراك ترمقني بنظرات شزرة، فاعتذرت منها محاولا أن أبين لها بأنها أساءت قصدي وإن ما كنت أقصد إليه هو أن الساعة اليدوية لن تفيدني في شيء بقدر ما أنا محتاج إلى المال بغية سد نفقات الكراء. -حبيبي كوتشو، بمجرد أن نضع اليد في اليد ونبدأ كلانا حياة جديدة مع بعضنا وننسى ردهات الماضي، حتى يتغير كل شيء، حينها لن تعد

Scanned by TapScanner

تفكر لا بالكراء ولا بصداع الجامعة. داعبت وجهي برؤوس أصابعها. -ماذا تقصدين ببدء حياة جديدة؟ سألتها مشدوها. -قصدي أن القدر شاء أن يجمع بيننا، لذا يجب عليك أن تنصاع لمشيئة القدر وتدفن بقايا حبك المنكسر، لتبدأ حبا جديدا لن يفنى. -المسألة تتطلب وقتا طويلا للتفكير لمياء. تنهدتُ. -رجاء كوتشو لا تحاول أن تفكر في الحب مرة أخرى، فبالتفكير يُهدم الحب عزيزي. وأضافت: الحب مُسَلَّمَة يسلِّم بها القلب، اسمع صوت قلبك الذي يقول نعم لأنه يشبه قلبي. نحن نشترك في كل شيء حبيبي، الفرق البسيط بيننا هو أنني عربية وأنت أمازيغي، لكن هذا الاختلاف هو الذي سيعزز علاقتنا ويؤبدها. مررت يدها على شعري وتابعت بإلحاح: أنت في السنة المقبلة ستنال شهادة الماستر في الفلسفة السياسية وستصبح أستاذا للفلسفة، وأنا سأنتقل إلى صف الباكلوريا وسأبلغ السن القانوني للزواج، وسنقيم بعد ذلك زفافا به نقلب الدنيا، لكن إياك أن ترتدي النظارات الطبية أثناء عرسنا، اتفقنا؟ أنا أريدك أن تبدو فاتنا أكثر، أريد أن أفقأ عيون صديقاتي الحسودات، ما رأيك حبيبي؟ عضّت على لسانها. -نعم اتفقنا، قلت بعد شهقة عميقة محاولا إرضاء رغبتها، لأني لا أحبها، أنا أحب فقط فكرةَ تلاشي كينونتها فِيَّ ومن ثَمّ أتحول إلى ومضةٍ وأختفي إلى الأبد؛ كقنديل بحرٍ مُضيء وشغوف. -لا يمكنني أن أصدق؟ قالت بعدما وافقتُ على رأيها

Scanned by TapScanner

وشبكتْ أصابعها على رأسها ثم راحت تلثمني في خدي بعنف، حبيبي أنت يا كوتشو، سأحملك فوق أهدابي، أنا فخورة جدا حبيبي، أنا لست مولا حتى أتخلى عنك ولو طرفة عين. -يا لكِ من طائشة كالفراشة! كانت في تلك اللحظة تمسكني من أذني الصغيرتين بعنف دون أن تشعر، وعيناها شلالان من الدموع المنسابة على وجنتيها من شدة الفرح، بدتْ كسجين أُفرج عنه للتو بعدما أفنى سنينا في ردهات الزنازن، كانت تثرثر كثيرا سكرانة برحيق الحب، فيما أنا غارق في صمت مطبق وناكس رأسي، لم أكن أفكر في شيء آخر غير مولا. - أنظر إليّ حبيبي، أنا وأنت سنكون أسعد شريكين في الكون بأسره، وبما أنك ستصبح أستاذا فإننا سنحظى بالاستمتاع بعطلك المتكررة، حيث سنسافر في عطلة الصيف إلى الصحراء ونسبح معا في شاطئ پُورتوريكو ذو المياه الزمردية والمنعشة، وبعدها نتجه شمالا إلى شاطئ مارتشيكا في الناظور لنتلذذ بنشوة الحياة، لقد زار بابا وحيدا هذه المناطق في سفريات خصصتها شركة النقل الدولي لموظفيها دون أن يُقِلّنا معه للأسف، لكنه التقط لي صورا جميلة لتلك المناطق لازلتُ أحتفظ بها، إنها مناطق تتمتع حقا بمناظر بديعة. -اقتراح ممتاز لمياء، وماذا عن عطلة الشتاء؟ إلى أين تفضلين أن نسافر؟ طرحت السؤال كي أُظهر لها اهتمامي الكاذب وأشعلت سيجارة أخرى. -أكيد سنسافر إلى جبال الأطلس الكبير العائمة في

Scanned by TapScanner

الثلج. اقترحتْ. لم أملك نفسي غضباً حين ذِكرِ الثلج فوثبتُ، فدنوتُ منها، فقلتُ مرتبكا: -الثلج؟ أأنتِ حمقاء؟ وقد فعلتُ ذلك لأنني كنتُ أكره الثلج وأعاني من رهاب تجاهه، بحيث هو من سلبني أبي وممتلكاتنا الصغيرة، ولو كنت أملك نار جهنم لأحرقت الثلج اللعين، فهو الذي حرم أختي الصغيرة تِيلِيلاِ التي كانت تبلغ من العمر حينذاك ثلاث سنوات، حرمها من أفضل ما كانت تملك وهو نعجتها التي أهداها لها أبي بمناسبة عيد ميلادها الثاني والتي أطلقنا عليها اسم تُودَرْتْ. كانت تِيلِيلاِ المسكينة تطوف حول المنزل مثل الخذروف وتردد باكية تودرت.. تُودَرْتِينُو..أريد تودرت، وعيناها نافورتان من الدمع. لقد سلبها الثلج نعجتها ووالدها أيضا الذي كان يسافر كل فجر يوم أحد إلى مدينة ورزازات ليبيع خروفا أو صندوقا من التفاح الطازج، ويشتري لنا صنوف الخضروات وأنواع الفواكه من السوق الأسبوعي، دون أن ينسى شراء الذرة المحمّصة لأختي الصغيرة التي كانت تنتظره دائما بقدمين حافيتين أما باب منزلنا الطيني؛ واضعة سبابتها في فمها عليها سمات الحزن، إلى أن يظهر لها أبي عند الغروب بجلبابه البني يصعد الجبل مقاوما عثرات الثلج وقفّته الثقيلة على كتفه، فينبسط محياها وترتسم على شفتيها ابتسامة فاترة، والآن ذاب الثلج وذابت معه ابتسامة أختي البريئة، ذابت الذكريات، ذاب جسد أبي بين أحضان الثرى وذاب المستقبل بين عينيَّ في وطن يُدعى

Scanned by TapScanner

المملكة المغربية! لقد أثارت ردة فعلي عند سماع كلمة ثلج استغراب لمياء فسألتني إن كانت لدي مشكلة مع الثلج، بيْد إنني آثرتُ ألاّ أكشف لها عن سر الأمر، مع العلم أنني قد سبق وقلت لها إن الثلج كان قاتل أبي لكنها لم تتفطن إلى ذلك أبدا، إنها مشغولة بالحب على ما يبدو. -ليس لدي مشكلة مع الثلج إطلاقا، بالعكس أنا أحب الثلج. كذبتُ. -جميل أنا أيضا أعشق الثلج وكثيرا ما كان بابا يحملنا إلى مدينة إِفْرَانْ فنلهو بكُرات الثلج، بل كنت أنا وأخي آدم نصنع رجلا من ثلج ونزينه بأوراق الأَرْز، لكن للسفر مع الحبيب طعم من نوع آخر، أليس كذلك حبي؟ -بلى. أكدتُ. -إذاً لن نتردد يا كوتشو بعد الزواج في السفر شتاءً إلى جبال الأطلس الكبير المتشحة بستائر الضباب، نرقص معا، نغني معا، ونتضاجع فوق الجليد، بينما نُدَفُ الثلج تتساقط على رؤوسنا! -فكرة ممتازة. غمغمتُ محدقا في الفراغ. استمرت في ثرثرتها كالنساء الأرامل هائمة في مستقبلها الخرافي وأحلامها الزائفة، دون أن تلتزم الصمت دقيقة، بل أكثر من ذلك أمضت تتفوه بكلمات ساقطة مما جعلني أحرز أنها فتاة موصوفة بالذام، كثيرة الكلام. وقد كانت أمعائي الفارغة في ذلك الحين تعزف سيمفونية الجوع بصرير مجلجل، غيرَ أن هذه المراهقة العنيدة أبت أن تغادر الحديقة، فجأة انقطعت ثرثرتها على وقع رنين هاتفي الذي أبدى رقما غير معروف، تسمرتُ في مكاني دون حراك، ورحتُ أحملق

Scanned by TapScanner

في الرقم المجهول دون أن يطرف لي جفن. سألتني لمياء إن كنت أعرف هذا الرقم فأجبتُ بالنفي، ثم استأذنتها لحظة كي أتمكن من الإجابة على المكالمة منفردا فأومأتْ موافقة. تواريتُ خلف شجيرة كانت تلهو مع الريح في الظلام، ونقرت على الزر الأخضر. –مرحبا، من معي؟ حبستُ أنفاسي. -أهلا أنير كيف حالك؟ أنا ليلى. ردت. -أنا بخير ليلى، لكن من تكونين حضرتك أنا لا أعرف فتاة بهذا الاسم؟ أخفضتُ صوتي. -اتصل بهذا الرقم وستعرف من تكون ليلى، مع السلامة أنير. انقطع الاتصال. فاتصلتُ بالرقم نفسه فردت نفس الفتاة. -أهلا أنير، شكرا على الاتصال. -لا داعي للشكر ليلى، لكن هلاّ شرفتني بمعرفتك، فأنا إلى حدود الساعة لم أذكرك. -لا يهم صديقي، ثمَّة فتاة ترغب بالحديث معك، هل أنت مستعد لذلك؟ -ومن تكون هذه الفتاة؟ -إنها مفاجأة. -أجل أنا مستعد. -ألو فيلسوفي العزيز، أجابني صوت فتاة أخرى. -هذا الصوت ليس بالغريب عني، أنتِ مولا فلا تكذبي عليّ. تلجلج لساني. –أُوهْ، لم تنس صوت حبيبتك. ردتْ. -أنتِ تخليتِ عنّي وحظرتِني من جميع مواقع التواصل الاجتماعي، لمَ فعلتِ ذلك؟ -آسفة حبيبي، في الحقيقة أنا لم أتخل عنكَ، ولن أفعل ذلك مهما يحدث، لقد وعدتكَ بأنني لن أتركككَ لمحة بصر، فقط كنتُ متوترة في تلك اللحظة كوني تنازعت مع إحدى صديقاتي التي خاب ظني فيها، مما أفضى بي إلى أن أكره الجميع مؤقتا، أرجوك اغفر لي،

Scanned by TapScanner

أنت حبيبي الذي يستوطن قلبي. -أنا صفوح يا غاليتي لذا سأتجاوز عن فعلك اللاإرادي، حتى وإن كان من نبع إرادتك فإني لن أؤاخذك على ذلك كونكِ حبيبتي، رغم أن قلبي كاد يتفطر، لقد عانيت مرارة الشغف يا مولا فما طاب لي طعام ولا نوم، بل صرت في بعض الأحايين أفكر بالانتحار، لم أتقبل فكرة أن حبيبتي مولاّ ستتخلى عني بين عشية وضحاها. بالغتُ. -أنا بليدة.. أنا بليدة، أنا أستحق الجحيم لأنني أحزنتك.. عفوا أنا لا أستحقك يا أنير، تأففت باستياء كبير من شدة الندم وأضافت: أرجوك سامحني فأنا لن أستطيع أن أنساك ولو مزقوا شراييني، لقد اشتقت إليك كثيرا. كانت تبكي. -لا داعي للبكاء حياتي، فأنا أيضا اشتقتُ إليك. -حبيبي أنا محتاجة إلى رؤية عينيك، أريد أن أتحسس خديك بحنان، أليس لديك عطلة لتأتي إلى مراكش، أنا لم أعد أستطيع الصبر حياتي، قالت بلكنة صحراوية. - نعم حبيبتي يوم الثلاثاء القادم ستكون عطلة المسيرة الخضراء، وسأسافر إلى مراكش حيث سيحتفل الوطن بأكمله بألم الماضي وسنحتفل نحن بلذة الحاضر؛ إذ سنمارس الحب ونتبادل القبل بين جذوع النخل في مدينة الحب، كما أنني سأبقى في مراكش أسبوعا كاملا لأستلم النسخة الأصلية لشهادة الإجازة من جامعة القاضي عياض، فلم يكن لدي الوقت لاستلامها من قبل، وهذه فرصة جيدة. -أسعدتَني حبيبي، إذاً سأنتظرك بفارغ الصبر. وأضافت: قل لي حبيبي

Scanned by TapScanner

كيـف حـال كازابلانكـا؟ -كازابلانكـا مشـغولة هـذه الأيـام بالمظـاهرات والمـؤخرات الكبيـرة، وأنـا يـا حبيبتي أحـاول أن لا أقـع في هـذا الفـخ. ضحكتْ ثم قالت: وداعا حبيبي، صديقتي تريد هاتفها، أحبك بعرض الصحراء حياتي. -وأنا أحبك بطول المملكة المغربية؛ من طنجة إلى الگويرة. -وداعا حبيبي. تودَّعنا وأُغلق الخط.

انتابتني فرحة عارمة، إذ لم أصدق أن مولا ستعود إلى أحضاني، شعرت وكأني ولدت من جديد، فركضت نحو لمياء التي كانت جالسة تعبث بهاتفها، وقفتْ مستغربة من ركضي فعانقتها عناقا طائرا معبرا عن موقف فرحي الطافح. -ما بك كوتشو ماذا جرى؟ لماذا فعلت كل هذا؟ تساءلتْ في مزيج بين الحيرة والابتسامة. -أنا جد سعيد يا لمياء. شهقتُ بعمق. -من اتصل بك اشرح لي؟ ترددتُ في الإجابة على أسئلتها إذ كنتُ حريصا على ألا تفر الحقيقة من بين شفتيّ محاولا اصطناع كذبة متقنة فقلتُ:-لقد اتصل بي صديقي الذي يدرس رفقتي بسلك الماستر وأخبرني أن المنحة الدراسية ستُصرف الأسبوع المقبل. تلعثمتُ. -أحقا؟ هنيئا لك سررت بذلك حبيبي، هذا يعني أنك ستدعونني إلى وجبة العشاء الأسبوع المقبل في مطعم باذخ؟ -ولِمَ لا؟ أنت تستأهلين ما هو أفضل من هذا بكثير. -شكرا كوتشو كنت فقط أمزح هنيئا لك مجددا. -هيا لننصرف فالسماء مُثقلة بالغيوم. -أجل سننصرف الآن، لقد تأخرنا مما يعني أنه لزام عليّ أن أكذب على ماما

Scanned by TapScanner

مرة أخرى فأخبرها أني ذهبت مع ابنة عمي ندى إلى منزلها. ورحنا نتأهب لمغادرة الحديقة المخيفة حيث طفقت لمياء تربط شعرها الذي عاد نديا بفعل رطوبة المساء، بيد إنّ رجلين عريضا المنكبين اعترضا طريقنا على حين غرة واقتربا منا حتى صرنا نسمع أزيز أنفاسهما، يظهر من هيئتهما أنهما شرطيين بلباس مدني، ودوي الراديو اللاسلكي الصادر من جيوبهما هو الذي جعلني أفترض ذلك. - مرحبا. غمغم أحدهما. -أهلا سيدي. أجبته. -ماذا تفعلان في هذا الظلام الدامس؟ سأل الآخر. -لا شيء حضرة الشرطي، كنا فقط نتسكع. -تتسكعان في العاشرة ليلا وفي مكان مظلم؟ وأضاف: أعطني بطاقة هويتك. -لم أحملها معي. ارتبكتُ في الكلام. -إذاً ستؤدي ثلاثمائة درهم كغرامة، هذا ما ينص عليه القانون. -لم أحمل معي ولا درهما حضرة الشرطي. تمتمتُ. -سمير أنظر إنه كان يمارس الرومانسية مجانا، قال إنه لا يملك درهما. -إنه الحب في زمن المجاعة. رد المدعو سمير. -ورغم ذلك يبدو أن هذه العاهرة تحبه، قمة الوفاء يا صديقي. أجابه الآخر. -إنك لمحظوظ جدا أنْ تملك قنبلة موقوتة وتعيش على نفقاتها. ربّت سمير على كتفي. -إي، ألا تملكين أنتِ ثلاثمائة درهم لإنقاذ حبيبكِ من التجمد أربعاً وعشرين ساعة في زنزانة نتنة؟ سأل الشرطي لمياء ساخرا. -أنا أيضا لا أحمل بصحبتي نقودا، لكني أفضل المبيت معه في الزنزانة. -يا لكِ من كلبة

Scanned by TapScanner

وفية. غمغم أحد الشرطيين. وتابع: وماذا عن بطاقة هويتكِ أنتِ؟ - لم أبلغ السن القانوني للحصول عليها. -آه حسنا، كم عمركِ؟ -ستة عشر. -إذاً أنتَ تتسكع رفقة فتاة قاصر في دجنة الليل وفي مكان مشبوه، وأنتَ صرحتَ بذلك عندما قلت أنكما كنتما تتسكعان. -لا سيدي، أقصد أننا كنا نتسكع قبل غروب الشمس ولما حل الغسق والحق يقال قررنا أن نراجع دروسنا تحت ضوء الإنارة العمومية استعدادا لحصة الغد الدراسية. -فريد أنظر إلى هذا المخاتل قال أنهما كانا يراجعان دروسهما، وأنا لم أبصر أية ورقة أو كتاب، هل كان يهبط عليهما الوحي مثلا أم ماذا؟ سأل صديقه باستهزاء. -أعني أننا كنا نراجع شفهيا. تلعثمتُ وأنا أمضغ ريقي. -أعدكَ أنك إذا أضفت كلمة أخرى فإني سأقتلع خصيتيك من مكانهما. اكتنف الغيظ شفتيه. -أخرِجا ثلاثمائة درهم حالا، لن أكررها ثانية وإلا لفقتُ لكما جريمة الإخلال العلني بالحياء العام، التي يعاقب عليها الفصل 483 المدرج في القانون الجنائي بالحبس من شهر واحد إلى سنتين، وبغرامة من مائة وعشرين إلى خمسمائة درهم. أما أن تخضعا هذه الليلة لتدابير الحراسة النظرية لدى مركز الشرطة القضائية فهذا مما لا مرية فيه، وذلك كي يتحقق ضابط الشرطة من هويتيكما المجهولتين. -أنت قلتَ جريمة الإخلال العلني؛ أي إن القانون اشترط توفر العلانية في هذه الحالة، ونحن كنا في الظلام

Scanned by TapScanner

الدامس كما صرحتَ أنتَ بنفسك حضرة الشرطي، وأنت تعلم أن العلانية منعدمة في الظلام، فكيف إذاً سيعاين ضابط الشرطة القضائية جريمتنا هذه إن كنا حقا قارفنا جريمة؟ سألت لمياء وعيناها تقدح شررا فارتبكَ الشرطيّ وسُقِطَ في يديه. وتابعتْ تقول له وهي تصرخ في وجهه: إذاً أتركنا وشأننا لقد مضى وقت القمع نحن أحرار في فعل ما نشاء. -كيف تجرئين أيتها القحبة الصغيرة؟ أمسكها من عنقها. -وُلِدتْ عام ألفين وتتحدث عن الحرية، سأعلمكِ إذاً معنى الحرية أيتها الصبية. تمتم الآخر. -نعم بنت العام ألفين وأعتز بذلك، أبناء العام ألفين هم من سيغيرون مجرى الوطن ويبددون ظلماتكم القديمة. تسرب الغيظ من شفتيْ لمياء. -هل ستغيرونه بسراويلكم الكاشفة عن مؤخراتكم، أم بشعوركم المزوّقة؟ لا أظن أنّ جيلا يرقص في التيك توك سيغير الوطن يا بنيتي. ضحك الشرطي ساخرا، فبصقت لمياء في وجهه وراحت تسبه بألفاظ نابية دون أن تتوقف عن السباب قيد أنملة. -يا لكِ من مذياع ثرثار سأهشم وجهك أيتها العاهرة الشمطاء. ثم صفعها على وجهها فأدمى شفتيها حتى ارتمت أرضا، لم أستطع أن أتمالك أنفاسي فحاولتُ صفعه أنا الآخر، لكن زميله تدخل بعنف قبل أن أفعل ذلك فأمطرا وجهي بوابل من اللكمات حتى هويت على الأرض فراحا يرفساني بأقدامهما، أحسست لقاء ضرباتهما أن الدنيا بدأت تتداعى فوق رأسي، خاصة عندما رأيت

Scanned by TapScanner

إصبعي الملتهب ينزف من جديد، حينها أدركت أنني سأمتح مرة أخرى من معين الأسى، وأن البرد القمطرير سيفتك بجسدي النحيف في إحدى الزنازن الآسنة، بعد ذلك قام الشرطيان بليّ أذرعنا خلف ظهرِنا واقتادانا معا نحو سيارة الشرطة المركونة جنب الرصيف.

-8-

صعدنا سيارة الشرطة، وجلس على مقربة منا أحد الشرطيين الذي ما فتئ يحدق إلينا بنظرات تنبئ عن ليلة مأساوية، فيما جلس الشرطي الآخر في المقعد الأمامي إلى جنب السائق. كانت السيارة تمشي مسرعة فيما الطريق يذوب تحت عجلاتها، وما هي إلا لحظات حتى سحّت السحائب وبرقت البوارق، فصار المطر الغزير يدمغ سقف السيارة محدثا طقطقات تذكرني بسنوات الرصاص التي كان يحكي لي عنها والدي. ظلّت لمياء ناكسة رأسها والدموع تحفر خديها، بينما يديها مشدودتان خلف ظهرها، وعند كل منعطف تتمايل فيه السيارة التي تسير بسرعة؛ كانت لمياء المسكينة تتزحزح عن مكانها فتتدحرج نحو قدم الشرطي الذي يجلس قبالتنا، لتفوز بركلة على الظهر، أما أنا فقد كنت مسمرا في مكاني دون حراك، أنظر إليها وأعض لساني، وفي تلك اللحظة بالذات قام الشرطي من مكانه فمسك لمياء من ذراعيها وأجلسها في مكانها. تلمظ لسانه وهو يجرها قائلا: -أف هذا ما كان ينقصنا، يا لكِ من فتاة ثقيلة! أمثالك هم من

Scanned by TapScanner

ابتلعوا ثروات هذا البلد السعيد، لكن لا بأس، فهذه الليلة ستفقدين نصف وزنك. -*كَابْرُونْ*، تعتعت لمياء بإسبانية غير مسموعة. -هذا إن لم تتجمد من البرد. ارتجل الشرطي السائق وهو ينفث دخان سيجارته. -أمثال هؤلاء لا يتجمدون، فالحرارة تنبعث من مؤخراتهم. رد الشرطي المسمر أمامنا.

استمر رجال الشرطة الثلاثة في الثرثرة غير مكترث لكلامهم، إذ مكثتُ أجول بنظري في أنحاء جسد لمياء الحزينة، كان يبدو لي جسدها النضّاخ كمجرة تضيع فيها ملايين المذنّبات المحترقة، كان ثَمَّة شيء ما يشدني إلى روحها المحببة إليّ مسبقا، وكأنني أحببتها يوما، أو كنت أحبها في عالم المُثُل، وما أقوم به الآن هو تذكر ذلك الحب، وفي نفس الوقت فكرت بحبيبتي مولاّ التي أضحت جزءا من وجودي، بل وجودي كله، وافتقدتها في هذه اللحظة بالضبط حيث أمسى كل شيء من حولي كئيبا ومفعما بالفوضى، ومولا هي الفتاة الوحيدة التي تجيد ترتيب قلبي كلما اجتاحته رياح الحزن العاتية، لقد شعرت بحبيبتي في هذه اللحظة الحرجة وأحسستُ بها تدب في مفاصلي.

توقفت سيارة الأمن في إحدى المفوضيات، ففتح أحد رجال الشرطة الذي كان في الخارج الباب الخلفي للسيارة؛ كان يرتدي معطفا مشمعا ومبللا بزخات المطر، صافح السائق وقال له باستهزاء: -هل هذه خرفان جديدة سيدي المحقق؟ -نعم، بل سمينة كذلك، كانت

Scanned by TapScanner

تقتات على أعشاب الحدائق. أجاب الشرطي دافعا إيانا للنزول من السيارة. لم ننبس أنا ولمياء ببنت شفة طيلة رحلتنا القصيرة، وحينما نزلنا من سيارة الأمن نظرتْ إلي لمياء بعينين طافحتين بالدموع وقالت بصوت مبحوح: -كوتشو إني أشعر بالبرد، وأضافت: هل سيعيدوننا إلى المنزل بعد أن يستجوبوننا؟ الله أدرى بحال ماما الآن، يالها من مشكلة يا كوتشو، أما إذا قدر الله وعاد بابا من السفر فالمشكلة ستكون أعظم بكثير. فلم أستطع أن أجيبها وعبرنا مدخل مفوضية الشرطة، وقد تراءت لنا هذه الأخيرة هادئة وشاغرة مثل باحة مدرسة في فصل الصيف وكأن المجرمين مضربون ساعتئذ، لم يكن ثَمّة سوى رجلا مُكْرِشا ذو شارب بارز، يحمل في يده اليمنى الراديو اللاسلكي، يظهر من هيئته أنه رجل يقف على أعتاب الخمسين، حملق فينا باحتقار شديد ثم سأل الشرطي الذي كان يمسك بذراعينا كمجرمَيْ حرب: -ما بال هؤلاء؟ -لقد وجدناهما حضرة الضابط متلبسيْن في إحدى الحدائق المظلمة، ولم تكن بحوزتهما بطائق هوية. -أنتَ، ما اسمك؟ وجه إلي الضابط السؤال وهو يحاول رفع سرواله. -أنير أَزْنَاكْ. أجبتُ على السؤال. -ماذا تفعل في الحياة؟ - طالب ماستر في كلية ابن مْسِيكْ. -وأنتِ ما اسمكِ؟ سأل لمياء بعدما أمر الشرطي بالانصراف دون أن يفك قيودنا. -لمياء البَصْرِي. ابتلعت جارتي المراهقة ريقها. -هل تدرسين؟ -نعم أدرس. -أعطني رقم هاتف

Scanned by TapScanner

والـدكِ أو والـدتكِ حتى يتسـنى لنـا إشـعارهما. -لا أملـك هاتفـا لأمـدك بأرقامهما، ولا أحفظ الأرقام لسوء الحظ. -وأنت؟ أشار إلي وهو يحك لحيته ثم قال: أعطني رقم هاتف والدك أو والدتك. -ليس هناك أي رقم حضرة الضابط، فوالدي متوفى ولم يترك لأمي هاتفا لأننا نقطن في قرية خارج التغطية والجبال تحيط بنا من كل جانب وليس لدينا... -كفى، كفى لم آمرك بسرد قصتك. أخرسني الضابط. وتابع: عموما سيتم اعتقالكما حتى يأتي ذويكما. هذا ما يقوله القانون. -لا، لا تفعل، يمكنكم أن تحملوننا بسيارة الأمن إلى مساكننا، لا يمكنني البقاء هنا أرجوك، فماما ستفقد عقلها بالبحث عني. -لا أريد سماع أية كلمة أخرى. أشعل الضابط سيجارة واستطرد: أنا من يقرر هل ستمكثان هنا أم لا، ولا رقيب لي في عملي، ولي أن أحجز أي شخص لأيام وساعات دون إخبار النيابة العامة وعائلته، بل يمكنني حتى أن أسجل محضرا يخالف الحقيقة والواقع، فاغربا إذاً عن وجهي. صبّ الضابط جام غضبه علينا وصاح بالشرطي: إي، أنت، أحشر هذا الخراء في الزنزانة حتى نرى ماذا سنفعل بهما. -حاضر سيدي الضابط. تمتم الشرطي في إجلال. -أف. بصق الضابط عند أقدامنا وهو يرفع سرواله من جديد.

جرجرنا الشرطي نحو القبو الذي كان شبه مظلم، وزجّ بنا في زنزانة تضوع برائحة الرطوبة التي تزكم الأنوف، فك وثاقنا دون أن يتكلم،

Scanned by TapScanner

ثم أغلق باب الزنزانة ومضى حيث تلاشى في الظلام، لم نعد نسمع شيئا سوى صليل حذائه وهو يضيع في المدى طَقْ، طَقْ، طَقْ... تفاجأت لمياء بالمكان الغريب وكأنها ولجت عالم نيفلهايم المخيف؛ اليدان غارقتان في الجيب من شدة البرد، والفم فاغر والعينان مركزتان على سقف الزنزانة المُخضرّ بفعل رواسب الرطوبة ونداوة الهواء، فيما صمتٌ مطبقٌ يكتسح المكان. طفقت لمياء ترتعش، ولما تلمستُ يدها وجدتها باردة كالموت، فخلعتُ عني معطفي وألبستها إياه خوفا عليها من ضرِّ الصِّرّ، فرمتني بنظرة جريحة وقالت: - كوتشو لماذا لا يوجد أحد في هذا المكان، أين ذهب السجناء؟ -لقد ذهب الجميع إلى الجحيم، ذهب الجميع يا صغيرتي، أنا أيضا ذهبتُ، لكنني عدت باكرا. باغتنا صوت من الظلام أصدرت لمياء إثره صرخة مدوية وتمسكت بي من شدة الخوف. -كوتشو أين نحن؟ أنا خائفة. -لا تخافي صغيرتي أنتما في زنزانة الحكمة، مرحبا بكما عند الحكيم بيدرو.

لا أنكر أنني أضحيت جبانا رعديدا أمام فخامة الصوت المجهول، حيث قَفَّ شعر رأسي وأخذتُ ألتفت ذات اليمين وذات الشمال، إلى أن وقعتْ عيني على رجل كهل؛ أشعث الرأس، ذو لحية كثة وشارب كثيف يملآن وجهه، كان في الزنزانة المقابلة يمسك بالقضبان الحديدية ويحدق إلينا تحت ضوء خافت، صمتَ للحظات ثم صرخ

Scanned by TapScanner

في وجهينا قائلا: تبا لكما أيقظتماني من نوم قرير. ثم استدار نحو ركن الزنزانة وجلس، فضممتُ لمياء إلى صدري وأخذتُ أربّتُ على كتفها الأيمن وأقبل رأسها كي أهدئ من روعها. كان دمعها ينهمل وصدرها يخفق، رفعتْ رأسها إليّ فقرأتُ الخوف يرفرف في عينيها. - لاشك أن ماما فتّشت عني في جميع بيوت صديقاتي ولم تجد لي أثرا، فيا ليتني كنت أملك هاتفا. -العالم بأسره يملك هاتفا إلاّ أنتِ ولا أعلم ما سبب ذلك. -سيشتريه لي بابا هذه المرة. -لا أعلم متى سيحدث ذلك يا صغيرتي. -سيحدث قريبا لن يتأخر ذلك، وأول شخص سأتصل به بعد اقتناء الهاتف هو.. —هو مَن؟ -احزر ذلك يا كوتشو. -البابا. خمنتُ. -أخطأتَ. —ومن سيكون إذاً؟ -أنتَ يا كوتشو. -وهل تعرفين رقمي؟ -سأحفظه ما إن يخرج من بين شفتيك. —هل أنتِ مستعدة لتحفظيه الآن؟ -بالطبع. -ركزي إذاً جيدا فرقمي هو: 066194447773 -يا إلهي رقمك سهل، لقد حفظته بسرعة اسمع: 066194447773. -أحسنتِ يا ذكية. -أنا ذكية وحزينة. -لماذا حزينة؟ -بشأن ماما. -لمياء لا تحزني، أمك لن تبيت مكتوفة الأيدي، فهي امرأة ذكية وستبحثُ عنكِ في مخافر الشرطة ومن ثَمّ سيبلغونها بمكان وجودنا. -وبم سيتعرفوا إلينا ونحن لا نملك بطائق هوية؟ -بمجرد أن تصف لهم أمك ملامحك حتى يرسمكِ هؤلاء الأوغاد في مخيلتهم وقياسا على ذلك سيتعرفون إلي. -وبم سنخبر ماما بعد أن تعثر

Scanned by TapScanner

علينا؟ -لا مجال لصنع أية كذبة يا لمياء، إذ لا يمكننا أن نغطي الشمس بغربال، وأنت تعلمين أن الحقيقة يستحيل إخفاؤها لأن لها بذورا تنبت حتى في القفر ولو بعد ردح من الزمن. -في الواقع كنتَ غبيا يا كوتشو عندما نسيت بطاقة هويتك، ومن يزرع الشوك لا يحصد به عِنَباً، حيث لو كنتَ أحضرتها ما كنا لنقع في هذا المأزق. -الإنسان كائن ينسى بطبعه يا لمياء، وما سمي إنسانا سوى لأنه عُهِدَ إليه فنُسِيَ، وإياك أن تنعتيني مرة أخرى بالغبي. حذرتها. -الإنسان مفرد أناسين وتصغيره أُنيْسِيان وهو مشتق من الإيناس أي الإبصار، أما سبب تسميته إنسانا فلأنه يحتاج إلى المؤانسة أيها الغبي، ألا تراني حزينا فقط لأنني وحيد ولم أجد من يؤنس وحشتي؟ فسّر المعتقل بصوته الغليظ وهو يتأهب للوقوف. -أُصمت، إياك أن ترد على كلامه، إنه ثمل ولن يكف عن الثرثرة. همست لمياء. -اطمئني لن أفعل.

استقام الرجل السكران واقفا داخل زنزانته، وأضحى يعربد بأعلى صوته: -أطلقوا سراحي يا أبناء العاهرة، أفرجوا عني وإلا تغوطتُ على رؤوسكم جميعا. فانفجرت لمياء ضاحكة دون أن تستطيع كبت ضحكتها، ثم سكت العربيد بعدما أعياه الصراخ وجلس في ركن الزنزانة. -حبيبي هل تأذن لي أن أدردش معه قليلا؟ أحب الحديث إلى السكارى حيث أحظى بقهقهات تفرج الكرب. -وما هذا التناقض؟

Scanned by TapScanner

قبل قليل كنتِ تحثينني على الصمت خوفا من ثرثرة هذا السكير والآن تودين الحديث معه، على أيّ، أظنه لن يجرؤ على عضك مادام محجوزا داخل قفصه، ونهضتْ من مكانها مقتربة من باب زنزانتنا وهي تهفو لطرح أحد أسئلتها البليدة. -سيدي لماذا جاؤوا بك إلى هنا؟ فقام السكران برشاقة لما سمع سؤالها وأسند يديه على القضبان، حملق فيها جيدا من القُلَّة حتى الحضيض، ثم صمت برهة وقال: هذا لا يعنيكِ، سحقا لكم أيها المغاربة، كم تحبون إقحام مناقيركم في الوحل كالدجاج البري. تفاجأت لمياء من رده العنيف وتراجعت خطوتين إلى الوراء. -وأنتما لماذا جاؤوا بكما إلى هنا؟ سألها وهو يكرع خمرا. وتابع: آه، فهمتُ، أظن أنهم وجدوكما تمارسان الجنس خلف جدران الثانوية كما تفعل الكلاب الضالة، يجب عليكما أن تشكرا رجال الأمن لأنكما كنتما ستمارسان الرذيلة تحت المطر، وبذلك كنتما ستقعان فريستين للمرض. قهقه السكير في حين استشاطت لمياء غضبا من كلامه. -أُنظرا من حولكما كم هو دافئ هذا المكان ومناسب للحب، هيا ماذا تنتظران؟ سأصفق لكما بحرارة، فقط متعا عيوني الناعسة.

تركناه يستمر في نباحه كما يشتهي دون أن نتفوه بحرف واحد، حيث كانت لمياء تجلس بعيدة عني في ركن من الزنزانة خافضة أنظارها والدمع يطفر من عينيها، بدت نادمة على جسارتها التي جلبت علينا

Scanned by TapScanner

هذه الثرثرة القميئة، لأنه لولا سؤالها الفضولي لكان الآن شخير هذا السكير بلغ علياء السماء. -هيا أيها العندليب الأسمر، تشجع، لا تخجل أيها المحظوظ، التهمها، إنها تبدو مثل تفاحة طرية وطازجة، افعل هذا الآن، لا تثق بغصن الفاكهة، أقطفها هنا والآن، لو إنني كنت مكانك أيها العنين لقفزت فوقها كفارس من العصر الأموي، لكن الله لا يهب الفول إلا لمن لا أضراس له. غمزني لاعقا شفتيه ويداه ممددتان خارج القضبان ثم شرع يقهقه كالمجنون، فيما واصلتُ أنا ولمياء صمتنا غير آبهين بترهاته. -لِمَ لا تجيبا؟ ألم يعجبكما كلامي؟ حك لحيته. فلم نرد عليه. -إي، أيها الأسمراني لِم لا تنطق بكلمة؟ ناداني السكير وتابع: يا لك من بليد؛ العشاق يحملون عشيقاتهم إلى قاعات السينما ويشتروا لهن الفُشار وأنت جئتَ بحبيبتك إلى أقبية المتشردين لتتفرج على مؤخرة سكير يدعى بيدرو الوسيم. كبتت لمياء ضحكتها ومسحت دمعها. -سيدي، لم تشرفنا بعدُ بشخصك؟ اقترحتُ رغبة في أن يغير هذا العربيد موضوعه الحقير. -أشرفك بنفسي؟ أصدر قهقهة مطولة ثم تمتم: ذكرتني بأول لقاء كان لي مع حبيبتي، لكن على أية حال سأعرفك بنفسي: أنا اسمي بدر لكن في حومتنا ينادونني بيدرو، أنظر، بيدرو الوسيم. صرّح وهو ينظر إلى أسماله المهلهلة. -وهل أنت كازاوي؟ سألته لمياء. -أنا كازاوي يا يمامتي، ترعرعتُ في كنف حي سيدي مومن داخل بيت قصديري،

Scanned by TapScanner

لكن أصولي تنحدر من مدينة الشَّمَّاعِيَّة التي كنت أقضي فيها العطل الربيعية عند جدتي، وأنا الآن أبلغ من العمر تسعة وأربعين عاما. بدا بيدرو رائق المزاج. -وأنتَ ألا تملك اسما؟ وجه إليّ السؤال. -أنا اسمي أنير. -لا، إنه يكذب، اسمه كوتشو وليس أنير. اعترضتْ لمياء. - كوتشو؟ ضحك بيدرو وقال: لو كان أشقراً ويتحدث الإسبانية لصدقتكِ، لكن بما أن الاسم أمازيغي واللكنة أمازيغية فسأصدقه هو. -حتى كوتشو اللاعب لم يكن أشقرا. فسرت لمياء. -وأنتِ ما اسمكِ؟ إياك أن تقولي لي إيستريلاّ أو مانويلاّ. ضحك بيدرو. -اسمي لمياء. -اسم جميل ويظهر من لكنتك أنك كازاوية صرفة. -تماما، أنا من حي مولاي رشيد. -حي مولاي رشيد؟ تساءل بيدرو مشدوها. وأضاف: ذاك حي خطير حقا، يجسد الشعور بفقدان الأمان والخوف من حُمرة الدم، لقد قام مرة بعض المجرمين بفرم لحمي هناك بسيف حاد وحاولوا قتلي بدم بارد، ولم ينفعني غير الفرار. قال بيدرو ذلك وزمّت لمياء شفتيها. -عموما لقد تشرفت بمعرفتكما، ومحظوظ جدا لأنكما ستؤنسان وحشتي هذه الليلة، كما أتمنى أن يفرج عنا أولئك الأوغاد قبل طلوع الشمس. ابتسم بيدرو.

بدا بيدرو هادئا شيئا ما، بل متعقلا كما يظهر من أسئلته، وكأن الخمر بدأ يفارق روحه، سرابيله الرثة ووجهه المدفون في لحيته لا يوحي أبدا بأنه رجل مجرم، بقدر ما يدل على رجل بسيط، عاقر

Scanned by TapScanner

الخمر فخانه هذا الأخير. لم يكن بيدرو من عشاق الصمت أو ليقع ضحية النوم على بلاط بارد، لكن صمتنا غلب ثرثرته، فاستسلم هو الآخر لحكمة الصمت إذ غدا القبو هادئا كهدوء يوم ربيعي. كانت لمياء لا تتحدث معي إلا نادرا وذلك بعد أن أبادر أنا أولا بالكلام، حيث كلماتها تندلق على قلبي مثل نداوة الشتاء، إنها تتحدث بعد صمت رهيب، وفي كل مرة تتحدث فيها كانت كلماتها تخترق حجاب الصمت، كان سكوتها يذكرني بأن الصمت هو أصل كل الأشياء، منه انبثق كل شيء وإليه سيعود العالم بأسره؛ سيبتلعه الصمت الفسيح لا محالة في لحظة ما. وحتى خلتُ أن بيدرو قد نام إلا إنه للأسف قام من على البلاط بعد مدة وجيزة يترنح من شدة الثمالة، فكدّر صفاء الصمت من جديد. -إي، أنتما، لم تخبراني بعدُ لِم جاؤوا بكما إلى هنا؟ -لأن كوتشو لم يكن يحمل معه بطاقة هويته. أجابت لمياء متأففة. -آه، للأسف، لقد ارتكبتما غلطة. وأردف: ألازلتما تدرسان؟ - نعم، أنا أدرس في الثانوية وكوتشو يدرس الفلسفة بسلك الماستر، ألديك سؤال آخر؟ -ماذا قُلتِ؟ يدرس الفلسفة؟ اندهش بيدرو واستطرد: أصحيح ما تقوله صديقتك يا ولدي؟ -صحيح يا بيدرو. تنهدتُ. -وأخيرا وجدتُ صديقي الذي كنتُ أبحث عنه منذ زمن طويل. ابتسم بيدرو وطرطق أصابعه بنعومة، فتبادلتُ أنا ولمياء نظرات تبعث على الحيرة قبل أن أوجه إليه السؤال: -لم أفهم سيدي، ما

Scanned by TapScanner

الـذي تقصـده بالـضـبـط؟ -أقصـد يـا بني أنني أنـا أيضـا كنـتُ أدرُس الفلسـفة في شـبابي، وكان الجميـع يكرهني بسـبب ذلـك، بمـن فـيهم أقربـائي. -مجتمعنـا يمقـت الفلسـفة وأهلهـا يـا بيـدرو. غمغمـتُ. -حتى الدولـة تكـن الكراهـة للفلسـفة يـا أنير، وليسـت تبغي أن تعترف بـأن الفلسـفة هي الحل الوحيـد للقضـاء على الإرهـاب الـذي أضـحى يفتك بمجتمعنا. -وكيـف ستقضي الفلسـفة على الإرهاب سيد بدر؟ سألته لميـاء. -بيـدرو ولـيس بـدر، *دُونْ بيـدرو* الوسـيم. صـحح لهـا. -عفـوا، بيـدرو. اعتـذرت لميـاء. -عمومـا يـا أبنـائي الفلسـفة هي السـلاح الوحيـد لمحاربة الإرهاب وجميع ألوان التطرف، وذلك عن طريق التعليم؛ أي أن نعمم الفلسفة على جميع المسالك التربوية؛ منذ السادس ابتدائي حتى الجامعـة. ونقسـم ذلـك على مـرحلتين: تكـون الأولى مـن سـن السادسـة إلى الحاديـة عشـرة، وفي هـذه المرحلـة نـدفعهم إلى قـراءة القصص الفلسفية التي تثير الأسئلة والشك، ثم المرحلة الثانية التي تبتـدئ مـن سـن الحاديـة عشـرة فمـا فـوق؛ باعتبـار هـذه السـن هي مرحلـة العمليـات المجـردة حسـب السـيكولوجيا المعرفيـة؛ وفيهـا يسـتطيع التلميـذ أن يقـوم بالعمليـات العقليـة مـن قيـاس واسـتدلال ونقـد ومـا جـرى مجـراه، وفي هـذه المرحلـة بالضـبط نعلمهـم مفاهيمـا أساسـية مثـل مفهـوم الخيـر، والشـر، والجمـال، وكـذا الحريـة والديمقراطية وما شابه ذلك، بغية تطوير الروح النقدية والتفكير

Scanned by TapScanner

المستقل لدى الأطفال. وهو ما سيجعلهم يتشربون منذ نعومة أظافرهم روح الاختلاف، ويتشبعون بقيم التسامح، والتعايش، والنزاهة، والسلم، والحوار، ويتحررون من السذاجتين الفكرية والعاطفية، ومن التعصب والكراهة، ويسعون إلى كل ما يضطلع إلى أفق الكونية. ولا أظن أن أطفالنا سيرفضون تعلم التفلسف، بالعكس، يولد الأطفال برغبة جامحة في التعلم، وبفضول كبير في معرفة أشياء العالم، فهم مندهشون دائما، وأسئلتهم من طبيعة فلسفية؛ من قبيل "لماذا؟" و "كيف؟" فهم دائما ما يبحثون عن المعنى وعن علل الأشياء. لذا لا يجب أن نقمع أسئلتهم ونفرض عليهم طريقة معينة في التفكير تدجن قدراتهم الفكرية، وتقتل فيهم كل إبداع محتمل، ولكن يتوجب علينا أن نطور أسئلتهم كي يترعرعوا في أجواء تنويرية تجعلهم يفكرون بحرية وعقلانية، وبذلك سنصنع جيلا مغربيا واعيا بذاته، مؤمنا بقيم الديمقراطية والحداثة، جيلا يفكر وينتقد كل ما يقال، وذلك استنادا إلى تجربة الفيلسوف الأمريكي ماثيو ليبمان، وهي تجربة رائدة حاليا في العالم تعتمدها أفضل الأنظمة التعليمية مثل سويسرا وفنلندا وكوريا وغيرهم. أما إذا نحن أجّلنا تدريس الفلسفة إلى سلك التعليم الثانوي كما نفعل الآن؛ فإننا سنكون حينئذ بمنزلة من أراد تقويم ظل معوج قبل تقويم صاحب الظل، إذ عبر تعجيل تدريس الفلسفة نكون قد تجنبنا

Scanned by TapScanner

السقوط في مهواة الخطابات التي تعادي الأجانب وتهدد استقرار البلاد، والتي تبخس الحداثة، وبالتالي نكون قد جففنا كل المستنقعات ذات النزعات القومية الواهية، والعنصرية التي تفوح من بعض القِلاّت العرقية أو الدينية التي يمكنها أن تهدد وحدة الوطن وتماسكه. إن جوهر الإنسانية يا بنيتي هو وحدتها المخصبة ووطنها هو الأرض قاطبة، هذا الوطن الكبير الذي يسمى الأرض والذي يستدعي منا أن نتواصل فيما بيننا ونتوحد وننبذ العنف، لأننا في نهاية المطاف كائنات تنتمي إلى كوكب واحد هو الأرض. ينبغي أن تعلمي يا يمامتي أن الفلسفة ليست شيئا آخر غير محبة الغير، محبة شيء ما كيف ما كان جنس هذا الشيء، ووطننا إذا استمر في ازدراء الفلسفة ومحاربتها وإلغائها من المناهج التعليمية؛ فسيكون بذلك قد حارب القيم البشرية الكونية وذبح الإنسانية بسيف الرجعية، وحفر قبره بيديه، وبذلك سوف يستمر الوحوش في قطع رؤوس السياح فوق قمم الجبال. -شكرا *دونْ* بيدرو على توضيحك. تمتمت لمياء بلطف. وأضافت: والفلسفة أيضا هي أم العلوم أليس كذلك *دُونْ* بيدرو؟ -صدقتِ وبَرَرْتِ أيتها البارّة. ابتسم بيدرو. -هي بَرُورَةٌ وبارّةٌ وبريئةٌ قبل أنْ يبرَأَ البارئُ البحر والبر. قُلتُ له ضاحكا. -وليس بيننا براءٌ ولا مبارأةٌ في هذا. ضحك بيدرو وأضاف: على أيٍّ، إنَّ ما يدل على أن وطننا يناهض الفلسفة يا أبنائي؛ هو هذا العبد الصالح الذي

Scanned by TapScanner

يقف أمامكما خالي الوفاض، أنا يا أبنائي كان من المفترض أن تقلدني الحكومة أستاذا للفلسفة مذ كنت أبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما، لأنني مُجاز في الفلسفة، وكان حلمي الوحيد أن أصبح أستاذا لمادة الفلسفة وأدرس تلامذتي القيم الإنسانية المثلى، بيد إنه دائما ما كان يتم رفض طلبي لأن الفلسفة لا تدرس إلا في السلك الثانوي؛ ومن ثم كان عدد المناصب في شعبة الفلسفة ضئيلا جدا. وها أنا ذا الآن بلغتُ من العمر عتيا ووخط الشيب رأسي؛ أظل أدفع عربتي اليدوية أجوب دروب كازابلانكا وأهلل بأعلى صوتي: "سردين.. سردين.." بل اليوم لم أستطع أن أبيع ولو كيلوغراما واحدا للأسف، كون السردين أصبح مرتفع الثمن على الرغم من أنّ المغرب يملك سواحل شاسعة في المحيط الأطلسي، فضلا عن ساحل البحر المتوسط في الشمال، فتحسرتُ على حالي وعاقرت لتراً ونصف اللتر من النبيذ الرخيص ثم خرجتُ أعربد في الشوارع وألعن رئيس الحكومة الفاشل، وكانت النتيجة أنني واقف أمامكما الآن أروي لكما حكاياتي كالعجائز. بكى بيدرو وتشظّت روحي إثر سماع قصته الحزينة، أما لمياء فتأسفت كثيرا وقالت: -آسفة جدا يا بيدرو، في الواقع قصتك هاته تُقَضْقِضُ الصدر. -لا داعي للتأسف صغيرتي. جفف بيدرو دمعه وأضاف: بنيتي أخبريني؛ ما هو حلمكِ؟ -حلمي هو أن أصبح زوجة كوتشو. أجابت لمياء دون أن تفكر فضحك بيدرو

Scanned by TapScanner

حتى بان ما تبقى من أسنانه وقال: - ليس هذا ما قصدتُ عزيزتي، وإنما أقصد ماذا تتمنين أن تصبحي في المستقبل. -آه فهمتُ الآن. ابتسمت لمياء وتابعتْ: حلمي أن أصبح مهندسة. -ممتاز. أشاد بيدرو ثم استطرد: الحلم حق مشروع بنيتي، قاتلي من أجل حلمك، وبمناسبة الحديث عن المهندسة سأروي لكما قصة جرت لي مع أحد المهندسين المعماريين كنت أشتغل رفقته ذات صيف حار في إحدى شركات الأشغال العمومية. وأخذ بيدرو يحكي قصته بكل هدوء:

كنتُ واقفا في صباح باكر أنتظر صديقي المهندس ليقلّني في سيارته إلى العمل، كان ذلك عام 1989 حينما كنت أبلغ من العمر عشرين عاما، وبعد لحظات أتى المهندس فصعدتُ السيارة، أخذ يسألني عن أسرتي الفقيرة وعن ظروف الدراسة، إذ كان ذلك العام هو عامي الأول في الجامعة، فجأة سألني عن أي مسلك دراسي اخترتُ، فلم أتردد في أن أخبره بأني اخترت شعبة الفلسفة مما جعله يرمقني بنظرة احتقار حيث قال لي: -يقعُ لي أنّكَ كنتَ بليدا يا صديقي حينما اخترتَ الفلسفة، أكنتَ وقتها سكرانا؟ سألني وهو يدخن سيجارة من نوع جيتان. -لا سيدي لم أكن سكرانا عندما اخترت الفلسفة. -ولِمَ اخترتَ الفلسفة إذاً؟ -لأغدو مهندسا. أجبتُه فانفجر ضاحكا وهو يضرب براحتيه عجلة القيادة. – ماذا، مهندسا؟ ألم تخجل من نفسك يا هذا؟ مهندس عن طريق الفلسفة، يالها من نكتة جديدة.

Scanned by TapScanner

قهقه المهندس. -أقصد بذلك أن أصبح مهندسا إنسانيا؛ أهندس قضايا الإنسان المعقدة عبر تحليل شخصية الفرد في علاقته بذاته وبالوجود، ومن ثم السعي الدؤوب نحو تغيير الإنسان عن طريق إخراجه من نير البؤس المحيق به. وضحتُ له. -لن تصبح كذلك يا عزيزي الطالب، فقط ستصير مهرطقا كما تفعل الآن، وما يزيل عن الإنسان بؤسه هو البنية الاقتصادية، هو رخاء المعيشة، هو توفره على شغل قارّ، هو المال، وليس هرطقتك التي لن تفيد الناس في شيء، لأن ما يحتاجه الإنسان هو الخبز وليس الكلام. واصل المهندس قهقهته بكل سخرية. -سأصير مهرطقا؟ وما الهرطقة سيدي المهندس؟ سألته. -الهرطقة؟ مرر المهندس يده اليسرى على لحيته وهو يبحث عن جواب ثم قال: آه، الهرطقة عزيزي بدر هي الفلسفة ليس إلا. أجاب وهو يتحرش بإحدى المارات على الرصيف. -وما الفلسفة صديقي المهندس؟ تشجعتُ في طرح السؤال. -هي كلام فارغ. أجاب ببرودة. -وما الكلام الفارغ؟ سألته مجددا. -هو أن يتحدث المرء في أمر لا يفقه فيه شيئا. -وهل تفقه أنت يا سيدي الفلسفة؟ ارتجلتُ. -لا ، أبدا. رد المهندس ثم أردف: اللهم إني بريء منها. -ألستَ تخوض الحديث في الفلسفة؟ سألته بابتسامة فاترة، فرفع قدمه من على دواسة السيارة وتوقف جانبا ثم قالي: - بلى عزيزي بدر وإلا ماذا تراني أفعل الآن؟ - إذاً أنتَ كلامك لا شك فارغ، وبالتالي فأنت مهرطق

Scanned by TapScanner

وستحتاج لا محالة إلى مهندس إنساني يعالج شخصيتك المتناقضة.

علقتُ بكل ثقة في النفس.

شبك المهندس عشره على رأسه، تذوق خمس سيجارات متتاليات بشكل عنيف، وطفق يرمي بالأعقاب المتوهجة في شريط الورود المتراص جنب الرصيف. أمرني بالنزول من سيارته بغيظ شديد فنزلتُ، ثم مضى سريعا وترك لي الدخان والغبار. نظرتُ يمنة ويسرة ثم واصلت المسير نحو مقر العمل مشيا على الأقدام، متسللا بين أحياء كازابلانكا المليئة بالنشالين إلى أن وصلت إلى الورشة متأخرا بعض الشيء. مضى اليوم ممتعا كعادته يا أبنائي على الرغم من بعض المتاعب والحق يقال، وفي المساء لما انتهيتُ من العمل، عدت أدراجي قاصدا منزلنا القصديري في حي سيدي مومن وأنا ملطخ بالأسمنت. في طريق عودتي وبينما أنا أغذ السير على الرصيف وأدندن كالمعتوه؛ لمحتُ شريط الورود الممتد على طول الشارع والذي كنتُ أمر عليه كل صباح، لمحته يا أنير وقد استحال رمادا تذروه الرياح، والعصافير الحزينة فوق أعمدة الإنارة ترقب من بعيد وهي تبكي، حتى الأزهار البعيدة والمعزولة في الأصائص لم تسلم المسكينة من أوار النار وصارت ذابلة، أمعنتُ النظر جيدا فتذكرت سجائر المهندس.

Scanned by TapScanner

انتهى بيدرو من سرد قصته فقالت لمياء: -مسكينة هي العصافير الحزينة، من اليوم فصاعدا لن أفكر بأن أصبح مهندسة، سأغدو فيلسوفة مثل حبيبي كوتشو. قالت ذلك بنبرة بريئة ثم سرقت من خدي قبلة. فبَشْبَشَ بيدرو وقال لها: -عموما ركزي على دراستكِ في هذه الأثناء، وداومي على قراءة الكتب فبالقراءة وحدها يمكنكِ النجاة من الجحيم! -أعلم ذلك سيد بيدرو رغم إنني لا أحب القراءة في الكتب إذ هي كاذبة، المهم أنا أدرس جيدا وأحصل على مراتب متقدمة خاصة في مادة اللغة الإسبانية، وكذلك أخي الأصغر، وكوتشو هو أيضا طالب مجتهد. -أحسنتم أبنائي واصلوا طريقكم ولا تلتفتوا إلى الفاشلين، فبينما هم يتكلمون؛ التزموا أنتم الصمت، وبينما هم يرددون ترهات الأولين؛ أُكتبوا أنتم حاضركم، وبينما هم في الليل نائمون؛ اصنعوا أنتم مجدكم، واعلموا أنكم لن تستطيعوا صناعة مجدكم إلا ليلا بعد أن ينام الثرثارون، حتى وإن شعرتم يوما بأنكم تعثرتم، فانهضوا من جديد ولا تستسلموا، فلا مكان للفاشلين في هذا العالم، عليكم أن تتحلّوْا بالعزيمة الكاسرة حتى تستحقوا النجاح ولو بعد ردح من الزمن. هنا أصابت بيدرو نوبة سعال حادة وبعد انتهائها سأل قائلا: أخبراني هل أنتما عشيقان؟ -نعم، ونحب بعضنا كثيرا. أجابت لمياء بحماس شديد. -أتمنى لكما دوام الحب. قال بيدرو. ورددت لمياء كلمة آمين بشكل مطول فيما التزمتُ أنا

Scanned by TapScanner

الصمت. -بيدرو وهل أنت تحب زوجتك؟ سألته لمياء. -ومن قال لكِ بأنني متزوج؟ أنا لستُ متزوجا. -آسفة، ظننتك متزوجا. -لا تتأسفي صغيرتي، فلا أحد منا سلم من وخزة الحب. استدار وجلس على البلاط. -إذاً لا شك أنك عشت لحظات غرامية يا بيدرو. بادرتُ.

أخرج علبة سجائر من سترته الممزقة وأشعل سيجارة ثم قال: آه كم أحن إلى ذلك الزمن الجميل حيث كنا نلصق أظرف رسائل الغرام بلعابنا، تخيل معي يا بني كيف كان الحب حينها يقف شامخا أمام إكراهات الحياة، تخيل معي كلمات من نحب وقد امتزجت بشيء من رضابه، فقط تخيل كيف كنا. أصدر بيدرو آهة عميقة ورمى بعقب السيجارة ناكسا رأسه. –إذاً احكِ لنا عن قصة عشقكَ سيد بيدرو. أوعزت إليه لمياء. -لقد أحببتُ يا يمامتي فتاة جميلة قبل أن يأخذ مني الموت أبي وأمي. -يا إلهي هل ماتا والديك؟ فلترقد روحها في سلام. تمتمت لمياء. -ماتا يا صغيرتي وهِيلَ عليهما التراب منذ زمن بعيد، ماتا ولم يتركا خلفهما سوى الذكريات الأليمة، حتى أمي -فلترقد روحها في سلام- لمّا أخذتها المنية بعد وفاة أبي بتسع سنوات لم تترك لنا تركة غير كلمة "الله" مطروزة في لوحة ومعلقة على جدار من القصدير، ماتت أمي، ولازلنا نحن نبحث عن الله. لقد ثبطتني الآلام المُمِضَّةُ يا أبنائي وتَبَيّغ الحزن في صدري منذ سنوات خلت، حتى الفتاة التي بلَغَ حبها شِغافَ قلبي خذلتني وقالت لي إن الحب مجرد كذبة يصدقها

Scanned by TapScanner

الحمقى والمغفلون، ومنذئذ كرهت كل نساء المسكونة وأبَيْتُ أن أتزوج. أشعل سيجارة أخرى. -كم كان عمرك حينما أحببتَ هذه الفتاة وكيف التقيتُما؟ سألتُه. -على مهلكما، سأحكي لكما كل شيء بالتفصيل، رغم أني لا أحبذ النبش في مثل هذا الخراء. وشكرَته لمياء على مبادرته.

-رغم مَكَرِّ الأيام، ومَمَرِّ الأعوام، إلا إنني لازلت أذكر بالتفاصيل المُملّة، والأحداث المُخِلَّة، قصة جرت لي في عطلة ربيعية من العام 1986؛ إذ كنت في منزل جدتي التي تقطن وحيدة في حي يسمى لاگار بمدينة الشمّاعية، وذات ليلة باردة كنت سابرا أغوار كتاب حكمة الإشراق للفيلسوف العظيم؛ السهروردي المقتول، كانت الساعة وقتئذ تشير إلى الثالثة وثلاث عشرة دقيقة بعد منتصف الليل، وقد كان الجو مناسبا للقراءة حيث الصمت الرهيب يسود المكان، فجأة صرت أسمع صوتا أو كلمات غريبة تقطع هدوء الليل، كانت تُسمع بصوت منخفض ومتقطع، وكأن رياح الشمّاعية العاتية اجتلبتها من فج عميق. توقفتُ عن القراءة ريثما يتلاشى هذا الصخب الآتي من اللّامكان، فلم ينقطع ذلك الصوت الغريب، وقررت حينها أن أخرج من غرفتي لأتفقد منبعه؛ فخرجتُ، فإذا بي أجد حُلكة الظلام تخيم على الزقاق بسبب تعطل عمود الإنارة. بعد برهة سمعتُ أغنية شوّش على كلماتها صفير الرياح، فاعتاص عليّ استيعاب كلماتها،

Scanned by TapScanner

كانت تُسمع تارة منخفضة وأخرى بصوت مرتفع. وما سمعته أخيراً كان كالتالي: (يانا يانا ... ينا يانا ... في حبيبي أموت آنا ... بحبيبي أموت آنا بلهيبي وعذابي ... لحبيبي... على شانو آموت آنا ...) هزت هذه الكلمات العذبة فؤادي الرقيق هزا، ورجّت عقلي المريض رجّا، وبُعيدها اكتشفتُ أن هذه الكلمات آتية من فوق، ليس من السماء هذه المرة؛ وإنما من بيت الجيران، حيث كانت إحدى غرفهم في الطابق الأول مُضاءة ومُصاقِبَةً لعمود الكهرباء. وحتى تستريح نفسي وينزاح حدسي، ارتقيتُ درجات عمود الكهرباء مثل العقربان، حتى تقابلتُ ونافذة الغرفة المُضاءة التي كانت موارية بعض الشيء، فصدمت بما شاهدتُ. لقد رأيت بنت الجيران وحيدة في غرفتها وفي أبهى حُلّة، ترتدي تنورة شفافة وحمالة صدر وردية، وهي ترقص على ألحان صباح الشحرورة، كانت بهية الطلعة، ممشوقة القد، بارعة القسمات. أبصرتني فجأة وقالت: تبا لكَ أيها المجنون، انزل وإلا أبصرك أحد المارة. فقلتُ: وهل من مارة في وقت الحب؟ إن الجميع هنا ناموا وكُبّلوا بالقيود فلم يبقَ في الوجود غير أنا وأنتِ وكوكب الزُّهَرَة يلمع من بعيد، فآه يا بنت الجيران كم تمنيتُ لو كنتُ حمالة صدركِ فأعقد مع نهديكِ معاهدة السلام ونعيش كلينا في أمان واطمئنان، ألا يمكننا يا سيدتي الوذيلة أن نقضي هذه الليلة بقية العمر على سريركِ ذاكَ حتى ذلك اليوم الذي نتحلل فيه معاً ويمتلئ

Scanned by TapScanner

المكان بالعناكب وبرائحة العفن، ونتحول إلى هياكل عظمية تسكنها العقارب؟ سألتها متلهفا. ثم ردت محتجة: أف على وضاعتكَ أيها الحقير، أنصت قليلا إلى عقلك علك ترقى إلى رتبة الحكماء. أنا أيضا أنتمي إلى الحكمة يا سيدتي: قلتُ لها. فاستشاطت غيظا وقالت: لو كنتَ تنتمي إلى الحكمة كما تدعي ما كنتَ لتتصرف بمثل هذه الفسولة، أنسيت أن الأهواء حتى أجملها لا مكان لها في الحكمة؟ فأجبتها: إن العقل يا سيدتي الذي تأمرينني بالإنصات إليه هو الذي كان مسؤولا وراء صنع قنبلة ذرية فقتل أرواحا وشوّه أجسادا، وإن العقل الأناني كان سببا في سلب الإنسان إنسانيته واستلاب الطبيعة طبيعتها. ألم يكن العقل يا سيدتي سببا في نشب الحروب المعاصرة الطاحنة، وصنع أذكى الآلات الحربية الفتاكة، والڤيروسات المتحوّرِة التي تقتل البشرية بلا دم، زيادة على الإضرار بالبيئة؟ لقد ساهم العلماء والمهندسون، والأنثرُبولوجيون بشكل مباشر أو غير مباشر، في غزو الشعوب والقضاء على ثقافاتها البديلة، بدعوى أنها شعوب متخلفة. وطالما كان العلماء الكولونيانيون موظفين للدولة وعبيدا لها، يمهدون لها الطريق نحو اضطهاد وتعنيف الشعوب في أميركا الجنوبية وأفريقيا وغيرهما، كما أنه ليس يمكننا أن ننكر بأن العلم كان شريكا في الهيمنة كالجغرافيا، علم الاجتماع، الجيولوجيا وخاصة علم المحيطات؛ وليد الإمبريالية. لكن يا من يدعي الحكمة -

Scanned by TapScanner

وهنا قاطعتني بنت الجيران- ألستَ ترى أن هذه الشعوب المتخلفة التي تدافع عنها بكل تعصب، تتبنى ديانات تزعم من خلالها أنها تملك الحقيقة المطلقة، وتعتبر الغير المختلف زنديقا أو مهرطقا أو كافرا، فتضطهده هي الأخرى وتعنفه وتصادر ممتلكاته معتبرة إياها غنيمة، وربما كان آيُ ذلك رضوخهم للعاطفة دون العقل؟ لا يا سيدتي – قلتُ- لم تكن العاطفة مسؤولة عن ذلك، وإنما مبادئ الحقد والكراهة، التي نُحتت في عقولهم عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية، وخطب الواعظين. أما إيمانهم الخاص بالحقيقة المطلقة فلن يضر العالم في شيء، بقدر ما سيزيده تساؤلا وغنى وتقدما، فأيُّ شعب هو حر فيما يعتقد ويؤمن به، واعتقاد شعب بأنه يملك الحقيقة المطلقة هي أيضا حرية، لكنها مشروطة، أي أن يعتقد هذا الشعب الذي يشكل أغلبية في بلده بالحقيقة المطلقة في حدوده الجغرافية، فإذا هو تجاوزها وحاول أن يفرض علينا اعتقاده زجرناهُ، وأنا أتحدث عن الشعب وليس الجماعة، فهذه الأخيرة إذْما نحن تعاملنا معها بنفس المنطق فلا ريب ستشكلُ لنا دولة داخل دولة مما سيزعزع استقرار مجتمعنا. فنحن بحاجة إلى ما أسميه بالاختلاف الشعوبي في العالم ضدا للعولمة، نحن بحاجة إلى ثقافات مختلفة وحقائق متضاربة ومنطق متناقض، شريطة أن يكون هذا الاختلاف نابعا من غالبيات كبيرة وليس جماعات تمثل الأقلية. وعلى

Scanned by TapScanner

أية حال يا سيدتي فإن عواطفنا تتقزز بالفطرة من شق الصدور ونبش القبور، ومن هدر الدماء، فكيف لها أن تكون مسؤولة عما نعيشه من شرور؟ العقل يا سيدتي قتل عواطف الجنود باسم مبدأ عقلي يسمى الواجب المهني، وقضى على عواطف العلماء والمنظرين السياسيين، وهو الذي أفسد براءة طبيعتنا الجسدية مذ كنا في جنة عدن. علينا يا بنت الجيران أن نثور في وجه شبح العقلانية الصارمة والجلفة، لقد حان الوقت لأنْ نؤسس فلسفة إيروتيقية جديدة غابت عن أجدادنا في عَرصَتَيْ بغداد وقرطبة، أن نؤسس فلسفة لا تختزل الإنسان فقط في العقل؛ بل في كل ما هو إنساني في الإنسان، فلسفة تلقي بظلالها على الحب، والجنس، وكل الأهواء التي حينما تثور تخلق المعجزات، وتجعل من الشراسة ليونة، ومن العنف لطفا، وترد الاعتبار إلى البيئة التي لا يمكننا أن نحافظ عليها إلا إذا أحببناها بهوىً جامح. إن العقل يا سيدتي –كما يقول باسكال- "لا يكفي نفسه بنفسه، فهو غير قادر على صياغة مبادئه الخاصة التي تنجم عن الأهواء والعواطف التي لها أسباب يجهلها العقل". نحن نحب، ونعتقد، ونرغب، ونحس، ونشعر، ونؤمن، ونتحسس الجمال والفنون بحساسيتنا وأهوائنا وعواطفنا، وللعقل دور هزيل في مثل هذه الشؤون. أنهيتُ كلامي وأنا معلق ومتمسك بعمود الكهرباء، وبعد ذلك تكلمت بنت الجيران بعدما صمتت طويلا فقالت: صحيح

Scanned by TapScanner

ما قلته، حقا أنت تبدو حكيماً، وما علينا الآن سوى أن نشرع في إبادة صرامة العقل، وإلا بدا عالمنا غريبا أكثر.

وقد طال الكلام وتمادى المرام، ثم أفل كوكب الزُّهَرة وانقشع نور الصباح، فإذا بي أسمع صوت جدتي العجوز وهي تناديني وتحمل في يدها مكنسة من سعف النخل: إيْ، إيهْ، ووهْ.. انزل من هناك أيها المجنون وإلا صعقك الكهرباء، اهبط أيها البغل. فضحكتْ بنت الجيران حتى بانت أسنانها وأغلقت النافذة، وهناك بدأت قصة حبنا يا أبنائي التي لم يُكتب لها الدوام، لأن الحب في نهاية المطاف ليس شيئا آخر سوى سيناريو يصنعه المُحِبُّ وفق خياله، وليس واقعة موضوعية تقبل الدرس والتعميم.

-يا إلهي قصتك هاته شبيهة بفيلم هندي كُتبت أطواره على يد مخرج محنك، بيد إن أغلب الأفلام الهندية خصصت لأفناء الناس بينما قصتك هاته عبرة لأولي الألباب. استحسنت لمياء قصة بيدرو وأضافت: لكن من يكون هذا الفيلسوف الذي كنتَ تقرأ له؟ أنا لم يسبق لي أن سمعتُ باسمه ولا يوجد أي نص من نصوصه في مقرراتنا التعليمية، وهل هو مازال على قيد الحياة؟ فضحكتُ على سؤالها الأخير قبل أن يجيبها بيدرو قائلا: كلُّ البشر راحِلٌ؛ من الخلايا حتى النجوم، كل شيء يمضي إلى النهاية يا صغيرتي، هكذا دورة الحياة؛ نموت لنترك المكان لغيرنا، لكن رغم ذلك فالفلاسفة لا

Scanned by TapScanner

يموتون، إذ تصافحنا أرواحهم من بين السطور في كل مرة نتصفح فيها كتبهم المغبرّة بين الرفوف. تنهدت لمياء وسألتْه مجددا: -ومن أي بلد هو السهروردي؟ -السهروردي عزيزتي لمياء هو شخصية قلقة في الإسلام، ولحظة جوهرية في تاريخ الفلسفة، ولد بين سنتي 1150م و 1155م في بلاد فارس، وظل يجوب بلاد الروم والشام، إلى أن قُتل في مدينة حلب السورية وهو في سن الثالثة والثلاثين تقريبا على يد الطغاة المستبدين؛ قاتلي الفكر الحر وماقتي حرية التعبير، وأمثال هؤلاء لازالوا للأسف لم ينقرضوا بعد، وهم سبب التخلف في أوطاننا، لقد كان السهروردي يا عزيزتي ذا عبقرية فذة وكان سابقا للفيلسوف المُلاّصدرا الشيرازي ولاحقا على ابن سينا؛ شيخنا العظيم. أظهرتْ لمياء إعجابها بالفيلسوف المغترض، وسألت بيدرو إن كانت ستعثر على كتاب حكمة الإشراق في مكتبات كازابلانكا، فكان جوابه: لا أعتقد ذلك يا يمامتي، أما أنا فقد كنتُ استعرته من عند أحد الأصدقاء الذي كان يسافر مرارا إلى مدينة بيروت وكان قد نسيه عندي، إلا إنني أرجعتُ إليه كتابه إقتداءً بمبادئ الأخلاق. -أحسنتَ صنعا يا بيدرو لقد طبّقتَ مفهوم الواجب الأخلاقي عند إيمانويل كانط. علّقتُ. -وما مفهوم الواجب الأخلاقي؟ -هو الفعل الأخلاقي النابع من الذات، وغير الخاضع لأية سلطة خارجية إلزامية حسب الأستاذ كانط. أجبتُ. -كانط مجرد مخرِّف. صرّح بيدرو. -ولماذا؟ -لأنه

Scanned by TapScanner

يحاول أن يؤسس أخلاقا من دون دين، وهذا ما يستحيل صنعه؛ إذ يأمرنا بكل ثقة في النفس بأن نمتثل للواجب الأخلاقي النابع من ضمير الفرد؛ كأن نصادف مثلا هاتفا باهظ الثمن على ناصية الطريق بعدما وقع من جيب صاحبه فنسلمه إلى هذا الأخير بإرادة منا، دون الاضطرار إلى أن يجبرنا أحدهم على فعل ذلك أو يرانا أصلا، ومن ثَمّ نكون قد قمنا بفعل حسن صدر عن اقتناع شخصي، وهذا طبعا ما يقصده كانط بالواجب الأخلاقي، وهو ما أشرتَ إليه أنت قبل هُنيْهَة، ونحن نتساءل يا بني، ما الدليل على أن هذا الفعل الذي قمنا به هو فعل حسن؟ أيْ ما هو المصدر الذي استند إليه أستاذك كانط في معرفة أن هذا الفعل حسن؟ فإذا كان المصدر هو العقل فإن هذا الأخير يصدر أحيانا كثيرة أحكاما تُترجم إلى أفعال منافية للذوق العام؛ كتسويغ الحرب الهجومية التي تحيل الشوارع إلى أنهار من دم، والدفاع عنها تحت اسم الحرب المقدسة أو الحرب العادلة -كما فعلت ضدنا نحن العرب مملكة أراغون وليون، وغيرهما من الممالك النصرانية، وهو ما فعلناه نحن بدورنا في حروبنا ضد الفرس والسند ومن لفّ لفّهما من الشعوب التي لا تدين بدين الإسلام- وإذا كان المصدر هو الدين فإن الدين على هذه الأرض أديانٌ؛ واحد يأمر بحرق الميت، وآخر بتعليقه في أبراج الداخما، ودين يأمر بمقاتلة الكفار والآخر يدعو إلى المحبة، وإذا كانت الأهواء هي المصدر، فإن

Scanned by TapScanner

هذه الأخيرة تزين لبعض الشعوب أكل لحوم البشر وأخرى تحثها على تناول فاصوليا السنغال الطرية، فليذهب يا بني كانط وواجبه الخرائي هذا إلى الجحيم. -قلتَ يا بيدرو في معرض حديثك إن الأستاذ كانط يحاول تأسيس أخلاق من دون دين، وهذا يستحيل صنعه كما أشرتَ، ونحن نعلم أن اليابانيين ليس لهم دين ومع ذلك لهم أخلاق تبعث أحيانا على الدهشة. اعترضتُ. -لليابانيين دين يا غبي وهو ديانة الشينتو التي سرت مبادؤها في دمائهم منذ غابر الأزمان، عبْر أجدادهم وثقافتهم التي تشكل ذواتهم، لأن الذات ليست في نهاية المطاف منحة إلهية ثابتة، بقدر ما إن الذات تبنى عبر الخلفيات الثقافية، الدينية، الاجتماعية والسياسية.. إلخ، وإذا جردنا الذات من كل هذه الخلفيات انعدمت، كما تنعدم البصلة أثناء تجريدها من القشور، إن الذات في صيرورة دائمة، وتتغير في كل لحظة، ومن هنا وجب إعادة النظر يا بني في مفهوم الوعد، وفعل الإمضاء؛ لأن الذات التي وعدتني في الماضي ليست هي الذات نفسها التي أخلفت بوعدها في الحاضر، والذي أمضى العام الماضي ليس نفس الشخص الذي عليه اليوم. لذا فالذات متغيرة عقائديا وثقافيا وسيكولوجياً، وحتى بيولوجيا بسبب الخلايا التي تتجدد مرارا، وبناء على هذا فإن اليابانيين حتى وإن كان جلهم غير متدين فإنهم متشبعون بتعاليم ديانة الشينتو. وضح بيدرو.

Scanned by TapScanner

سكتتُ وتثاقلتْ أجفاني من شدة التعب، أما بيدرو الذي حنّكته التجارب وهذّبته المذاهب، فقد بدا صامتا كالقبر، وانصاع للنوم أخيرا. لمياء هي الأخرى لم تعد تقوَ على الحديث وطرح الأسئلة الفضولية، فتكومت عند ركن الزنزانة في محاولة لمحق الهلع الذي مازال رابضا على محياها، إذ كان التعب هو الآخر يقدح من عينيها، وسرعان ما أسدل النوم أهدابها، فبدت ظريفة أكثر من أي وقت مضى. دنوتُ منها، وأسندت رأسي على صدرها الذي بات بالنسبة إليّ أحد الطرائق الناجعة للنجاة في هذا العالم القذر، فتقوقعتُ كالطفل الصغير وعانقتُ النُّعاس، إلى أن استيقظنا جميعا بعد نوم هنيء لم يدم طويلا، إذ أيقظنا أحد رجال الشرطة صارخا في وجوهنا: -إي، استيقظوا جميعا أيها الجرذان، أحسبتم أنفسكم تنامون في فندق خمس نجوم؟ هيا انهضوا بسرعة، لقد أمر الضابط بالإفراج عنكم. ركلنا الشرطي. ولازالت لمياء تعانقني مسرورة ومخدرة في نفس الوقت بغيبوبة النعاس حتى اقتادنا الشرطي نحن الثلاثة، وأخَذَنا إلى خارج مفوضية الشرطة. -إذا أنتم عاودتم نفس الخطأ مرة أخرى فستعلمون ما الذي سيحيق بكم. صرخ الشرطي في وجوهنا، فتجاهلنا وعيده ووقفنا مندهشين جنب الرصيف؛ حيث كنا نرتجف من شدة البرد. أشعل بيدرو سيجارة وأعطاني واحدة، ثم أخذ يجول ببصره هنا وهناك، ثم تمتم قائلا وهو ينفث الدخان:

Scanned by TapScanner

إيخوس دي بوتا! إننا بعيدون جدا عن مقر سكنانا. -وأين نحن بالضبط. سألت لمياء. -نحن في الحي الحسني؛ شارع ابن سينا، وهذه المفوضية التي كنا فيها هي التي يطلقون عليها اسم الدار الحمراء، لا أعلم يا بنيتي لماذا جاؤوا بنا إلى هذا المخفر البعيد، هذا غير معقول، لقد كنت مطأطأً رأسي في سيارة الأمن ولم أدرِ أين أنا. -وأنّى لنا السبيل إذاً للذهاب إلى بيوتنا؟ سألت لمياء. -الحل هو أن نستقل التاكسي. اقترحتُ ثم أشعلتُ سيجارتي. -وهل تملك ثمن الرحلة؟ سألني بيدرو فأجبتُ بالنفي. -لديّ اقتراح. بادرت لمياء. -هيا انقذينا. غمغم بيدرو. -الحل هو أن نستقل التاكسي إلى شارع إدريس الحارثي، حيث نكون أقرب جميعا إلى بيوتنا، ونطلب جميعنا من سائق التاكسي أن يتوقف بنا عند أرضية شاسعة ستكون الآن مدفونة في غبش الظلام، وحينما نهبط من التاكسي نلوذ بالفرار، ما رأيكما؟ -إنكِ لتعلمين من أين تؤكل الكتف. قال بيدرو وتابع: لعلها فكرة شيطانية، لكنها مفيدة وقابلة للتحقق وبالتالي سنعمل بها حالا، فهيا لنلوح إذاً للتاكسي.

كان شارع ابن سينا مقفرا ومبللا بالمطر، لا بشر يدبّ ولا سيارة تمضي، باستثناء الريح التي كانت تعوي، وبعض أوراق الشجر التي كانت تتراقص على الإسفلت. -واااا كوتشووووو إني أشعر بالبرد. قالت لمياء وهي ترتعد مثل سعفة في يوم ريح عاصف. -أعلم ذلك يا لمياء

Scanned by TapScanner

حتى شفتيكِ أصبحت متشققة. -نعم أحسستُ بذلك، لكن لا بأس، فإن التين إذا حَلاَ تَشَقَّقَ. ضحكتُ من ردها، وبعد نصف ساعة تقريبا من الوقوف على الرصيف متجمدين من البرد، وقف تاكسي فحدّق السائق جيدا إلى هيئة بيدرو الغريبة ثم ابتلع الطريق بأقصى سرعة، وبعدها بحوالي عشر دقائق وقف تاكسي آخر، فركبنا هذه المرة ووصلنا إلى شارع إدريس الحارثي، وبينما يمر التاكسي من جانب أرضية شاسعة كانت غير مبلطة وشديدة الظلام، تقول لمياء للسائق: توقفْ هنا من فضلك. -حسنا. رد السائق وتوقف جنب الخلاء المظلم. -كم ثمن الرحلة؟ سألته لمياء. -سبعة وثمانون درهما. رد السائق بهدوء. -نتأسف جدا صديقي، لن ندفع لك ثمن الرحلة. سخرتْ لمياء. -لم أفهم، هل تمزحين معي؟ ابتسم السائق. —لا، إنني أتكلم بجد. ردتْ لمياء، فاستشاط السائق حنقا، فنزل من سيارته بعنف، ثم أخرج من تحت مقعده هراوة ضخمة وقال: -ادفعوا لي ثمن الرحلة يا أبناء العاهرة وإلا سأهشم وجوهكم جميعا. -سيدفع لك الله. غمغمت لمياء بنبرة ساخرة ثم نظرتْ إليَّ وصرخت قائلة: *Escapate !*، فأطلقنا أرجلنا للريح ونحن نلهث وسط الظلام بينما الكلاب تنبحُنا من بعيد. جرى السائق من خلفنا فانقضّ على بيدرو الذي تعثر في الطريق، فأمطره ضربا بالهراوة، بينما نحن الاثنين واصلنا الجري وصرنا نسمع صراخ بيدرو وهو يهمع في الظلام. وصلنا

Scanned by TapScanner

إلى المنزل في الهزع الأخير من الليل حيث فتحتْ لمياء الباب بهدوء تام، ودخلنا المنزل في صمت جنائزي مهيب. نزعتْ لمياء حذاءها وارتقت الدرج حافية القدمين، فيما فتحت أنا باب غرفتي وأشعلتُ الضوء، استلقيت على فراشي حبا في النعاس، إلا أن قطار النوم كان قد فاتني ثم مددتُ يدي نحو كتاب كان ملقيا على البِلاط ومكسوا بصوف الرطوبة الأخضر، مررتُ عليه مسحة بكفي فألفيتُ عنوانه كالتالي: *الأوبانيشاد*، ففتحتُ الكتاب من باب الفضول وأخذتُ أقرأ، إلا أنني لم أقدر على إكمال سطور هذا الكتاب العجيب في هذا الوقت من الليل، حيث نجمة الصباح تتلألأ في الأفق والنوم ما فتئ يداعب أجفاني، حتى قبَّلتُ الكتاب ووضعته في مكان عالٍ ونظيف، ثم أطفأتُ المصباح واستسلمتُ للنوم. وأثناء هذا الأخير راودني حلم مخيف؛ إذ رأيتُني واقفا في جوف الليل أمام قاضٍ في قاعة محكمة خاوية، كان القاضي بجسد إنسان ووجه بوم مخيف يرتدي مئزرا أسودا، وعلى يمينه شمعة توشك على النفاد، والريح تعبث بما تبقّى من نارها يمينا وشمالا، لم يكن ثَمّة أحد يجلس إلى جانب القاضي، ولما التفتُّ خلفي ألفيتُ مقاعد القاعة كلها فارغة وهي مُضاءة بضوء القمر المتسلل من النوافذ الفوقانية في يمين القاعة، وعلى إحدى تلك النوافذ يوجد غراب ينظر إلي خلسة من تحت الهباب الفضي، كان القاضي يجبرني بفظاظة على التكلم؛ إذ كان يصرخ وهو يضرب

Scanned by TapScanner

براحة يده على الطاولة: تكلم! تكلم! هيا تكلم أيها الأخرس! وحينما أردت تحريك شفتيّ محاولا الكلام تعالت صيحات الغراب الذي ما انفك يخفق بجناحيه في مكانه وهو يردد من عَلٍ: الصمت، الصمت، الصمت المقدس! لم أعبأ بما يردده الغراب، والتفتّ مجددا نحو القاضي فتكلمتُ، فانطفأت الشمعة بمجرد أن تكلمتُ، وطار الغراب خارج القاعة، حلق بعيدا باتجاه القمر وهو ينعب. بعد ذلك سمعتُ نداء أيقظني بإجفال. -كوتشو، كوتشو.. افتح الباب، لقد أعددتُ لك القهوة، استيقظ فإنك نمتَ أكثر من اللازم.

-9-

أبعدتُ عني الملاءة ونهضتُ بعيون نصف مفتوحة، كانت أشعة الشمس قد انسلّت من النافذة التي كانت موارية شيئا ما، فتحتُ الباب ملبيا نداء لمياء فرأيت هذه الأخيرة مثل نادلة تضوع برائحة القهوة الشهية. -صباح الخير كوتشو، لقد نمتَ أكثر من المعتاد. -كم الساعة؟ سألتها، فأجابت: -الحادية عشرة والنصف. -الوقت أمسى أسرع من الضوء، لكن في الحقيقة لم أنم ليلة البارحة، وأنتِ تعلمين كل شيء. -تفضل خذ قهوتك، لقد عرفت أنك ستستيقظ اليوم متأخرا بسبب ما جرى لنا الليلة الماضية. -شكرا لمياء. أخذتُ القهوة من يدها وتابعتُ: -ماذا عن والدتك، ألم تسأل عن سبب غيابك ليلة أمس؟ -أجل، نسيتُ، سأحكي لك أمرا عجيبا حدث ليلة البارحة، يا

Scanned by TapScanner

لحسن حظنا يا كوتشو. أبدتْ عن سرورها. -ماذا جرى يا مشاغبة؟ أخبريني. -لقد ذهبتْ ماما ليلة أمس إلى منزل ابنة عمي ندى الوداية تسألها عني، فأخبرتها هذه الأخيرة بأنني ذهبت مع صديقاتي إلى *ليلة الفلاسفة* التي نظمها المعهد الفرنسي الليلة الماضية، لم تتعمد ندى الكذب عليها، وإنما حقا صديقاتي ذهبن إلى هناك ليلتقطن صورة فوتوغرافية مع إدغار موران ضيف *ليلة الفلاسفة* البارحة. -وأين يوجد هذا المعهد الفرنسي؟ -في شارع محمد الزرقطوني. -كم أنت محظوظة أيتها المشاكسة، لقد تستر الفلاسفة على مصيبتك. فركْتُ عيني وأنا أضحك، ثم أردفت قائلا من باب الفضول: لماذا تلقبين ابنة عمك هاته بالوداية؟ -لأننا نتشابه في كل شيء إلا في كرة القدم فهي فتاة تعشق نادي الوداد البيضاوي فيما أنا رجاوية حتى النخاع، وسأظل مشجعة لفريق الرجاء البيضاوي حتى مماتي، وأضافت مشدوهة: *أوه، خودان!* أنظر كم إصبعك متورم. -للأسف أُزيحتْ عنه اللفافة حينما طوقني الشرطي بعنف. -إنه آخذ في التقيح. تفحصت لمياء إصبعي واستطردت: عندنا زجاجة بروكسيد ويود وقطن وشاش ولاصق طبي كذلك، أظنهم سيفون بالغرض، سأجلبهم الآن وأعقم إصبعك ريثما تغسل أنت وجهك وتتناول فطورك.

دخلتُ غرفتي وبيدي فنجان القهوة، كان كل شيء في غرفتي مبعثراً؛ بطّانية غير مطوية، إبريق لم يُغسل، وكأس شاي نصف مملوءة

Scanned by TapScanner

وُضِعَتْ فوق كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي منذ أسبوع. وحذاء ديكون العسكري موضوع بالقرب من وسادتي، ناهيك عن جيش عرمرم من النمل الصغير يقتات على فُتات الخبز، لم أرتب شيئا من ذلك وخرجتُ إلى الدكان فاشتريتُ خبزة فقط، لم تكن لدي رغبة في إعداد إبريق من الشاي، ففنجان قهوة من إعداد جارتي المراهقة، يكفي لمؤانسة هذه الخبزة مدة أربع وعشرين ساعة داخل جوف المعدة. وعند دخولي المنزل، ألفيتُ لمياء تنتظرني وبصحبتها الأدوية، تبدو مثل ممرضة في المستشفيات العسكرية. تفحصتْ إصبعي جيدا ثم قالت: يا إلهي إصبعك منفلح إلى شطرين! ظننته مجرد خدش بسيط كما أخبرتني، وأضافت: ويبدو أنك لم تعالجه قط. -لا يهم، فهذا الإصبع ليس لديه أدنى وظيفة، عقّميه إن استطعتِ وكفى من الإرشادات الطبية. فَعقّمتْ إصبعي على مضض ولفّته بلفافة ناعمة، وحين رفعتْ رأسها وجدتْ عينيّ مركزتين نحو فُتحة نهديها. -كما ترى لقد عقّمتُ سبّابتك جيدا، ومع ذلك فإن الأمر يحتاج إلى طبيب. - إصبعي يحتاج إلى الطبيب، والطبيب يحتاج إلى المال وليذهب الطبيب وإصبعي إلى الجحيم، لم يعد ثَمَّة شيئا يهمني. -إذاً حاول على الأقل أن تبعده عن الماء. -منذ متى أصبحتِ طبيبة؟ -منذ أن قرأتُ كتابا عن الطب. -وما عنوانه؟ -عنوانه: كيف تصبحين طبيبة في أربعة أيام. ردّتْ. –يبدو هذا كتابا مفيدا للغاية. غمغمتُ.

Scanned by TapScanner

-10-

وأنا مُنْدَسٌّ في وَهْدَةِ سريري، أحدق إلى إصبعي الذي عاد متعفنا بين عشية وضحاها، وأتساءل في دخيلة نفسي إذا ما كان الدواء الذي وضعته لمياء كفيلا بأن يعالج سبابتي. إن هذه التساؤلات مع نفسي جعلتني أتذكر نصيحة صديقي رشيد الذي اقترح عليّ أن أقتني أحد الأدوية، وهو عبارة عن حبوب مضادة للبكتيريا كما سبق أن قال لي، وهذا ما قررت فعله كيلا يتفاقم الداء ويتفشى المرض في سائر جسدي، بيد إن الإعضال يكمن هنا بالضبط؛ فأنا أحب حبيبتي مولا ومشتاق إليها، وقد وعدتها بأن أزورها هذا الأسبوع، وأنا الآن أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما أن أقتني الدواء، وإما أن أسافر إلى المدينة الحمراء، لأنه لم يتبقَّ عندي في آخر الأمر غير مائة درهم. وفي النهاية، قررت بشكل حاسم أن أشتري الدواء وأسافر إلى مراكش في الوقت نفسه؛ حيث سيكون الأوطوستوب أفضل وسيلة للسفر إلى مدائن الحب. وعليه، فقد قصدتُ أقرب صيدلية، فاشتريتُ عبوة الدواء بتسعين درهما، إذ اقترحتْ عليّ الصيدلانية أن أتناول ثلاث حبات في اليوم؛ واحدة بعد الفطور والثانية بعد الغذاء والأخرى مباشرة بعد وجبة العشاء، ومن هنا سألتُ نفسي عما هو الحل بالنسبة إلى طالب لا يتناول سوى وجبة واحدة في اليوم. عموما بقي عندي عشرة دراهم، اشتريتُ منها تعبئة بخمسة دراهم واحتفظتُ بالخمسة

Scanned by TapScanner

الأخرى كمبلغ لوجبة الغذاء المنتظرة، ثم عدت إلى غرفتي وظللتُ أعبث بهاتفي أفتش عن رقم كمال وهو صديق لديّ قديم من مدينة شيشاوة، طويل القامة كأعمدة هرقل. رغم أنه ودادي إلى حدّ الجنون، وأنا رجاوي حتى النخاع، إلاّ إننا كنا أقرب صديقين في جامعة مراكش، لكن النجاح للأسف لم يحالف كمال، فرسب حيث لازال هناك يدرس في نفس الجامعة، ويقيم في المدينة نفسها. وبما أنه صديق وفيّ لي فلاغرو سيساعدني في هذه السفرية الرومانسية باستضافته لي في محلّ إقامته، لأن أمثالي لا ينزلون بالفنادق، وقد وجدتُ رقمه وبادرتُ بالاتصال: -أهلا صديقي كمال كيف حالك؟ - ألو مرحبا، أنا بخير، من معي؟ -هذا صديقك أنير، ألستَ تذكرني؟ - أهلا، أهلا.. بلى، بلى، ومن ذا الذي لا يذكركَ يا فيلسوفنا؟ أنا في أفضل حال يا أنير لقد اشتقت إليك كثيرا وحاولتُ في العديد من الأحايين أن أتصل بك، إلا إنني أضعتُ رقمك للأسف. -لا بأس بذلك يا كمال، أنا أيضا بخير، فقط وددتُ أن أخبرك بقدومي إلى مراكش، ربما سأكون هنالك صباح الغد، من أجل أن أستلم شهادة الإجازة الأصلية، وليس عندي محلّ أنزل به. -اسمع جيدا صديقي أنير؛ أنا أقيم وحيدا في غرفةٍ هنا بحي الدَّاودِيَّاتْ، وإن شئتَ أقمتَ عندي الدهر كله، فمرحبا بك ولهي فرصة ذهبية لتشرح لي فلسفة ابن رشد فأنا لا أود أن أرسب مجددا، وأعلم أنك متأثر كثيرا بفيلسوفنا

Scanned by TapScanner

العربي الكبير هذا. -اطمئن يا كمال سأشرح لك كل صنوف الحكمة من "بوذا" العظيم في الشرق إلى "فرانسيسكو ميرو كيسادا" في المكسيك الحبيبة. فالمصالح المتبادلة هي التي تؤبد الصداقة وإلا لِم نحن أصدقاء أصلا. -أشكرك كثيرا يا أنير، واتصلْ بي حالما تصل إلى مراكش. -حسنا سأفعل. -وداعا أنير. -حظ موفق كمال.

كانت الساعة تشير إلى الثانية وثلاث وعشرين دقيقة بعد الزوال، إذ أخذت حقيبتي ذات الجيوب المتعددة التي يلتقي فيها اللون الأسود بالأحمر، فوضبتُ فيها أفضل قمصاني المحددة، ومعطفا احتياطيا، وقنينة عطر *لوكازيت* الرخيصة، وآلة الحلاقة، وعبوة الدواء، وأخيرا كتاب رحلة في أقاصي الليل لـ "لويس فرديناند سيلين. وبعدما جمعتُ كل أغراضي الأساسية ارتديت الجاكيت الأسود الذي كان معلقا في مسمار على الحائط، وبنطال الجينز الأسود، ووضعت كذلك ساعتي اليدوية في معصمي، ثم احتذيتُ حذائي المفضل وهو حذاء عسكري من نوع *ديكون* ذو اللون الأسود اللّمّاع. وحملتُ الحقيبة على ظهري وأغلقتُ الباب بهدوء آملا ألا تراني لمياء، فتقصفني بأسئلتها الفضولية أو قد تمنعني من رحلتي وأنا لا أشك في ذلك، وذهبت أغذُّ السير بلباسي الأسود نحو الطريق المؤدية إلى المدينة الحمراء والتي أجهل اتجاهها أصلا، الأمر الذي دفع بي إلى الذهاب مباشرة عند أحد بائع المأكولات الخفيفة في الحي لأسأله: -أهلا سيدي، أريد أن

Scanned by TapScanner

أسـألك لـو سـمحتَ. -مرحبـا تفضـل. -مـن أيـن أسـلك إلى الطريـق المؤديـة إلى مراكش من فضلك، وهل هي قريبـة من هنـا؟ -إنهـا بعيـدة جـدا يـا أخي. أكـد البـائع وهـو منحنٍ يمسـح عربتـه بمنـديل. -وأنّى لي السـبيل إلى وصـولها إذاً؟ -الحـل يـا أخي هـو أن تـذهب إلى الجهـة الخلفية للكلية حيث يوجد شارع عبد القادر الصحراوي، هناك على اليمين يوجد موقف الباص، قف ثَمَّ وانتظر قدوم الباص رقم 107 إنه يؤدي إلى الطريق السيار بخمسة دراهم فقط. أفاد بائع المأكولات. -شكرا جزيلا سيدي على المعلومات. -العفو أخي.

اكتنفتني غبطـة عارمـة لأنني احتفظتُ بالخمسـة دراهـم، وتوجهـتُ حيثُ أرشـدني بائع المأكولات، وبعد لحظاتٍ قدِم الباص، إذ لم يكن مكتظا كالمعتـاد، فصـعدتُ مـن البـاب الأمـامي وأخـذتُ تـذكرتي، ثـم هويـت في مقعـد بجنـب النوافـذ. غـرزتُ سـمّاعات الهـاتف في أذنـي وطفقت أستمع لأغنية *إيريس مِيًّا* لِـ "روميو سانطوس" الهادئة، وأنا أستمتع بمشاهدة بياض كازابلانكا من خلف الزجاج!

-11-

نزلتُ في موقف الباص الأخير، القريب من الطريق السيار المؤدي إلى المدينة الحمراء، وترجلت بضعة أمتار ثم توقفت على يمين الطريق أشير بإصبعي إلى السيارات المارّة، دون أن تتوقف أي واحدة منهن، حتى تعبتْ يدي اليمنى من كثرة ما لوّحتُ، وسرى العياء في سائر

Scanned by TapScanner

جسدي من جراء الوقوف، استرحتُ قليلا على الرصيف، ثم عاودت الكرة من جديد دون جدوى، ومضيتُ أشير بإصبعي ما يزيد عن الساعتين، حتى عِيلَ صبري وفكرت في الاستسلام، نظرتُ إلى ساعتي فوجدتها السادسة والنصف مساء، ثم رفعت رأسي إلى السماء فرأيت شمس الأصيل ذات اللون الأرجواني وقد حولت غمام البحر إلى جمر يتوهج في الأفق. وما إن ابتلع الليل نور الشمس وطغى الظلام على سماء المدينة، حتى توقفت بمحاذاتي سيارة هامر إيتش وان في لونها الأصفر وعجلاتها الضخمة، لاحظتُ أنها تتكون من مقصورة داخلية تتضمن مقعدان أماميان وثلاثة مقاعد خلفية، وفي الخلف صندوق أمتعة غير مغطى. حدقت في السيارة بفضول فبدا لي رجل أربعيني يقود السيارة وبجواره زوجته الشقراء وثلاثة أطفال يقبعون في الخلف. -مرحبا أين تريد؟ قالت السيدة التي كانت على اليمين بلغة انجليزية. -مراكش لو تفضلتم. أجبت بنفس اللغة. - نتأسف سيدي فنحن مسافرون إلى مدينة ابن جرير لزيارة أصدقائنا هنالك. طمطم السائق بانجليزية ركيكة وأضاف: لكنه يُستحسن أن تصبر وتصعد إلى سيارتنا خير لك من أن تبقى طوال الليل هنا في البرد القارص، فلا أعتقد أن أحدا سينقلك بالنهار فما بالك بهذا الليل الحالك. -أشكركما كثيرا على لطفكما، سأذهب معكم إلى

Scanned by TapScanner

مدينة ابن جرير فآنذاك لن يتبقى إلى مدينة مراكش سوى أربعين كيلومترا تقريبا.

ألقى السائق نظرة إلى خلف السيارة وقال: للأسف كما تلاحظ لا يوجد حتى نصف مكان لتجلس فيه، فأطفالي كما ترى سِمان كالأبقار الهولندية. قال ذلك ضاحكا وتابع: لكن عندي لك حل، اتبعني. فنزل من مقعده فتبعته إلى مؤخرة السيارة. -أُنظر، ستصبر وتصعد إلى صندوق الأمتعة هذا، شريطة أن تتمسك جيدا فالريح قوية جدا وحاول ألا تجلس القرفصاء فثمة ماء سيبلل ثيابك. وفي الوقت الذي نزل فيه أطفاله كي يستنشقوا هواء الليل ويتبولوا في الظلام، اغتنمتُ أنا فرصة طرح الأسئلة الفضولية. -هل أنتم انجليز؟ -لا يا عزيزي نحن قدمنا من دولة إسرائيل، وبالمناسبة أنا إسرائيلي يهودي ذو أصول مغربية واسمي حاييم بن سودة، وهذه زوجتي أغاثا من أيرلندا. بشبشَ حاييم. -وهل أتيتم إلى هنا من أجل الاستمتاع بشمس المغرب الدافئة؟ -لا يا عزيزي فإسرائيل هي أرض الشمس المشرقة، وإنما جئنا لزيارة بعض الأصدقاء في مدينة ابن جرير، وبعد يومين سنتجه صوب مدينة ميدلت للاحتفال بموسم الهيلولة في ضريح الولي إسحاق أبو حصيرة. -آه حسنا، مرحبا بكم في بلدكم الثاني. قلت مبتسما ثم صعدتُ إلى عقب سيارة الهامر الضخمة بكل فخر واعتزاز، وتمسكت جيدا كيلا أهوي إلى الأرض

Scanned by TapScanner

فأتشظّى كقنينة مربى، كنت أبدو كراكب الأسد الذي يُخيف من رآه وهو أشد خوفا، وهكذا شغَلتُ حيّزا في مؤخرة السيارة قبل أن تشد طريقها مسرعة. حاولت ألاّ أجلس على صفيح السيارة المبلل بالماء وركزت أنظاري نحو كازابلانكا التي أحببتها من أعماق قلبي، بل كانت هي أفضل مدينة بالنسبة إليّ في المغرب برمته، لقد عشقتْها روحي وعشقتْ أهلها الطيبين، لست أدري ما آيُ ذلك، هل هو بياض مبانيها أم زرقة بحرها، لكن السبب الذي يبدو لي وجيها هو أن أهلها يكنون للطالب الجامعي والمثقف، وكل ما له صلة بالكتاب، بالغ الاحترام والتقدير، وقد شاهدت ذلك بأم عيني غير ذي مرة، كما أنهم يرشدون التائه ويساعدون العاجز. لقد كانت كازابلانكا على مر السنين بوابة مشرعة على مصراعيها في وجه كل مغربي، وصدرا رحبا لكل من يبحث عن لقمة عيش، إنها الأم الحنون التي أرضعت أبناءها، وأبناء القادمين من المناطق النائية في الصحاري والقرى، ومن أعالي الجبال. نظرتُ إلى كازابلانكا نظرة جريحة وهي تذوب في لحاف الليل، وكأنني سأتخلى عنها إلى الأبد، ربما سأتخلى عنها الآن، وسيكون ذلك بمثابة التخلي الأعظم، لأن مستقبلي، وبعد أن أفنيت عمري في الدراسة، بات غارقا في الظلام، والطريق نحوه مفروش بالأشواك والقذارة، لم أعد أعرف مصيري ولا أي شيء آخر، وأعرف أن ما أجهله في مستقبلي الغامض هو الشيء الذي أعرفه جيدا. بكل

Scanned by TapScanner

صـدق؛ أنـا خـائف مـن مسـتقبلي، خـائف ممـا تخبئـه لي الـطبيعـة وقوانينها القاسية، ودعتُ كازابلانكا من باب الاحتياط، وأخفيت ما راكمتُ من الذكريات، ومضيتُ أُواري خيبتي وانكساريَ العظيم. لقد كانـت السـماء مدججـة بـالنجوم، بينمـا الـريح الصرصـر العاتيـة تصفعني من حين لآخر، وبقوة حتى أمسيت أرى طيف حبيبتي مولا وهو يراقصني تحت هذه السماء؛ حيث النجوم لوامع في فحمة الليل. لـم أكترث لقساوة الرحلـة، بقـدر مـا كان شـاغلي الأكبر هـو أن أرى حبيبتي مولا، وأدعوها أن تضع يدها على روحي وتتحسس ما تبقى مني، فهي دوائي في هذا الوجود المريض الذي غدا عديم المعنى. لم أكن هذه المرة كسفينة بلا دفة تبحر في بحر بلا مرسى، بل كان لي هدفا وهو أن أبصر وجه حبيبتي المشرق كالشعاع تحت السحاب، إن وجـه حبيبتي هـو وجعي، وهـو سـبب مشـاكلي العظمى، ومعـاركي الطاحنة، إني أحتاج وجهها لأغيظ به المدى، إني أحبها، ولو كنتُ نبيا لاتخذتها معجزتي، بيد إنه لا يمكنني فعل ذلك حتى ولو كنت نبيا، ليس لأن زمن المعجزات ولّى، ولكن لأنني أحببتُها في البلد الخطأ.

كان سائق السيارة وزوجه بمعية أطفالهما الصغار يطفحون فرحا، إذ أخذوا جميعهم يرددون أغاني عذبة اللحن باللغة العبرية بأعلى أصواتهم، مشرعين نوافذ السيارة ومستمتعين بنسائم الليل البارد، لقد كانوا يغنون عن المحبة والسلام. وفي لحظة معينة، توقف الغناء

Scanned by TapScanner

وخمد الصوت الجميل، إذ عمّ الهدوء وبرز قرص القمر من ناحية الشرق كبيرا وأحمر كالجمر، غير أن الذراري الصغار حطموا حاجز الصمت، وسرعان ما أخذوا يلهجون بأغنية إنجليزية بصوت رقيق وشجي. وأخيرا وصلنا إلى مدينة ابن جرير في حوالي منتصف الليل، إذ توقفت بي السيارة عند نافورة كبيرة مزينة بمصابيح، فنزلت وشكرت لهم كرمهم ولطفهم الإنساني. وقبل أن أودعهم، أعطتني أغاثا كيسا بلاستيكيا وقارورة ماء صغيرة، ومن ثَم تودعنا ومضت الهامر صوب وجهتها. أخذت الكيس وجلست تحت شجرة أوكاليبتوس ضخمة في الرصيف أفتش عما بداخله، كان ثمة لحسن حظي نصف دجاجة مشوية وخبز، وأكياس صغيرة لصلصة الطماطم علاوة على الرز، تناولت كل ما في الكيس بِشَرَهٍ شديد، ثم فتحت حقيبتي فتناولت حبة من الدواء أتبعتها بشربة من الماء المعدني، وجلست هنالك تحت الشجرة بضع لحظات، يا له من كرم يهودي! قلت في نفسي.

كان ثمة بردا قارصا وريحاً قوية تعبث ببعض الأكياس البلاستيكية في الشارع المقفر، وما هي إلا لحظات حتى مر من أمامي رجل يرتدي جلبابا بنيا من الصوف. أوعزتُ إليه بالتوقف بغية أن أسأله عن الطريق المفضي إلى مدينة مراكش، إلاّ إنه أبى أن يستجيب لندائي، بل إنه لم يلتفت إليّ أصلا. طفقتُ أنظر إليه طويلا وهو يَعْتَرِطُ وحيدا في الشارع ناكسا رأسه ومقحما يده اليمنى في جيبه، يغذ السير بهدوء

Scanned by TapScanner

حتى تلاشى بعيدا في الأضواء الخافتة، فيما هزيز الرياح يكسر صمت الليل. وبعد ساعة تقريبا مر رجل آخر عجوز يدفع عربته اليدوية، يظهر أنه بائع فشار رائح إلى منزله مطأطئ الرأس، خائر القوى. -أيا رجل! أريد أن أسألك لو سمحت. فردّ بصوت مشروخ: -مرحبا بني تفضل. -أريد الطريق المؤدي إلى مراكش، من أين أسلك إليه؟ -هل تريد أن تسافر إلى مراكش مشيا على الأقدام أم ماذا؟ ضحك الرجل. -كلا سيدي، ثَمة شاحنة تنتظرني عند مخرج المدينة في الطريق المؤدي إلى مدينة مراكش، ولا أعرف من أين أسير إلى هنالك. كذبتُ. -اسمع جيدا، ستنعطف يمينا عبر هذا الطريق حيث أشير لك، وستطرقه حتى تجد بعض محلات الجزارة ومحطة الوقود، فذاك هو الطريق المفضي إلى مدينة مراكش. فشكرتُ له ثم حملت حقيبتي على ظهري، ولازلت أمشي ثقيل الخطى باتجاه المكان الذي أدلني عليه الرجل، حتى إذا وصلت شرعت ألوح من جديد للسيارات والشاحنات الثقيلة اللائي نادرا ما يمضين، حيث وقفتُ ساعة ألوح بيدي دون أن يتوقف أحد ما، حتى كدت أتجمد من شدة الزمهرير. وبعد أن غلبني البرد، ذهبتُ خلف محطة الوقود فنمت هنالك عند الجدار، حيث توسدتُ حقيبتي وتقوقعت كالحلزون، وبعد هنيهة فتك بي النوم. وبينما أنا نائم دخلتْ نملة صغيرة أذني اليسرى، حتى أوشكتْ أن تخرم طبلة أذني، فاستيقظتُ بإجفال وحاولت إخراجها لكنني لم

Scanned by TapScanner

أقـدر على ذلـك، أحسسـتُ بـألم حـاد جـدا في أذنـي، ولازلـتُ أصـرخ كالمجنون دون أن ينتبه أحد لصراخي. كان الحل الوحيد لدي للقضاء على النملـة الحقيرة، هـو أن أذهـب إلى مـراحيض محطـة الوقـود وأعرض أذني لماء الصنبور البارد، وهذا ما فعلته دون أدنى تردد، إذ بمجـرد أن دخـل المـاء أذنـي حتى خفـف عني الألـم وتوقفـت النملـة القميئـة عـن الحفـر، ممـا يعني أنهـا غرقـت في دوامـة مـن المـاء البـارد. كانـت السـاعة آنئـذ تشـير إلى الثالثـة والنصـف بعـد منتصـف الليـل، وكانــت المــراحيض دافئــة مثــل الكــانون، ونظيفــة تضــوع برائحــة الخزامـى. أغرانـي دفؤهـا في ذلـك الهـزع الأخيـر مـن الليـل ذو الـريح الزمهريـر، فـآثرتُ أن أمكـث هنالـك في أحـد المـراحيض فـأتكوم إلى أن ينبجس الفجر، بدل أن يهرأ البرد جسـدي النحيـف. هجعتُ هنالك في دورة الميـاه حتى أيقظتني بلجـة الشـروق المتسـللة مـن الطاقـة العلويـة للمرحـاض، ثـم حملـت حقيبتي وخرجـت لأرى الشــمس اللازورديــة تتراقص فـوق التلال الخضـراء البعيـدة، والجـزارون في الجهـة المقابلـة يستعدون لفتح محلاتهم، ويتهيؤون لاستقبال أول سرب من الذباب، إلا إن أشعة الشمس البراقة لم تعمر طويلا، فاتشحت السماء فجأة بملاءة مـن السـحاب الـداكن واسـتعدت للإمطـار، وسـرعان مـا هطـل المطر فردم نور الصباح بحلكة كثيفة. قاومت المطر وعبرت إلى الجهة المقابلـة مـن الطريـق، ثـم وقفـت ألـوّح ثانيـة للسـيارات، وهـذه المـرة

Scanned by TapScanner

توقفت شاحنة ثقيلة من نوع *ضاف* من أول إشارة فصعدتُ، فسألني السائق من أين أقبلتُ وإلى أين أنا متجه، فأجبته على سؤاله بالتفصيل. كما أخبرته بأن الغرض من سفري هو استلام شهادة الإجازة، فأشفق على حالي وأصدر آهة عميقة، ثم أخذ يحكي لي عن ابنته الكسولة التي تدرس القانون في جامعة سطَّات منذ خمس سنوات، ولازالت لم تنل بعدُ شهادة الإجازة التي أحرزتُها أنا في غضون ثلاث سنوات فقط، وبعد ساعة تقريبا وصلنا إلى المدينة الحمراء.

أثناء تأهبي للنزول من الشاحنة وتوديع صاحبها؛ قدم لي هذا الأخير مائتي درهم شفقة منه عليّ، غير إنني رفضتُ أخذها منه بكل عزة نفس. فحتّامَ سيبقى الغير يشفق عليّ؟ ألهذه الدرجة أنا مثير للشفقة؟ فلطالما أشفق عليّ الآخرون، لا، لن أرضى لنفسي أن أكون شحاذا، متسولا وكثير الشكوى والبكاء مثل أرامل الحروب، كما إنني لم أكن كذلك، لقد كانت مرحلة ومضت، مرحلة كنت فيها طالبا عاطلا، طالب حرموه من المنحة الجامعية، وقبول أخذ العطية في مثل هذه الظروف من الممكن أن يكون مسموحا به، أما الآن وقد وجدت عملا مع رشيد طيلة أيام فراغي فلن أسمح لأحدهم أن يشفق عليّ وسأرجع كل الديون التي على كاهلي رغم صغر قيمتها لأصحابها، فسحقا لأخلاق العبيد والضعفاء، وللظروف التي ترسخ هذه الأخلاق الدنيئة، مع العلم أن الدول اللاديمقراطية وبمساعدة من تجار

Scanned by TapScanner

الدين، هم من يرسخون مثل هذه الأخلاق القبيحة في المجتمع عن طريق منح بعض المساعدات المخجلة التي هي في الأصل حق من حقوق هؤلاء المحتاجين الذين لا يستفيدون من خيرات وطنهم، وأيضا عبر ترسيخ مفهوم الصبر والتوكل على قوى خفية في عقول النشء من قبل تجار الدين، وذلك حتى يكونوا عبيدا للظالمين. لقد أكدتُ لسائق الشاحنة أن والدي قبل وفاته أوصاني بألاّ آخذ درهما باردا من دون أنْ يعرق لي فيه جبين، ومع ذلك طلب مني أن أصعد إلى عربة الشاحنة فأعدل المشمع الذي بعثرته الريح العاتية، حتى يتسنى لي تغطية شحنة أكياس الإسمنت وحمايتها من المطر، وذلك كيلا يحنث بقَسَمه. وقد فعلت ذلك بشق الأنفس نظرا إلى ثقل المشمع المبلل، وأخذت المائتا درهم وانصرفت راضيا مرضيا على الرغم من أن في هذه المائتي درهم شيء من الشفقة اللعينة.

-12-

توقفت زخات المطر عن الهطول شيئا ما فذهبتُ أرومُ إحدى المطاعم حيث تناولت وجبة الفطور، المكونة من كأس من الرائب الطبيعي وقطعة بِسكويت ذيّلتها بشرب الدواء المضاد للبكتيريا. وبعدها أشعلتُ سيجارة وعرجت نحو حي الداوديات حيث يقيم صديقي كمال، وغِبَّ وصولي إلى هنالك حاولت أن أتصل به لأعْلمه بوصولي، إلا أن هاتفه كان غير مشغل، حاولت الاتصال مرارا ولا

Scanned by TapScanner

جواب. بعد ذالك سرت مباشرة وحقيبتي على ظهري إلى مقهى المُدرِّس في شارع علال الفاسي، كان مقهى جميلا يصاقبه فضاء للألعاب مرصع بالأصفر والأحمر، وفيه الذراري يلعبون، بينما المطر يهطل مرة ويتوقف أخرى. كان المقهى من الداخل أكثر جاذبية، نظيفا ودافئا، حيث لا يوجد فيه سوى رجل وفتاة يجلسان إلى طاولة ويتحدثان بخفوت، وفي الجهة الأخرى على اليمين يجلس مجموعة من الطلبة يراجعون مادتي الديداكتيك والبيداغوجيا بأعلى أصواتهم، نظرت إليهم نظرة انكسار وقلت في نفسي: أمثالكم لا يحالفهم الحظ في هذه الحفرة من الجحيم، لأنكم حتى وإن أصبحتم معلمين فستجدون الهراوة بانتظاركم.

هويت في مقعد في المقهى بعدما جلت بناظريّ هنا وهناك، كانت مقاعد المقهى ناعمة ومغلفة بجلد رفيع بني اللون. أتى النادل يبتسم من بعيد، فطلبت قهوة سوداء داكنة فأتاني بها بُعيْد لحظات مرفوقة بوريقة كتب عليها *سبعة دراهم*، مع الرقم السري لصبيب الواي فاي، فتساءلت في فكري كيف للطالب أن يضع مؤخرته على مثل هذه المقاعد بسبعة دراهم فقط، يا له من حب للطالب عظيم!

رفعت رأسي إلى جدران المقهى فكانت جميلة هي الأخرى ومزدانة بلوحات فنية؛ واحدة عبارة عن مراهقة عارية بشكل كلي تنظر إلى مرآة وهي للرسام السويسري بالتوس بعنوان عارية أمام المرآة،

Scanned by TapScanner

والأخرى للرسام الإسباني بيردل بوريل بعنوان الخروج من الإطار وتجسد لمراهق يبدو من خلال نظراته أنه شخص متمرد، ويمد عنقه في محاولة للخروج من إطار أشبه بالنافذة، ولوحة شهيرة للرسام الهولندي يوهانس فيرمير بعنوان الفتاة ذات القرط اللؤلؤي، ثم اللوحة الأخيرة لـ برينييه بعنوان حقول في الشتاء. وقبل أن أرشف من كوب القهوة تذكرت بأنني لم أغسل وجهي بعدُ، فقصدت مباشرة حمام المقهى، وأنا أغسل وجهي بدا لي هذا الأخير في المرآة مدججا بلحية مجعدة ومتفرقة، وشعري هو الآخر أمسى أشعثا لا يتلاءم مع لقاء رومانسي، فغسلت وجهي على عجل وأوصيت النادل أن ينتبه إلى حقيبتي ريثما أعود. ومن ثم دلفت نحو أقرب حلاق فحلقت شعري ولحيتي، حتى بدوت مثل كريستيانو رونالدو في بداياته، وبكل إعجاب بالنفس اتصلت بحبيبتي مولا. -صباح الخير حبيبتي، أمازلتِ نائمة؟ - صباح الورد حياتي كيف حالك؟ اشتقتُ إليك كثيرا، لقد استيقظت منذ ساعة تقريبا. -حسنا حبيبتي، أردت أن أخبرك بأني في مراكش الآن. -يا إلهي! أحقا أنت في مراكش أم تمزح معي؟ لا أكاد أصدق. -إني أتكلم بجد حبيبتي. -أينكَ بالضبط؟ -ستجدينني في مقهى المُدَرِّس، هل تعرفين المكان؟ - نعم أعرف، إذاً انتظرني هناك سألتحف ملحفتي وآتي. -أنا في انتظارك. -حسنا حبيبي، لن أتجاوز نصف ساعة. ثم أقحمتُ هاتفي في جيبي وقصدتُ مباشرة بائع الورود

Scanned by TapScanner

فباعني وردة حمراء زكية العطر، وعدت إلى المقهى أنتظر حبيبتي مولا على أحر من جمر الغضا.

اتصلتْ بي مولا فأخبرتني بأن أخرج عند بوابة المقهى حيث تقف هناك، فوضعت الوردة في الحقيبة وأخذتُ بسرعة عطر *اللوكازيت*؛ رششتُ به جسدي وأعدته إلى الحقيبة وأغلقتها ثم خرجتُ إليها. كانت واقفة قبالة المقهى، ولما رأيتها جريت نحوها فعانقتها عناقا حارا وضغطت على يدها وابتسمتُ في عينيها. كانت تلتحف ملحفة صفراء مرصعة بخطوط بنفسجية ونقاط وردية، ويداها منقوشتان بفسيفساء من الحناء. أما معصمها الأيسر فمزين بأربعة دماليج ذهبية، كما كانت تحمل حقيبة يدوية صفراء وحذاء ذو الكعب العالي بلون وردي. أما شفتيها فيظهران وكأنهما بلون بُنِّي داكن. – آه، *كراخو* لقد أصبحتَ نحيفا. استغربتْ. -وأنتِ ازددتِ جمالا حبيبتي. -ليس كثيرا. قالت مبتسمة وهي تمسح دموع الفرحة وتضغط على يدي. -ألم تعد ترتدي نظّارة؟ -لا، لقد نسيتها في كازابلانكا للأسف. كذبتُ وأنا أضحك. -وهل ترى جيدا بدونها؟ -باستثناء الأشياء البعيدة. -حسنا لا بأس في ذلك. -هيا تفضلي أنا أجلس في الداخل. -ما بال هذا الإصبع؟ -لا تهتمي يا مولا، مجرد جرح بسيط بسكين الخضر. كذبتُ مرة أخرى. -آه حسنا.

Scanned by TapScanner

جلسنا معا إلى الطاولة وعرضت عليها أن تشرب شيئا فآثرت كوباً من الحليب الساخن، وفي تلك اللحظة أخرجت الوردة الحمراء من حقيبتي وأهديتها إياها حتى تضرج وجهها حياء، وغطت محياها بكفيها. -لا تخجلي حبيبتي فأنت تستحقين أكثر من وردة. ربتتُ على كتفها بحنان. -أحبك كثيرا حبيبي. قبلتْ يدي وهي تنظر في عيني. -وأنا أيضا مولا. -أتمنى أن لا يحرمني الله منك لحظة. وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث حول حيواتنا ونعبر لبعضنا عن مكنونات مشاعرنا رنّ هاتفي فجأة، لقد كان صديقي كمال هو من يتصل. -أهلا كمال لقد... -أعتذر صديقي أنير آسف جدا. قاطعني وتابع: لقد كنت نائما ونسيت أن أشحن هاتفي، أعلم أنك اتصلت بي مرات عديدة، فبإمكانك أن تأتي إذاً، أنا في غرفتي أعد الغذاء وحبا فيك سأطبخ هذا اليوم طنجرة من الفاصوليا البيضاء فهي سلاح فعّال لمحاربة برد الشتاء القارص. ضحك كمال. -أشكرك على كرمك صديقي كمال، أنا الآن في المقهى وسآتي بعد ساعة تقريبا. -حسنا، حاول ألا تتأخر. انقطع الخط ووضعت الهاتف على الطاولة. -مولا أتذكرين أول لقاء لنا؟ -بالطبع حبيبي، كان في تلك الليلة المطيرة. -تملكين ذاكرة قوية مثل أئمة المساجد. ضحكتُ. -لازلتُ أتذكر كل تفاصيل تلك الليلة، حيث التقينا في دار الثقافة أثناء انعقاد ندوة هناك، كانت على ما أذكر عبارة عن قراءة في كتاب لهيب الماء الذي ألفه أحد

Scanned by TapScanner

أساتذتنا، أليس كذلك؟ رشفتْ من كوبها. -كذلك هو يا مولا، وكنتُ أدرس في الفصل السادس فيما أنتِ تدرسين بالفصل الرابع، وقد طرحتُ أنا أثناء الندوة سؤالا طويلا استعصى على ذلك المتلعثم أن يجيب عليه، أتذكرين؟ -نعم لازلتُ أذكر كل شيء، كانت مداخلتك عميقة جدا، حتى لا أخفيك الحقيقة فإني أُعجبتُ كثيرا في تلك الليلة بأسلوبك الجميل ولغتك الفصيحة. -أحقا؟ -أكيد، لقد اتخذتُ المنطق ذريعة تلك الليلة حينما طلبتُ منك رقم هاتفك، وقلتُ لك إني كسولة في مادة المنطق وأنت من سيشرح لي دروس هذه المادة ويخلِّصني من هذا الإعضال، في الواقع يا أنير لم يكن ذلك هو شاغلي، بقدر ما كان غرضي هو التعرف على شخصيتك الغامضة والعميقة. لقد ظهرتَ أول مرة أراك فيها مثل رجل مثالي، كفيلسوف أو كروائي مرموق، وكنت كعادتك أنيقا وكثير الصمت، منعزلا لا تتحدث إلى الناس؛ بل إنني لم أرك قط تتحدث مع فتاة وقد أعجبتني فيك هذه الخصلة كثيرا، يجب أنْ تعْلم يا أنير أنني لم أكن أنتبه حينما كنتَ تساعدني في مراجعة دروس منطق القضايا في الحدائق، لم تكن عيني منصبة على الدروس وإنما كانت مركزة على عينيك، لقد بلغ حبك يا أنير شغاف قلبي ولا زال حبي لك يتضاعف درجات. ضغطت على يدي اليسرى بشدة وابتسمتْ في عيني. -أنا مثلك يا مولا أحبك كثيرا وأتمنى أن تغفري لي كل أخطائي إذا كنتُ أسأتُ إليكِ. -لا

Scanned by TapScanner

يا حبيبي، أنت لم تسئ إليّ، بل أنا من أسأتُ إليك، أعتذر مرة أخرى حبيبي. -كفى اعتذارا مولا، ربّتْتُ على كتفها واستطردتُ: حبيبتي ما رأيكِ أن نتمشى قليلا تحت هذا الجو الرومانسي، فمنذ مدة لم أتجول في هذه المدينة. -بالتأكيد حبيبي ولِمَ لا؟ كنتُ أيضا سأقترح عليك نفس الفكرة لكن خشيتُ أن تكون متعبا من شدة السفر.

ازدردتُ كأس الماء التي قدمها لي النادل ودفعتُ ثمن المشروبين، ثم حملتُ حقيبتي وخرجنا مشبكين الأنامل نمشي بخطى وئيدة على رصيف شارع علال الفاسي، وقد كانت على جانب الشارع حدائق غَنّاء وبرك ماء صافي خلّفها هطول المطر. وصلنا إلى نهاية الشارع حيث يوجد *متجر مرجان* تحت سفح جبل صغير، وقررنا أن نصعد إلى قمة هذا الأخير، ففعلنا رغم المشقة التي عانتها مولا خلال الصعود، وأثناء جلوسنا في القمة كنا نرى مدينة مراكش عبر منظر بانورامي وننظر إلى الجبال الشاهقة التي تجاور المدينة، مستمتعين بهواء الشتاء المنعش، كل شيء هادئ وجميل، والشمس تطل خلسة من خلف الغيوم الرمادية وتختفي مُخلِّفةً وهجا براقا على المدينة الحمراء. أشعلتُ سيجارة وقلت لمولا: أُنظري هناك، إلى تلك الجبال البعيدة حيث يجثو الضباب فوق الصخور، تلك الجبال الشوامخ يا حبيبتي هي التي تفصل بين إقليم ورزازات ومدينة مراكش، هناك تقطن أمي يا مولا في بيت بسيط وهادئ كالغابات المطيرة، السقف

Scanned by TapScanner

متـداعٍ وخيـوط الوحـل تنسـاب على الجـدران كـدموع الأطفـال. – أصحيح؟ يا إلهي. تساءلتْ في استغراب ثم نفثتُ سحابة من دخان السيجارة وقلتُ ناظرا إلى عينيها: أعلم يا مولا أن عيونك الجميلة لم ترَ من قبل بيتا في قمم الجبال، بقدر ما كانت تلمح صُفرة الرمال وزرقة المحيط الأطلسي، أما عيوني أنا فلم تلمح سوى غبش الضباب وسواد الغربان وهي تحلق في الأعالي. ثم رميتُ بعقب السيجارة. -لقد عانيتَ كثيرا يا حبيبي. -وصبرتُ كثيرا. -أنت رجل مثالي. أسندتْ رأسها على كتفي الأيسر. -ليس ثمة رجلا مثاليا على هذه الأرض اللعينة يا مولا، الشفاه التي نراها تبتسم هي نفسها التي تنفث سمًّا كالثعابين، لذا وجب أن نعرف مع من نحن نتعامل ونكون أكثر حذَرا. – أصبتَ يا أنير، لكنك لستَ من هؤلاء المثاليين المخاتلين، أنت مختلف عنهم، ودود وطيب، أنا أعرفك جيدا لذا أحببتكَ. كانت تقول ببراءة وهي تتأمل المدينة الحمراء تحت أجواء المطر.

لعل مولا فتاة ناضج عقلها، لم تكن مثل لمياء المراهقة التي لَجَّ بها التفيُّشُ والإدلال، كانت تحدثني عن إشكالات فلسفية من قبيل منطق الاعتقاد والمنطق الغائم، وعن نظرية الفوضى. مولا فتاة جميلة أيضا، وقد كان جمالها معيونا لعيني وحبها معلوما لقلبي، وأنا بدوري أحبها كثيرا وهي عندي أعذب من الماء وأصفى من الهواء. - حبيبي أراك حزينا تفكر في شيء ما، هل ثَمّة شيئا تخفيه عني؟ -هكذا

Scanned by TapScanner

أنا يا حبيبتي، حزين منذ بدء الخليقة، وسأظل حزينا حتى أحصل على وظيفة وأعيش كمواطن مغربي. -لا تفكر كثيرا في المستقبل كيلا تصاب بالاكتئاب، وعِشْ حاضرك، وامنح الوقت الكافي لدراسة الماستر حتى تنجح. شدّتْ ملحفتها بسبب هبّة ريح. -الماستر؟ تبا للماستر في هذا الوطن! إنه معاناة وعذاب أليم يا مولا، لقد سئمتُ من انتظار المنحة الدراسية حتى فكرت في شنق نفسي، لقد أصبحت مثيرا للشفقة بسبب ذلك. -مؤسف حقا، لكن والحق يقال يظهر لي أنك تهدر الوقت فقط في ذلك الماستر من دون فائدة والعمر يمضي سريعا. -وما الحل يا حبيبتي؟ أشعلت سيجارة أخرى. -الحل يا حبيبي هو أن تتخلى عن هذا الماستر الفارغ وتبحث عن وظيفة مُدرّة للدخل، تقيكَ وتقي أسرتك الصغيرة جحيم الزمان. -وظيفة؟ أيُّ وظيفة مثلا؟ -وظيفة التدريس، أقصد أنْ تترشح لمباراة التعليم المزمع إجراؤها في السادس عشر من كانون الأول/ديسمبر، أوَلم يكن حلمك من قبلُ أن تصبح أستاذا لمادة الفلسفة؟ -بلى يا مولا.-أَتَذْكُرُ عندما قلتَ لي إنك ستتزوجني ما إنْ تصبح أستاذا؟ -لا زلتُ أذكر ذلك. -أنا متأكدة يا حبيبي أنّ أحلامنا ستتحقق. -في أيّ شهر قلتِ ستُنظَّم المباراة؟ -في كانون الأول/ديسمبر. -يعني الشهر المقبل؟ -أكيد. -يا إلهي! لم يتبقّ الكثير. -عشرة أيام من المراجعة تكفي. -وماذا عن ملابسي وأثاثي وكتبي التي تركتها في كازابلانكا؟ -تخلَّ عن كل شيء

Scanned by TapScanner

وانسَ أمر كازابلانكا، أُحظر كل أرقام أصدقائك هناك، خاصة المؤجر الذي تقطن في منزله. -الواقع يا مولا أنّ التخلي عن كتبي وأصدقائي في كازابلانكا سيكون تخليا عظيما، لكن التخلي عن الدراسة هو التخلي الأعظم. -ليس بهم، قلت لك انس كل شيء هناك وامكث هنا في مراكش. قالت بامتعاض. -وما الذي سأفعله هنا في مراكش؟ -تستعد لمباراة التعليم عبر مراجعتك لدروس الديداكتيك وعلوم التربية. -وما الذي سوف آكله؟ هل سآكل علوم التربية والديداكتيك؟ -ستبحث هذه الأيام عن عمل هنا كيفما كان نوع هذا العمل، في البناء أو غيره، أعلم أنك مثل الفأس أينما ذهبت تحفر، ثق في نفسك إنك رجل من حديد يا أنير. -وأين سأستقر ريثما أنجح في مباراة التعليم؟ -تأكد جيدا أنك ستجد عملا في هذه الأيام بسرعة، هكذا هي طبيعة العمل الشاق في المغرب، فحيثما ولّيتَ وجهك ستجده مثل الفقر، وستقيم عند صديقك كمال بينما أنت تشتغل نهارا وتستعد للمباراة ليلا، وتتعاونا كلاكما على مصاريف الكراء والمعيشة، هو طالب لطيف جدا إنه يدرس رفقتي ولا أظنه سيرفض ذلك. فكر جيدا يا أنير فأنا تهمني مصلحتك كثيرا. ضغطت بيديها على يدي. -لكن ماذا لو لم يتم قبولي في مهنة التدريس؟ -أنا متيقنة جدا أنه سيتم قبولك، أنت كفؤ يا أنير ولا مندوحة من ذلك ستنجح؛ لأنك تتنفس الفلسفة وتعيش بها، والقروش لا تموت غرقا

Scanned by TapScanner

ما دامت تعيش في الماء. غططْتُ في صمت عميق سارحا في أفكاري وأنا ألهج بما قالته لي مولا. -إي أنير ما لك صامت؟ ألم يعجبك اقتراحي؟ فكر بنفسك جيدا يا حبيبي، أنا لا أفرض عليك آرائي. - اقتراحك صائب يا حبيبتي، لن أعود مجددا إلى كازابلانكا، سأتخلى عن شيء عظيم، إنه التخلي الأعظم يا مولا!

-13-

تمسكت بي مولا جيدا حتى نزلنا من الجبل وركبنا التاكسي متجهيْن إلى حي الداوديات حيث ذهبتْ إلى منزلها، في حين وقفتُ أنا قرب دار الشباب أنتظر كمال بعدما اتصل بي وطلب مني أن أنتظره هناك حتى يأتي ويستضيفني لتناول وجبة الغذاء التي أعدها. لم يتأخر كمال كثيرا، إذ جاء بقامته الطويلة وجسده النحيف يبتسم من بعيد. عانقني عناقا شديدا حتى آلمني إصبعي، وأعرب لي عن اشتياقه الشديد لي، وبعد ذلك اتجهنا إلى غرفته التي توجد في الطابق الأرضي. كانت غرفته مرتعا للدفء ومرتبة على نحو جيد، أرضٌ مرصعة بالموزاييك وجدران مطلية باللون السماوي، ومعاطف سوداء أنيقة معلقة في الشمّاعات. لم تكن الغرفة مفروشة بالكامل، لكنها أنيقة، كل شيء وُضع في مكانه المناسب، كانت الكتب مرتبة في عبوة كبيرة من الكارتون، والخضروات وضعت في صندوق خشبي، وثمة أواني نظيفة وسجادة صلاة، وعطر من نوع *روش نوار*. لقد استقبلني كمال

Scanned by TapScanner

استقبالا طيبا، وافترش لي كساء سميكا، وأعطاني وسادة وملاءة، وبعد لحظات تناولنا الفاصوليا اللذيذة وأعددتُ أنا إبريقا من الشاي، قبل أن أتناول الدواء وأبدِّل ضماد إصبعي. -يا إلهي ما بال هذا الإصبع؟ اندهش كمال. -لقد أُغلق عليها باب الباص. كذبتُ. -بالشفاء العاجل صديقي. -آمين. وتابعتُ وأنا أربط أصبعي باللفافة: كمال إني أسمع قهقهات فتيات ماذا يجري بحق الجحيم؟ -إنهن طالبات يستأجرن الغرفة التي فوقنا. -وماذا عن صاحب المنزل؟ -إنها امرأة عجوز قد نام العشب في أذنيها تعيش على أجرة الكراء، وتقطن في الغرفة التي في الطابق الأخير. -أنت محظوظ إذاً. -ولِمَ أنا محظوظ ماذا تقصد؟ وضع كأس الشاي على أرضية الموزاييك مع ابتسامة عريضة. -ألم يسبق لك أن زرت إحداهن؟ -عمّن تتحدث لم أفهم؟ - الطالبات اللائي فوقك، هل سبق لك أن زرت مؤخرة إحداهن في منتصف الليل مثلا؟ فاستعاذ كمال بالله وتمتم قائلا: أستغفر الله العظيم! -إذاً أنت لا تصلح لشيء. كنت أقول له مثلما كانت تقول جارتي المراهقة ذات يوم. -أخبِرني، كيف تركتَ كازابلانكا والماستر؟ تعمد كمال تغيير موضوع حديثنا. -كازابلانكا مدينة جميلة، بيد إن دراسة الماستر قاسية جدا بالنسبة إلى فقير مثلي أنا، لذا قررتُ أن أجعل حدا لهذه المعاناة وأتخلى عن كل شيء هناك. -كيف ذلك؟ سأل كمال في حيرة. -سأتخلى عن الدراسة ولن أعود مجددا إلى

Scanned by TapScanner

كازابلانكا. -وما البديل عن ذلك؟ -سأستعد لمباراة التعليم التي ستنظم في الشهر المقبل، وخلال هذه الأيام سأبحث عن عمل هنا في مراكش، وربما سأشاركك هذه الغرفة إلى حين يتم قبولي في وظيفة التعليم، ما رأيك؟ -أراه قرارا سليما يا أنير، كفى مضيعة للوقت، فأحيانا يكون التخلي عن الأشياء العظيمة مفيدا لنا؛ لأنه يجعلنا نشعر أن حيواتنا لا تتوقف على أي شيء مهما عظمتْ مكانته، أما بخصوص اللجوء عندي؛ فاعتبر يا صاحبي من اليوم فصاعدا أن هذه الغرفة هي غرفتك أنت أيضا، كُلْ واشرب هنيئا لك، ولا تفكر في أن تخرِج من جيبك فلسا واحدا، فنحن إخوة يا أنير. -لا أعرف كيف أشكرك يا كمال. -لا مجال للشكر بيننا يا أنير، لكن ثمة نقطة مهمة يجب أن أوضحها لك. -وما هي؟ - في الواقع لا أعتقد أنك ستعثر على عمل في هذه المدينة السياحية. -وما الحل يا تُرى؟ -الحل هو أن تستقلّ الباص رقم 22 عند باب دكالة، وتنزل في *سيدي الزوين*، هنالك توجد ضيعات فلاحية، وهنالك أضمن لك العثور على عمل، وحينما تنتهي من العمل في المساء، عُدْ في نفس الباص لتهجع هنا في بيتك. -شكرا صديقي على مساعدتك، هذا ما سأفعله، لكن سأذهب قبل ذلك في صباح الغد إلى الجامعة لأستلم شهادتي الجامعية الأصلية. -إذاً هل ستذهب رفقتي؟ فأنا أيضا لدي حصة الفلسفة الإسلامية في العاشرة صباحا وآمل أن تحضر معي في قاعة

Scanned by TapScanner

المحاضـرة، فأنـا متأكـد أن المحاضـرة سـتنال إعجابـك. –حسـنا، سأحضـر معـك ولِـمَ لا؟ لكـن شـريطة أن أجلـس بجانـب زوجتي المسـتقبلية مـولا. –آهٍ، مـولا، أعرفهـا جيـدا دائمـا مـا كانـت تسـألني عنـك، إنهـا تحبـك كثيرا، اعـتنِ بهـا فهي حقـا فتـاة تليـق بـالزواج يـا صديقي، ما عليك سوى أن تعمل وتوفر البيت الذي ستعيشان فيه، ويكون بيتـا حصـيناً، فأنـت تـرى كـم مـولا جذابـة. ضحك كمـال. -إذا كانت المرأة حَصَاناً فلا داعي لأن يكون البيت حَصِيناً يا كمال. قلتُ له وقهقهنا معاً.

-14-

في صـباح اليـوم التـالي ذهبـت بمعيـة كمـال إلى الجامعـة في التاسـعة والنصـف، وبعـد وصـولنا توجهنـا مباشـرة إلى مصـلحة الـدبلومات؛ حيـث كانـت ثمـة فتـاة رشـيقة تظهـر نهـديها النـاتئين مـن بـين قميصـها المنفـرط، وتبتسـم أكثـر مـن الـلازم، وعلى مكتبهـا توجـد أبـراج مـن الـدبلومات المتراصـة تنتظـر الطلبـة مـن ذوي الحـظ السـيئ. -صـباح الخير. قلتُ مبتسـما. -صـباح النـور. نغّمتْ بنبرة وديـة وأضـافت: هـل أسـاعدك في شيء؟ -أريـد شـهادتي الجامعيـة، سـلك الإجـازة. -بطاقتك الوطنيـة لـو سـمحت. فأمـددتها ببطـاقتي الـوطنيـة وراحـت تقرؤهـا وتبحـث عـن شـهادتي مـن بـين ذلـك الركام مـن الشـواهد، وبعـد خمـس دقـائق تمكنتْ من العثـور عليها فقدمتها إليّ بمعية بطاقتي الوطنية. -

Scanned by TapScanner

أتمنى لك حظا موفقا. قالت لي مبتسمة وغادرنا. ثم أخذتُ شهادتي الأصلية وأنا أطفح بالفرح، إذ كنت قد تسجلت بسلك الماستر في كازابلانكا بوصل يعادل هذه الشهادة كنت قد تسلمته في حزيران/يونيو المنصرم من نفس الجامعة. وفي التاسعة وخمسين دقيقة، وبعدما تسكعنا في باحة الكلية، صعدنا الدرج نحو القاعة رقم 42، حيث ستقام المحاضرة، رمقتني حبيبتي مولا فهمّت مسرعة بالدخول إلى القاعة لتضع دفترا على الكرسي الذي يحاذيها قبل أن تكتظ القاعة بالطلاب. دخل كل الطلبة إلى القاعة وبعد ذلك بقليل لحقهم الأستاذ يحمل في يمناه حقيبة من الجلد الفاسي، وفي يسراه مكبر الصوت، وهكذا جلست إلى جانب مولا مشاركا إياها الطاولة، وقد احمرّ وجهي على وقع تلك النظرات الغيورة التي كان يسلطها عليّ طلبة الفصل، إذ بات الكل تقريبا يدرك أنني شخص غريب عن الفصل مثل بجعة سوداء داخل سرب من البجع الأبيض. شرع الأستاذ يلقي محاضرة عن مفهومَيْ الإمكان الأخسِّ والحركة في الجوهر عند المُلاَّصَدْرَا الشيرازي، وهو أحد رواد الفلسفة الشرقية الجافة، بيد إن الأستاذ كان يستغرق وقتا طويلا في مدحه أكثر من شرح فلسفته المملة، حيث كان يصفه بكل مبالغة بشيخ المتألهين، والحكيم الإلهي، والفيلسوف الرباني، ومجدد الفلسفة الإسلامية، حتى خُلتني في زاوية صوفية. وبينما كانت مولا إلى جانب الطلبة

Scanned by TapScanner

يدونون في دفاترهم محاضرة الأستاذ، أخرجتُ أنا شهادة الإجازة من الظرف بكل سرور وأخذتُ أتفحصها وأقرأ ما فيها، وفيما أنا أقرأ تلقيت صدمة جعلتني أرتجف في مكاني وأبتلع ريقي، بل فكرت في تمزيق الدبلوم في تلك اللحظة. وقد قرأت في الدبلوم ما يلي:

الإجازة في الدراسات الأساسية:

يشهد رئيس جامعة القاضي عياض

أن الآنسة: أنير أزناك.

المزدادة في: 17 مارس 1996

بـ: إغرم نوگدال-ورزازات

قد أحرزت على الإجازة في الدراسات الأساسية.

مسلك: الفلسفة

بميزة: حسن

إمضاء: السيد عميد الكُليّة.

بَلْبَلَنِي القلق دون أن تشعر مولا بذلك، وتساءلت كيف يعقل أن أقضي ثلاث سنوات في جامعة مراكش متجرعا شظف العيش وضنك الحياة؛ من جوع وبؤس، وحر وبرد، وعمل شاق، ومراجعة للدروس تحت جذوع النخل، وفي الأخير تضرب الجامعة رجولتي عرض الحائط وتجعل مني آنسة؟ انتهت الحصة في تمام الثانية عشرة ظهرا فأخبرتُ مولا بالخطأ الشنيع الموجود في شهادتي، ثم

Scanned by TapScanner

توجهنا مسرعيْن إلى إدارة الكلية بغية تصحيح الخطأ، فأخبرتنا الكاتبة أنه ليس يكون خطأ جسيما ويمكن تصحيحه بقلم الرصاص. نغّصت عليّ تلك الشهادة الخرائية سعادتي في ذلك اليوم، حيث راودتني شكوك بأن هذا الدبلوم لن يُقبل مني في الترشح لمباراة التعليم، إذ يشكل هذا الدبلوم أول شرط من شروط الترشح لهذه الوظيفة. ولنسيان هذه المعضلة اقترحتُ على مولا أن نخرج معا في جولة متواضعة إلى بساتين النخيل المجاورة لحي الداوديات فأومأتْ بالقبول. لكن قبل ذهابنا إلى حيث يوجد النخيل، مررنا بِسْنَاكْ شُعيب المتاخم للحي الجامعي، حيث اقتنت مولا زوجين من السندوتش المحشو بالسجق، واشتريت أنا قنينة ماء معدني وعلبة سجائر بالإضافة إلى علبتين من علكة الكلوريتس. كانت السماء محيطة بستار من الغيوم، والجو بارد ينهش العظام، فأرفقت مولا ذراعها بذراعي وحملتُ أنا الكيس بيدي اليمنى ومشينا بخطىً ثقيلة نحو النخيل نضحك معا ونغني، إذ تناولنا غذاءنا تحت نخلة يانعة ذات قطوف دانية، وبعد انتهائنا صرنا نضرب عروش النخل بالحجارة دون أن نسقط تمرة واحدة. كانت مولا مسرورة جدا إذ أخذت تردد بصوتها الجميل أغنية حسّانية مغربية، وكانت مراكش رائعة للغاية، وشبيهة بشقيقتيْها قرطبة وسرقسطة زمن الحكم المغربي. فرغم الحب الذي تكنه لي مولا، إلا أنها لا تتجرأ على النظر

Scanned by TapScanner

مباشرة في وجهي، وفي تلك اللحظة مسكتها من ذراعيها وأوضحتُ لها بأنني حبيبها وينبغي عليها أن تنظر إلى عينيّ، وعندئذ تذهّب وجهها خجلا وهي تحاول أن تنظر إلى عينيّ، ففسّرتْ لي ذلك بأنها تخجل مني رغم كل شيء. ألححتُ عليها كثيرا بأن تتجرأ وتفعل ذلك الآن، وأخيرا نظرت إليّ فوقعت عيني على عينيها الواسعتين، فابتسمت وعانقتها أمام عشرات النخلات المتمايلات مع ريح تشرين الثاني/نوفمبر.

أشعلتُ سيجارة، ثم حثثنا الخطى تحت حمرة الشمس التي أطلت علينا خلسة من بين الغيوم إلى ساحة متحف الماء، حيث التقطنا صورا مع ناعورة الماء الضخمة هناك والتي تعود إلى عهد الموحدين. لم يكن أحد غيرنا في تلك الساحة، وقد كان بريق الشمس الأحمر في ذلك المساء ينعكس على مياه النوافير المتلألئة. جلسنا في أحد مقاعد الساحة وطفقنا نتبادل القبل حتى جفّت شفاهنا، كانت مولا تغمض عينيها ويتضرّج محيّاها خجلا، وعلى شفتيها ترفرف مئات الابتسامات. -مولا، لا أظن أن أباك سيقبل بي زوجا لك. -ولماذا؟ - لأنني لست صحراويا. -وما العيب في ذلك؟ -لأنكِ صحراوية وأنا أمازيغي، وسمعتُ أن الصحراويين يكنون الكراهة للأمازيغ، وأن المرأة الصحراوية لا تتزوج إلا من رجل صحراوي وهذا الأخير كذلك لا يتزوج سوى امرأة صحراوية. -إياك أن تكرر هذه الخزعبلات مرة أخرى يا حبيبي. حذرتني واستعطفت: أنا لا أنكر أنني صحراوية من

Scanned by TapScanner

مدينة العيون وأصولي تنحدر من قبائل أولاد دليم في أقصى جنوب المملكة، لكن هذا لا يعني أنني من بلد آخر، هناك أمازيغي وزنجي ويهودي ونصراني وطوارقي وحساني وعربي ومسلم وأندلسي، لكنهم في نهاية الأمر شعب واحد يعيشون داخل وطنهم الواحد والأوحد الذي هو المملكة المغربية؛ متعددة الأعراق والثقافات، إن المغرب ليس عربيا صرفا ولا محض أمازيغي، وإنما تركيبة من الأجناس والأعراق التي بنت هذه المملكة العريقة والمتماسكة، لبنة، لبنة، عبر مر العصور، هذه الدولة التي يزيد عمرها بكثير عن ألف وأربعمائة عام، والملك المغربي "يُوكوس الأول" -الذي كان حاكما على الأمة المغربية حوالي 110 قبل الميلاد - خير شاهد على ذلك. صحيح يا حبيبي أن الكوديو الإسباني حاول يوما ما أن يبدِّد الأخوة بين المغاربة ويفرّق الشمل مثلما يفعل الضّراط، لكن هذا الديكتاتور مات عام 1975 وماتت معه العنصرية، ومازالت الأخوة حية بين كل المغاربة. نحن شعب واحد يا أنير من طنجة في أقصى الشمال، إلى الگويرة في أقصى الجنوب مهما تعددت ثقافاتنا، لأن المملكة المغربية هي الواحد المتعدد وهي الكل الواحد. وطننا بحاجة إلينا يا أنير، لن نخذله أبدا، وإن كنا نختلف مع من يبيعون لنا الوهم من رجالات الحكومة وباقي المسؤولين، لأننا سنموت جميعا وسيبقى الوطن. -أتفق معك حبيبتي، إننا نختلف مع سياسة الوطن، وليس مع الوطن نفسه. -لذا

Scanned by TapScanner

ينبغي عليك أن تُخْلي ذهنك من مثل هذه الأفكار السامة، لأن أبي سيسر كثيرا بزواج ابنته من رجل شاب وطموح لا يهاب الصعاب، بل إن أبي مستعد لأن ينحر عددا كبيرا من الإبل في زفافنا تعبيرا عن فرحته. -هل يملك أباك الإبل؟ -مائة وعشرون رأسا من الإبل. حدّدتْ. -مائة وعشرون؟ وأين يرعى كل هذا القطيع؟ -يرعاه راعيان بسيارتين من الدفع الرباعي؛ واحدة من نوع تويوتا والأخرى لاندرو ڤير، وذلك تارة في منطقة المسيد وأخرى في منطقتي النقوب وتزارين. -أعلم أن منطقة المسيد تقع في الصحراء، لكن لماذا ترعون أيضا في النقوب وتزارين التابعين لإقليم زاگورة؟ -لأنهما يقعان أيضا في المملكة المغربية مثل منطقة المسيد. -أعرف ذلك، كنت أقصد فقط مسألة القرب. -لا يهم إذا كان المكان بعيدا ما يهم هو أن يتوفر الكلأ وألاّ نرعى في أرض غير أرض مغربنا الحبيب. -مائة وعشرون رأسا من الإبل، مائة وعشرون رأسا يا أنير.. مائة وعشرون أيها الفقير! تمتمتُ بخُفُوت. -ماذا تقول؟ -لا شيء، كنت أقول بأن زفافنا سيكون راقيا جدا. كذبتُ. -من دون شك. ابتسمتْ.

ترنحت الشمس جهة الغرب، فأدمى الغروب السماء، وبعد دقائق أرخى الليل سدوله حاملا بين طياته ريحا زمهريرا. شغّلت مولا هاتفها وأخذنا نستمع معا لأغنية حسّانية بصوت *مولا يس* بعنوان: *Sahara mi amor*. -حبيبي ما رأيك أن نرقص معاً؟ -ليس لدي رغبة في

Scanned by TapScanner

الرقص يا حبيبتي. -لا يعجبك الرقص، أليس كذلك؟ -كلا، ولكن لا أعرف الرقص. -وهل يعجبكِ أنتِ الرقص؟ -كثيرا، خاصة في الليل. - لماذا في الليل تحديدا؟ -*لأنه حينما تلمع النجوم في السماء، تأتي رقصة المساء، فتتشابك الأنامل ويسري الحب المقدس في الدماء، وتتنفس القلوب وَقْعَ الرقصة ناسية كل عناء، لذا فالرقص في وطني فضلا عن الغناء، أفضل من طائرة حربية تعكر صفو السماء، وتقصف المباني والوهاد الخضراء، فتخلِّف في الجو مصيبة، وفي البر بلْواء. وسائحة أندلسية شقراء، وأخرى من بلاد الإفرنج ذات عيون زرقاء، تتسكعان في ساحة جامع الفِناء؛ واحدة ترتدي ملحفة من الصحراء، والأخرى تزين يديها بالحنّاء؛ أفضل من جنود غُزاةٍ يشنون على وطني حملة شعواء، فيسْبون النساء ويقتلون الأبرياء. وصفير بلبل فوق شجر الأرْزِ، أفضل من طلقة رصاصة شاردة تفزع الحمام وتخرق الآذان الصمّاء. وعجوز تحت زيتونة يُحولق ويُحمدل، وفي يمناه سبحة، أفضل من شاب رث الهيئة يجعل من الكحول قديسا ومن الحشيش مَوْلاَء، ورجل يقلّب بفأسه الثرى كل صباح متنفسا نسيم الهواء، أفضل من جبان يتوارى خلف السطور فيعلن ثورة وهمية بين الحروف، وفي المساء يمشي كالكلب خلف النساء، فيطلب درهما لليلى أو دعاء!* لقد كانت مولا تُعبِّر بأعلى صوتها وبلكنة شعرية، وهي ترفع يديها مثل مجنونة، وتضحك في أمسية جميلة

Scanned by TapScanner

ورومانسية. وعندما أشعلت سيجارة وشرعتُ أروي لها نكتة مراكشية مضحكة، قهقهتْ حتى انحنتْ واضعةً يدها على قلبها، وكادت تسقط على وجهها من كثرة الضحك لو أني أمسكتها من خاصرتها وقبّلتها في خدها الأيسر ومضينا عائدين.

-15-

على مدار الأيام القليلة التالية، وتحديدا ذات سبت عدت إلى غرفة كمال في الخامسة عصرا بعدما قضيت أنا ومولا يوما ماتعا في حدائق گِيليز وساحة جامع الفِناء، وجدت كمال يرتدي معطفه الأسود وحذاءه الإيطالي اللمّاع، ويوضب بعض ملابسه في حقيبته استعدادا للسفر، فسألته عن سبب ذلك فأجاب أن أخاه الأكبر قد ازدان فراشه بمولود، فعانقته وهنأته كمن كان هو الذي رُزق بالمولود. - سأترك لك مفتاح الغرفة ومفتاح المنزل أيضا لأنه يُقفل عند تمام التاسعة ليلا، لا تغادر الغرفة يا أنير، اعتبرها غرفتك، أنا سأعود بعد ثلاثة أيام فقط وسأجلب معي كذلك دثارا ووسادة وبعض زيت الزيتون إنْ كانوا قد انتهوا من عصره. -حسنا كمال، سأمكث هنا ريثما تعود. -اسمع جيدا يا أنير، هناك بعض الخضروات في الصندوق، والتوابل في تلك القارورة الزجاجية ذات الغطاء الأحمر، والقارورة الأخرى ذات الغطاء الأبيض توجد بها قهوة، أما قنينة الغاز فها هي ذي أمام باب الغرفة، فأنا كما ترى لا أضعها معي داخل

Scanned by TapScanner

الغرفة حينما أريد أن أنام نظرا إلى خطورتها، للأسف لم يتبق الزيت، لكن سأعطيك النقود لتشتريه. -كلا يا كمال، دع نقودك في جيبك سأشتريه بنفسي، فلدي بعض النقود. اعترضتُ. -لا يمكنني أن أقبل بذلك فأنت الضيف عندي وليس العكس، خُذْ، هذي مائة درهم، اشترِ الزيت والخبز كذلك، وعُدّ عشاءك، تصرّفْ وكأن كل شيء في ملكيتك. أكد كمال ثم استعطف: آه كدت أنسى، تلك القفة المعلقة في الحائط ستجد فيها عدساً وفاصوليا بيضاء؛ إنها مضادّات حيوية لڤيروس الجوع والبرد الفتّاكيْن، بقيت ثمة نقطة واحدة؛ حذارِ أن تنام قبل أن تخرج قنينة الغاز من الغرفة فهي كما تعلم قنبلة موقوتة، اتفقنا؟. -اتفقنا صديقي. -وداعا سأذهب الآن. -أراك لاحقا صديقي، بلِّغْ سلامي وتهانيَ الطيبة لأخيك. -شكرا على طيب التهاني. قال وانصرف.

حينما غادر كمال، كانت السماء حينها لا تزال تحفل ببريق الشمس الآخذة في الغروب، وفي نفس الوقت كانت الغيوم تداهم أجواء مراكش وتنبئ بعودة المطر من جديد، حتى أضحت السماء رمادية اللون في أقل من نصف ساعة، وبعد ساعات من ذلك طبختُ بعض العدس وأعددت وجبة عشائي، ثم تهيأت لإعداد إبريق الشاي فغسلت الكؤوس ووضعتها فوق المنضدة. أمسى المطر في الخارج يهطل بغزارة غير معتادة، وهو يخدش النافذة التي تطل على الشارع

Scanned by TapScanner

حتى أحدث بها صدعا وأسقط طرفا من زجاجها، مما جعل الريح الهوجاء تتسرب إلى داخل الغرفة حيث أضحت كؤوس الشاي الفارغة فوق المنضدة تتمايل وتضحك؛ تخبرني كم أنا وحيد! تناولتُ وجبة العشاء بعدما اشتريتُ خبزا بلّله المطر غِبّ عودتي من الدكّان، وازدردتُ كؤوسا من الشاي الساخن الذي هدّأ أعصابي، والذي كان يعادل بالنسبة إليّ خمر الجين ساعتئذ، ثم فتحت حقيبتي وأخرجت كتاب رحلة في أقاصي الليل الذي جعّدت الرحلة من كازابلانكا صفحاته، وأشعلت آخر سيجارة كانت في العلبة ثم أخذت أقرأ إلى أن تثاقلت أجفاني بالنوم، فنقرت بعصا المكنسة قاطع الإنارة وأطفأتُ الضوء، بينما زمجرات المطر، وهزيم الرعد، ورنين هاتفي المتواصل في تلك اللحظة قد امتزجوا في نغمة واحدة مثل نوتة موسيقية دون أن أكترث لذلك.

انقشع الصباح ومزقت الشمس الغيوم، فنهضت من فراشي وغسلتُ وجهي وأسناني، ثم خرجت إلى الدكان لشراء مستلزمات الفطور وبعض السجائر، وحين عودتي صادفتُ سارة تخرج من نفس المنزل الذي يستوطنه كمال. -سارة ماذا تفعلين هنا؟ -يا إلهي! أأنت هذا؟ فغرت فاهها وتابعت: آهٍ كم اشتقنا إليك جميعنا! أشعلتُ سيجارة وشرعتُ أقول لها: أنا أيضا اشتقتُ إليكم يا سارة، فكل من درس معي في جامعة القاضي عياض هو بالضرورة صديقي وسيبقى

Scanned by TapScanner

صديقي إلى الأبد. -وما الذي جاء بك إلى هنا؟ -لقد جئت من أجل أخذ شهادة الإجازة اللعينة. -ممتاز، مبارك لك. -شكرا سارة. -العفو أنير. -ظننتكِ نجحتِ أيضا يا سارة، فما الذي جرى؟ -كلا لم أنجح للأسف وها أنا أعيد فصلا دراسيا بأكمله. -ليست نهاية العالم يا سارة. -بالفعل أنير. -أتمنى أن تنجحي هذه المرة. -آملُ ذلك. رفعتْ أنظارها متنهدة. -أنا متأكد من ذلك. -سمعتُ أنكَ تدرس الماستر في كازابلانكا، هل ذلك صحيح؟ -كلا، إنها إشاعات فقط. -وماذا تفعل حاليا؟ -مجرد عاطل في هذا الوقت. -اصبر، ستتحسن الأمور. رمقتني بنظرة ذابلة. -لقد عيل صبري يا سارة. -هل تمكث حاليا عند كمال؟ غيرت الموضوع. -نعم. -كمال طالب طيب الجميع يشهد له بذلك، إنه يدرس معي، للأسف هو أيضا رسب كما تعلم، رغم أنه لا يستحق الرسوب والحق يُقال. -طبعا سارة، إنه شخص مجتهد، ولا يستحق الرسوب. —مع الأسف. —آه، نسيت، لقد حضرت الأسبوع الماضي إلى أحد الحصص في فصلكم ولم أرَكِ. -صحيح لم أستطع الحضور أسبوعا كاملا بسبب المرض. -هل تحسّنت صحتكِ الآن؟ -نعم، نسبيا. -حمدا لله. -أنير أراك لاحقا، سأذهب الآن إلى الدكان صديقاتي ينتظرن الخبز. —حسنا، وداعا سارة. -إي سارة، مهلا. -ماذا هناك أنير؟ -دقيقة من فضلك. توقفتْ فسألتها: -كم من فتاة تقطن معك؟ -ثلاث طالبات من مدينة الطَّانْطَانْ، لماذا هذا السؤال يا أنير؟

Scanned by TapScanner

-يعني أن غـرفتكن مكتظـة. ابتسـمتُ. -وهـل تريـد أن تنـام معنـا؟ ضحكتْ. -كلا، أسألُ فقط. -لا بالعكس إن غرفتنا واسعة بما يكفي. -وهل تعرفين مولا؟ -لا، هل درست معنا في السنة الفارطة؟ -كلا، ولكنها تدرس معكِ الآن. -آسفة، لم أسمع بهذا الاسم في الفصل فعدد الطالبات كثير جدا. -على أيٍّ اسمعيني؛ مولا طالبة صحراوية تدرس معكِ، وهي خطيبة شقيقي. كذبتُ وأردفت: كانت تقطن مع اثنتين من صديقاتها في إحدى الغرف هنا بحي الداوديات وهما شقيقتان واحدة اسمها ليلى والأخرى لبنى، وللأسف سافرتا هذا الصباح بسبب أبيهما الذي توفي عند فجر اليوم، حيث كان المسكين ذاهبا إلى المسجد ليصلي؛ فإذا به يقع في حفرة الصرف الصحي الذي كانت هوته مفتوحة ولم يرَها بفعل الظلام حتى سقط فلترقد روحه بسلام على قُلّة رأسه فمات من فوره، وبما أن مولا تعاني من رُهاب الظلام وتتراءى لها الأشباح إذا هي بقيت بمفردها فإنها لا تستطيع أن تنام وحيدة. فسّرتُ كاذبا. -مسكين فلترقد روحه بسلام. -آمين. -أين هي الآن خطيبة شقيقك لتمكث معنا؟ -أخشى في الحقيقة أن يشكل وجود مولا حرجاً بالنسبة إلى صديقاتك يا سارة. -لا تقل ذلك بالعكس سيرحبن بها وغالبا ستكون مولا هاته صديقتهن. -حسنا، إذاً عندما تغيب الشمس ستجدينها تنتظرك قرب مدرسة رابعة العدوية وخذيها إلى حيث تسكنين، فأنا لن أكون هنا آنذاك، إذ سأنام الليلة

Scanned by TapScanner

في منزل صديقي بحي العَزُّوزِيَّة. كذبتُ مرة أخرى. -كن مطمئنا يا أنير.
-شكرا سارة. -العفو.
بعدما تناولتُ وجبة الفطور ذهبت مباشرة إلى مقهى الإمارات وطلبت قهوة سوداء وسيجارة، كان يوم أحد مشمس وهادئ، أخرجت هاتفي من جيبي لأتصل بمولا كي نستمتع معا في جلسة رومانسية. وفي تلك اللحظة بالضبط توصلتُ برسالة عبر الواتساب من رقم مجهول، وقد كان ذلك الحساب على الواتساب يحمل صورة لفتاة مرسومة؛ إنها تلك التي تدعى فُولّى، محبوبة البنات الصغيرات. أشعلت السيجارة ثم حملت الهاتف باليد اليسرى وأخذت أقرأ الرسالة واضعا ساقا على ساقٍ، حيث قرأتُ ما يلي:

عزيزي كوتشو:

إني في هذه اللحظة أحمل بين أناملي المرتعدة هاتفي النقال الذي اشتراه لي بابا قبل يومين، وأكتب إليك كلمات من جمرٍ، أتمنى أن تصلك قبل أن يتعطل الهاتف على وقع هذه الدموع المدرارة، التي تهطل على شاشته. إني لم أرَكَ منذ عدة أيام؛ أخبارك اندرستْ، آثارَكَ انطمستْ، وابتسامتي من كثرة ما بكيتُ شوقا احتبستْ، وكأن الأرض ابتلعتكَ على حين غرّة. اتصلتُ بك ليلة أمس مرارا وتكرارا دون أن أتلقى منك جوابا. لقد اشتقتُ إليكَ، وأتمنى من أعماق قلبي أن أسمع عنك أحسن أخبار، سواء أكنتَ في عمل شاق يجمع بين

Scanned by TapScanner

سواد الليل وبياض النهار، أو قابعا في حي آخر من أحياء كازابلانكا، أو مسافرا إلى مكان بعيد. أنا حزينة ومنهكة يا كوتشو، بالأمس عانيت من وجع شديد في بطني، فنزلت إلى غرفتك بعد منتصف الليل متربصة كي أشكو إليك وجعي، فلم أجد غير الصمت يكتنف المكان، نظرت من شرخ باب غرفتك فلم أرَ سوى الظلام وبخار الرطوبة يفوحان من غرفتك، وانعكاس ضوء القمر على زجاج النافذة يومض مثل حشرة الكوكويو، لا شيء آخر يا كوتشو. رجاء كوتشو، عُدْ في الحال، فأنا لا أطيق غيابك، أُعدُّ لك القهوة في الصباح فلا أجدك، ثم أضطر إلى سكبها في البالوعة بغيظ ظاهر، وفي الليل أطرق بابكَ بُغية أن أمنحك كالمعتاد أوراقا بيضاء تكتب فيها يومياتك فلا أجدك؛ مما يجلني أجعِّدها باستياء شديد. كما إنني أتيتك مهرولة أول أمس لأقدم لك جريدة المساء، كي تقرأ عن خبر التفجير الإرهابي الذي هزّ كابول ليتسنّى لك أن تضحك مقهقها من أعماق قلبك، وللأسف لم تكن موجودا هناك. آه كم اشتقتُ إليكَ يا كوتشو وإلى نبرة صوتك الشاعرية، وتلك الأغاني المكسيكية الرومانسية التي لا تزال تتردد إلى مسامعي وخيالي؛ خاصة أغاني الفنان العظيم لويس ميغيل، وأيضا موسيقا فرقة الماریاتشي فارغاس التي تصدح بها غرفتكَ، عُد رجاء فحي مولاي رشيد كله يسأل عنك، لقد أصبحت كازاويًّا يا كوتشو.

Scanned by TapScanner

جارتك المراهقة لمياء: خالص الحب والوفاء.

قرأتُ الرسالة على عَجَل، ثم حظرتُ الرقم الذي بُعثتْ منه دون أن أبادر برد. كما إنني قمتُ بحظر رقم والد لمياء باعتباره مؤجر الغرفة، وحظرتُ كذلك جميع أرقام الأصدقاء الذين تعرفت عليهم في كازابلانكا مع الإبقاء على رقم صديقي العزيز رشيد. بعد ذلك اتصلتُ بحبيبتي مُولا وأخبرتها أنني أنتظرها في مقهى الإمارات، فجاءت بعد عشرين دقيقة تقريبا، طلبتْ قهوة بالكراميلاّ وبدءنا الدردشة. -مولا، أتعلمين لِمَ اتصلتُ بك؟ -لا أعرف، ماذا هناك؟ استغربتْ. -هذه الليلة لن تنامي في غرفتكِ. -وأين سأنام بنظرك؟ -ستنامين مع بعض الطالبات أعرفهن جيدا لن يلمسن شعرة واحدة منكِ. -منذ متى أصبحتَ تعرف الطالبات؟ اندلق الغيظ من بين شفتيها. -لا تفكري بعيدا، واحدة منهن درستْ معي في السنة الماضية أما الأخريات فلستُ أعرفهن. -وهل جُننتَ؟ كيف يُعقل أن أنام مع طالبات لا أعرفهن؟ -ستعرفينهن هذه الليلة. -وبأيّ مناسبة سأنام معهن؟ - مولا! ضغطتُ علي يدها. -ماذا هناك؟ -هل تحبينني؟ -كثيراً. -إذاً نفذي ما سأقوله لكِ بالحرف وتأكدي جيدا أنه يستحيل عليّ أن أؤذيك أو ألقي بك إلى التهلكة. أخفضتُ صوتي. -وماذا سأفعل؟ اندهشتْ. -عندما تغيب الشمس، سوف تقفين أمام بوابة مدرسة رابعة العدوية حيث ستأتي إليكِ فتاة بيضاء قصيرة وغليظة ذات

Scanned by TapScanner

وجنتين حمراوين ولها نَهْـ.. –كفى، لقد وصفتها بما يكفي. قاطعتني متأفِّفةً. -المهم أن اسمها سارة، أخبريها أنكِ مولا، وأنا الآن سأملي عليكِ ما ستقولينه لها.

لقّنتُ مولا تلك القصة التي نسجها خيالي في الصباح، وحرصتُ على أن تحفظها حرفيا حتى لا تكتشف سارة أنني كذبتُ عليها، كما حرصتُ عليها بأن تقول لها أنني غير موجود في الداوديات وإنما ذهبتُ إلى حي العزُّوزية. -يا إلهي كيف سأحفظ كل هذا؟ -ستحفظينه بسهولة أنا متأكد من ذلك. -ولِمَ كل هذا؟ -انتظري لم أكمل بعد. قاطعتها وتابعتُ: وعندما سترافقينها إلى الغرفة، ستمكثين معهن هناك، حتى تتأكدي أنهن نِمْنَ جمعاوات، آنذاك سترسلين إليّ رسالة عبر الواتساب كي أعطيك الإشارة للنزول عندي إلى الغرفة التي أنام فيها، أعني غرفة كمال، فهي توجد أسفل أولئك الطالبات، لكن احذري من أن تنامي أنتِ كذلك فتفشل خُطتنا. -وماذا عن كمال؟ - لقد سافر البارحة ولن يعود إلا بعد ثلاثة أيام، تذكري جيدا أن الغرفة توجد في الأسفل وبابها أصفر فاتح، أما الغرفة المجاورة لها فلا يقطنها أحد، وهما الغرفتان الوحيدتان الموجودتان هناك في الطابق الأرضي، وستنزلين بعد أن ينمن، متسللة عبر الدرج لتقضي معي ليلة غرامية تحت أضواء الشموع. -أأنت أحمق؟ لن أستطيع فعل كل هذا، كما إنني لست عاهرتك. -اسمعيني يا مولا، أنا لم أقل

Scanned by TapScanner

أنك عاهرة، أنتِ حبيبتي، وأنا حبيبك، أنا لك أنتِ وحدكِ يا مولا، وهذه الليلة قررتُ أن أعبر لك عن حبي بطريقة أخرى، عن حبي الحقيقي يا مولا، فنفذي يا غاليتي ما أقوله لك إن كنتِ حقا تحبينني. -ألا تبدو لك يا حبيبي أن هذه مغامرة؟ -هذا تحديدا هو الحب يا مولا، إنه مغامرة وقفزة في المجهول. -حسنا، أعطني مهلة للتفكير. -لا مكان للفكر في ساحة الحب يا مولا. وهنا تذكّرتُ قول جارتي المراهقة. واستطردتُ: الحب سلام، تسليم واستسلام أيضا، فاستسلمي لقراري ولبّي طلبي، *بُور فاڤور* مولا. قلتُ لها ذلك ثم طلبتُ سيجارة أخرى، أشعلتُها مُحْدِثا سحابة من دخان التبغ بينما مولا مطأطئة رأسها تفكر في الموضوع. -حسنا، أنا موافقة. رفعت رأسها متنهدة. -رائع، رائع جدا يا حبيبتي، قبّلتُ جبينها. -يا لك من مجنون. ابتسمتْ. -هل تذكرين كل ما أوصيتكِ به؟ -ولا كلمة واحدة. -*كراخو*، نسيتِ كل شيء بكل هذه السرعة؟ -هههه إني أمزح فقط، لازلت أحفظ ذلك كلمة، كلمة. -ممتاز، إذاً أراكِ بعد أن تنام كل الطالبات. -ومتى ستأتي أنت إلى الغرفة؟ -في العاشرة. -*ڤالي كرِيْنْيُو*، اتفقنا. تنهّدتْ. -مولا، إني أراك خائفة، رجاء لا تخافي، الكل سيمر على أحسن ما يرام حبيبتي، أؤكد لكِ، والآن يمكنكِ أن تنصرفي، أحبكِ. قبّلتُ يدها. -أحبكَ كثيرا. ختمت مولا الجلسة وانصرفتْ.

Scanned by TapScanner

-16-

دخلتُ متسللا إلى الغرفة في العاشرة ليلا، أشعلتُ الضوء وشرعت أقرأ في إحدى الجرائد حتى باغتني الملل، فأرسلت رسالة لمولا عبر الواتساب أقول فيها: -مساء الخير حبيبتي، هل نفّذتِ اتفاقنا؟ -مساء الأنوار، نعم، أنا الآن مع الطالبات، إنهن لطيفات جدا، وقد رحّبن بي كثيرا. -جميل جدا، وماذا تفعلين الآن؟ كتبتُ لها، فلم ترد على الرسالة إذ يظهر أنها وضعت هاتفها جانبا. وبعد خمس دقائق ردت على رسالتي قائلة: -المعذرة لقد ذهبتُ إلى المرحاض، وتابعت تكتب: أنا الآن أراجع مع سلمى مادة منطق القضايا، هي طالبة في شعبة الفلسفة أيضا، تدرس بالفصل الثالث، وأردتُ فقط أن أشرح لها المنطق لأنها متبوعة به في الفصل الرابع. -إذاً عندما ينمن وتتأكدين من نومهن؛ آنذاك يمكنك النزول إلى العالم السفلي هههه، أقصد غرفتي التي في الأسفل.

انتظرت ردّها للحظات دون أن أتلقّى جوابا، ثم قمتُ من مكاني لأعد وجبة العشاء، لم يكن لدي من خيار سوى أن أعد طاجينا مما تبقى من تلك الخضروات. تركتُ الطاجين يطهو على نار هادئة وخرجتُ بكل هدوء لأجلب الخبز والقهوة والسجائر، ولما عدتُ في أقل من خمس دقائق نظرتُ في هاتفي علّني أعثر على رسالة من مولا، إلا أنها لم ترسل شيئا للأسف فخشيت أن تكون قد نامت. وبعد مرور ساعة

Scanned by TapScanner

أخرى، حيث كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل أرسلتْ رسالة تقول فيها: -حبيبي أنير أعتذر مرة أخرى، لقد كنا نتعشى وقد نامت سارة منذ نصف ساعة تقريبا ونامتا أيضا بعدها تانك الفتاتان الأخريان، ولم تتبقّ سوى نادية أشرح لها الطريقة الشجرية من منطق القضايا، لكنها هي الأخرى بدأ النوم يداعب أجفانها، هي الآن تنجز بعض التمارين، وبعدها ستخلد إلى النوم على ما يبدو، عموما سأخبرك بأي جديد، *تشاو*.

تناولتُ بعضا من وجبة العشاء التي أعددتها، وانتابني شعور بالندم؛ أحسستُ بأنني أستغل مولا من أجل إشباع شهوتي الجامحة باسم الحب. وفي نفس الوقت فكّرت بأن الحب كما الإنسان، لم يكن فقط لاماديا، بقدر ما كان ماديا وملموسا أيضا؛ وماديته تتجسد في اتصال الأجساد عبر عملية الجنس الذي يكون في كثير من الأحيان وسيلة للتعبير عن الحب نفسه كما قالت لي جارتي المراهقة ذات يوم، وبينما أنا غارق في أفكاري يستبيحني الندم تلقيتُ رسالة من مولا: -أنير لقد نام الجميع وأنا الآن واقفة فوق أول درجة من الدرج، أنتعل خُفّ إحداهن لأن الموزاييك بارد جدا، وأعُضُّ إبهامي بأسناني مترددة بين النزول إليك والعودة إلى استكمال مراجعة دروس المنطق بمفردي حتى يفترسني النعاس. فخفق قلبي بمجرد أن قرأتُ رسالتها وكتبت إليها ما يلي:

Scanned by TapScanner

-إننا في حضرة الليل يا مولا ، دعكِ من هراء العقل وترهات النهار، كفاكِ من مراجعة دروس المنطق فإنّ القضايا كلها كاذبة، وتعاليْ نتعانق فوق السرير نبحثُ عن صدق الحب، حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. لا تترددي يا مولا ، اخلعي نعلَيْكِ وانزلي الدرج بهدوء ولا تحزني، فإنّ الطالبات الكسولات غارقاتٍ في متاهات النوم وأغوار الكوابيس، أسمعُ شخيرهن من غرفتي السفلية وقد عكّرَ صمتَ الليل. أرجوكِ يا مولا لا تتأخّري، فأنا أنتظركِ كعود ثقابٍ أقاومُ الانطفاء في وجه الريح، انزعي إبهامكِ من فمكِ وضَعي قدمكِ على الدرجة الثانية ولا تترددي في الهبوط إليّ، فإني مستعدٌّ لأفعل هذه الليلة كل الخطايا والآثام التي عجزت عن فعلها الشياطين بينما تعانقيني أنتِ فوق السرير. لا تخجلي في خلع ملحفتكِ الصفراء والكشف عن ثديَيْكِ الناهدَيْن، حتى وإنْ خجلتِ فإني سأطفئ نار خجلكِ بأمطار شفتيّ وأسافر في أنحاء جسدكِ مجتاحا خصرك وصدرك العريض لأذيب كيانكِ، وأنقلبُ فوقكِ لأتذوّق شهد لعابك. وفيما أنتِ تزدادين خجلا واحمرارا وتتصبّبين عرقا؛ أعُضُّ أنا حلمتيْكِ وشفتيْك. لن أرحمكِ يا مولا ، سأضاجعكِ بقسوة وبربرية، ودون رحمة مني، لأنني في النهار فيلسوفٌ جادٌّ أتقن فنّ البراهين، وفي الليل رجلٌ عاميٌّ لا أعرف صناعة المنطق؛ كل ما أتقنه يا مولا هو أن أصنع من جسدكِ كعكاً تبدو عليه آثارُ العضّ!

Scanned by TapScanner

أعلمُ يا حبيبتي أنكِ خائفة ومترددة، وتحتاجين إلى شيء من التحفيز، رجاء لا تمكثي هناكَ واقفة في الدرج فالطقس بارد هذه الليلة، وتعالي لنتقاسم الوحدة جنبا إلى جنب كتلك التي تقاسمها جاك وروز في فيلم التايتانيك قبل أن يتجمد جسده ويبتلعه المحيط، ولم يعثر على جسده حتى الآن. أنتِ تعلمين يا حبيبتي كم أنا تائه وحزين، فدعينا أرجوكِ نقترب من بعضنا أكثر في هذه الليلة، دعينا نلقي بنا في هاوية سحيقة، في ثقب أسود، في أي شيء يستطيع أن يبتلعنا معا، فلَبّي ندائي يا مولا ولو مرّة واحدة في عمركِ، وتعالي أعطني موتاً حُلواً على صدرك!

قرعتْ مولا باب غرفتي بهدوء مباشرة بعدما قرأتْ رسالتي الإليكترونية، ووقفتْ قُدّام العتبة حافية القدميْن في هيئةِ حسناءٍ تنظر بعينٍ دعجاء من مُقلةٍ بيضاء. كانت خائفة ترتجف وتحمل في يدها اليسرى كتابا قديما ومهترئا أحمر اللون، فأدخلتها وغلّقتُ الباب بإحكام. -حبيبتي، هل أنت جائعة؟ -كلا، أنا خائفة فقط. تلعثمتْ بلكنة بريئة. –مِن ماذا حبيبتي؟ تحسّستُ خدها. -مِن هذا الكتاب. أشارت إلى الكتاب الأحمر. ألقيتُ نظرة خاطفة إلى الكتاب الذي جاءت تحمله مولا، فقرأتُ عنوانه:

ضغريث:

"أسرارُ الشمس"

Scanned by TapScanner

تفحّصتُ الكتاب وأنا استنشق عبق صفحاته القديمة والمهترئة. - مولا أين عثرتِ على هذا الكتاب؟ -لقد وجدته عند نادية، وقد قالت لي إنّ أحد المتشردين بحومتهم وجده ذات ليلة في المقبرة، وقدمه لأخيها الأصغر. أجابتْ متخوفةً.

قرأتُ أول صفحة من ذلك الكتاب، فاندهشتُ بما قرأتُ وانتابني خوف شديد، اكتشفتُ أنّ ذلك الكتاب من عجائب الكتب، لا أعلم إنْ كان هذا الكتاب المخيف من الكتب النادرة، أم الذائعة الصيت، لقد شعرتُ وأنا أقرأ كلمات هذا الكتاب الملغزة وكأنني أكتشف عالما جديدا، أو أنني قد هويت إلى العالم السفلي، لقد قضيتُ أنا ومولا وقتا طويلا في عالم آخر يقبع وراء الكلمات، عالم مخيف جدا، عالم من الأرواح الفظيعة والأشباح والظلال اللازوردية، ولو قرأتُ عليكَ عزيزي القارئ صفحة واحدة من هذا الكتاب الذي يستدعي مني إبقاء أسراره طيّ الكتمان لوقعتَ تحت تأثير السحر الأبدي، ولنسيتَ عالم الحياة اليومية، ولربما جننت إلى الأبد. لقد فرّت كل رغبة أو شهوة من مولا جرّاء الخوف، وأمست صامتة كالموت، بيد إنني لم أستسلم لتحجّرها فراودتها عن نفسها حتى لانت عريكتها، وأخذتُ أكشف عنها كمن يكشف عن بيضةٍ مكنونة، كانت ذات جسد أبيض إذا رأيتَها في الظلماء حسبتها بدراً. لقد خضعنا كلانا في الأخير لدفء الشبق رغم مخاوف الكتاب العجيب، ورغم ترددات مولا التي كانت

Scanned by TapScanner

تبدو في البداية خجولة كونها فتاةٌ متحفظة وحَصَانٌ، إلا إنني قاومتُ خجلها وكنتُ عنيفا الحِصَان. ولمّا التهمت الشمس القمر في الصباح، واختفت النجوم من السماء؛ انتعلتْ مولا حذائي ومضت إلى منزلها دون أن تربط شِسْعَ الحذاء ناسية الكتاب المخيف.

-17-

بينما أحثُّ الخُطى في ذلك الصباح على رصيف شارع فلسطين الذي لا يزال مبللا بمياه الأمطار، وعلى ظهري حقيبتي، أبتغي موقف الباصات في باب دكالة؛ مر من نفس الشارع شاب على دراجته النارية من نوع سي *90* بأقصى سرعة ممكنة. وبما أنّ شارع فلسطين ينعطف من جهة المسبح البلدي فإنّ العجلة الأمامية للدراجة قد زلّت بفعل الإسفلت المبلل، وسقط حينها الشاب الذي لم يكن يرتدِي خوذة على رأسه تحت عجلات شاحنة كبيرة من نوع ميتسوبيشي مُحمّلة بالخضروات، كانت ستنعطف إلى السوق المغطى المتواجد في عين المكان، حيث وقعت رأسه تحت ثقل تلك العجلات الضخمة حتى تشظّت جمجمته مثل بيضة، وتطاير بعضٌ من مخه على حذائي اللامع، فكشطتُ تلك المادّة الآدمية الدافئة برؤوس أصابعي، وواصلتُ طريقي إلى حيثُ أنا ذاهب، في حين تألَّبَ جمٌّ غفير من المصابين بحمّى الفضول على الجثة وسط الشارع، وطفقوا يلتقطون أجمل الصور الصباحية كما جرت العادة.

Scanned by TapScanner

وصلتُ إلى موقف الباص رقم 22 قرب مقبرة باب دُكَّالَة، وسألتُ امرأة هناك عمّا إذا كان الباص رقم 22 سيتأخر، فأجابتني أنه انطلق قبل خمس دقائق فيما سيأتي الآخر بعد أربعين دقيقة تقريبا. وفي تلك اللحظة نفسها عبرت الشارع إلى الحديقة الموجودة هناك، والتي كانت تزدهي بالأشجار المورقة، والأزهار المونقة، والسواقي المُغْدَوْدِقَة. جلستُ هناك على أحد الكراسي واضعا ساقاً على ساقٍ وأشعلتُ سيجارة كاميل الخفيفة، لقد كنتُ أصارع أفكاري وأفكر كثيرا فيما إذا كنتُ سأجد عملا هذا الصباح أم لا، وهل سأجتني النجاح بعد شهر في مباراة التعليم وأغدو أستاذا، أم إنني أحلم بشيء مستحيل التحقق، والعديد من التساؤلات التشاؤمية. وفي الوقت الذي رميت فيه بعقب السيجارة وأردتُ إخراج الأخرى سمعتُ هِرّة تهرهرُ بمقربة مني، وكأنها تجلس على فخذي، التفتتُ يمنة وشمالا فلم أجد شيئا فأشعلت السيجارة. وبينما أنا ساهٍ أمجّ سيجارتي شعرتُ بشيء ما أسفل ساقي، أخفضتُ نظري فوجدتُ هرّة صغيرة تلعق كُمَّ بنطالي، فألقيتُ نظرة على سبب لعقها للكُمّ فإذا بها كانت تلعق بقايا مُخّ ذلك الشاب التي الْتَاطَتْ ببنطالي الكالح والتي لم أنتبه إليها. تركتُ القطة تتابع عملية التنظيف، ورفعت رأسي أدخن وأستمتع برؤية المؤخرات وهي تتمايل على الرصيف.

Scanned by TapScanner

قَدِمَ الباص بعد لحظات من الانتظار فانطلقت نحوه لأحجز مكاني، جلس إلى جنبي رجل عجوز تفوح منه رائحة الموت، ويظهر من لكنته أنه رجل قروي من تلك القرى العربية التي لا يزال أهلها إلى اليوم يتمتعون بالشمائل الدمثة والسخاء العظيم. مدّ الرجل يده إلى جيب جلبابه فأخرج زوجين من حلوى السكاكر وأعطاني واحدة وتناول الأخرى، ليرميني بعدها بسهام من الأسئلة، إذ سألني أولا عن بلدتي ثم عن سبب ذهابي إلى "سيدي الزوين." ورغم أن أسئلته أوَّقتني تأويقا وكانت ثقيلة علَيّ؛ إلا إنني أجبته بكل صدق بأني من إقليم ورزازات وأني ذاهب للبحث عن عمل في الضيعات الفلاحية. وفي هذه اللحظة بالتحديد سمعني رجل كان يجلس في المقعد الذي أمامي والتفت إليّ حتى سقطت طاقيته من على رأسه وبانت صلعته اللامعة، كان رجلا كهلا عريض المنكبين، حليق اللحية وبارز الشارب، يرتدي جلبابا خشنا. -هل تبحث عن عمل يا ولدي؟ همس بلكنته القروية وشدّ بيمناه طاقيته خوفا من أن تسقط مرة أخرى. -نعم. أجبتُ. –أليس لديك مشكلة في أن تعمل حارسا في إحدى الڤيلاّت؟ - ليس لدي مشكلة في ذلك. –ولكن لماذا؟ -لأنه توجد يا ولدي إحدى الڤيلاّت بحي تَارْگَة هنا في مراكش ويحتاج صاحبها إلى حارس يحرسها، لأنه لا يقيم فيها، فهو يقطن في العاصمة الرباط بيد إنه يأتي من حين لآخر لزيارتها، إنه رجل طيب يدعى جاد، ولا أخفي عليك أنني حرستُ

Scanned by TapScanner

هذه الڤيلاّ مدة تسع سنوات دون أن أواجه أيّ مشاكل، كون الڤيلاّ تحرس نفسها بنفسها وتبدو كحصن حصين أو محل مكين، لقد مكثتُ فيها إلى أن تزوجتُ هذه الأيام. –تهانينا، زواج مبارك بدوام السعادة والذرية الصالحة. قاطعتهُ لأهنئه فشكرني ثم تابع كلامه قائلا: ولمّا تزوجتُ تركتُ حراسة الڤيلاّ لأن جاد كما جرت العادة يشترط على الحارس المبيت، وأنا لا أستطيع أن أنام بعيدا عن زوجتي، وفي نفس الوقت لا يمكنني أن آتي بزوجتي إلى الڤيلاّ لأن المدن تفسد طباع النساء، عموما سأعطيك رقمه، اتصل به وقل له أنا من طرف الضَّوْ، فاسمي هو الضَّوْ. -شكرا على مساعدتك سيدي الضَّوْ. -هذا واجب يا ولدي. وأضاف: شرِّفني باسمك يا بني. -اسمي أنير. - تشرفتُ بمعرفتك. -وأنا كذلك. –إذاً دَوِّنْ رقم جاد سأمليه عليك الآن. -لكن ليس لديّ الرصيد للأسف. -لا عليك، سأتصل به بنفسي وأتمنى ألا يكون قد غادر مراكش هذه الأيام لأنه يقطن في الرباط.

اتصل الضَّوْ بصاحب الڤيلا بصوت جهير جدا حتى استدارت نحونا كل رؤوس الركاب، وعرفوا أنني سأشتغل حارسا في إحدى الڤيلاّت، كما عرفوا بأنني شاب أسمر صغير ولطيف من إقليم ورزازات، اسمي أنير وأرتدي معطفا أسودا تحته تيشرت أبيض وعلى إصبعي ضمّاد. لقد تحدثَ معه قرابة الثلاث دقائق ثم التفتَ نحوي ثانية بابتسامة ترقص على شفتيه. -يا لحسن حظك يا أنير! إنه لا يزال في مراكش. -

Scanned by TapScanner

شكرا سيدي مرة أخرى. -اسمعني جيدا يا أنير، انزل الآن قبل أن يبتعد الباص أكثر ثم استقل التاكسي إلى شارع فيكتور هيگو، وأخبر السائق أنك ستنزل عند مقهى سان خوان حيث يجلس الآن جاد، قِفْ أمام المقهى وسينادي عليك، لقد وصفتك له كما أنتَ، وسمعتَ ذك بنفسك، وأبلغه سلامي الحار، وداعا يا ولدي. شكرتُه وتهيأتُ للنزول، ثم أخرج العجوز الذي كان يجلس بجانبي تفاحة خضراء من قلنسوة جلبابه ومنحنيها وهو يبتسم، فأخذتها من يده بابتسامة بريئة ونزلتُ فاستقليتُ التاكسي إلى مقهى سان خوان فيكتور هيگو، حيث لم أقف مثل تمثال أمام هذه الأخيرة كما أمرني الضّوْ ودخلت أجول بنظري نحو كراسي المقهى وطاولاتها التي تنمُّ عن أناقة باذخة. وفجأة لوّح إليّ رجل بيده كان يجلس بمعية فتاة شقراء في مدخل المقهى المطل على شارع فيكتور هيگو دون أن ينتبه إلى دخولي منذ البداية. -إي أنير. صاح بي فذهبتُ نحوهما بابتسامة مصطنعة وصافحتهما، ثم كرّسا لي كرسيا جلستُ عليه، لقد كان رجلاً يقف على أعتاب الأربعين كما يبدو لي، وله شعر يربطه خلف أذنيْه. يرتدي البذلة الرسمية؛ بقميص أبيض عليه صدرية سوداء وربطة عنق زرقاء مزدانة بخطوط بيضاء، وفي يده اليسرى ساعة فخمة، كما أنه كان يضع على رأسه قبعة سومبريرو المكسيكية، أما عيناه فلا تظهران من تحت نظارته الشمسية السوداء مثل القار. فيما تبدو

Scanned by TapScanner

الفتاة الشقراء التي بجانبه أنها لا تعرف العربية، ومظهرها يوحي بأنها فتاة من العالم الجديد. كانت ترتدي هي الأخرى البذلة الرسمية بتنورة لا تتجاوز حد الركبتين وتحتذي حذاء الكعب العالي، وتدخن غليونا. -هل أنت هو أنير؟ سأل الرجل فأجبتُ بنعم. -تشرفت بمعرفتك، أنا جاد وهذه زوجتي آنجلينا من أميركا. -تشرفتُ بمعرفتكما. ابتسمتُ في وجه آنجلينا. -هل تشرب شيئا؟ -قهوة سوداء. -أيتها النادلة، قهوة سوداء لهذا الرجل من فضلك. هتف جاد. -هل أنت صحراوي يا أنير؟ -لا سيدي، أنا من جبال الأطلس. - ممتاز. رشف جاد من فنجان القهوة وأضاف: تعجبني تلك المناطق الشامخة. –شكرا. ارتجلتُ بخجل. -أنا كازاوي ولدت بكازابلانكا، بيد إن أصولي تعود إلى مدينة تِزْنِيتْ، بحيث أن والدي تاجر مجوهرات قدِم إلى كازابلانكا منذ سبعينات القرن الماضي ولايزال يشتغل إلى حدود الساعة أمد الله في عمره كصائغ في قيسارية الحي المحمدي بكازابلانكا. قال جاد بينما زوجته آنجلينا تنظر إلى تلفاز المقهى وتنفث سُحُبا من الدخان بغليونها. -وهل لا زلت تزور مدينة تِزْنيت؟ - نادرا ما أزورها يا صديقي بحكم أن ظروف العمل لا تسمح بذلك، أكتفي فقط بزيارة كازابلانكا حيث اشتريتُ مؤخرا ڤيلاّ هناك بحي عين السبع في شارع اللوز، كما أزور أيضا والديّ بالحي المحمدي، أما مدينة مراكش فأزورها كل اثنين بمعية زوجتي آنجلينا إذ لدي تلك

Scanned by TapScanner

الثيلاّ التي ستراها بعد قليل، إنها جميلة وستعمل فيها بارتياح، لقد اشتريتها منذ عشر سنوات. –أكيد جميلة، لقد تحدث لي عنها الضوْ. -آهٍ على الضوا! تنهد جاد وتابع: كم هو طيب ذاك الرجل، لم أرَ فيه إلاّ حميد الغرائز وكريم الشِّيَم، لقد اشتغل عندي كحارس في تلك الثيلاّ ما يزيد عن ثمان سنوات حتى تزوج وغادر، رغم أنني اقترحتُ عليه أن يقطن رفقة زوجته في الثيلاّ لكنه رفض ذلك. –نعم إنه لطيف جدا. -قُلْ لي أنير، ما مستواك الدراسي؟ -الإجازة في الفلسفة. –أُوهْ، فيلوزوفي! قال جاد بلكنة إنجليزية. -تماما سيدي. -أنت مجاز، فلماذا لم تبحث عن عمل أفضل؟ -في شهر كانون الأول/ديسمبر سأجتاز مباراة التعليم وأتمنى أن يحالفني الحظ. -خيرا ستفعل يا أنير، وأنا متأكد أنك ستنجح ما دمت تريد النجاح، الأمر لا يتطلب الكثير سوى العمل والصبر. أنا أيضا صبرتُ وحصلت على شهادة الإجازة في الحقوق من جامعة كازابلانكا، وبعد ذلك تابعتُ دراستي العليا بالولايات المتحدة الأمريكية حتى حصلت على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة شيكاغو وهناك تعرفت على آنجلينا. –أميركا؟. غمغمتُ بإعجاب وتابعتُ: لقد قرأتُ عنها في كتاب الديمقراطية في أمريكا للكاتب الفرنسي أليكسيس دو توكفيل، لقد أُعجبتُ بأميركا حقا. -إنها بلد رائع يا أنير. -أتمنى زيارتها. -اسمع جيدا يا أنير، إذا لم تنجح في مباراة التعليم في الشهر المقبل

Scanned by TapScanner

فسأساعدك على الهجرة إلى أميركا كي تشتغل في شركة التبغ التي يملكها صهري في مدينة شيكاگو. -أحقا؟ استغربتُ. -إنه وعد يا أنير، أقسم لك أنك ستهاجر إلى أميركا بكل سهولة. -ولماذا بسهولة؟ -إنه عملي. -أيُّ عمل؟ -إني موظف في السفارة الأميركية. -هنا في المغرب؟ - طبعا، في العاصمة الرباط حيث أستقر أنا وآنجلينا. -لا أعرف كيف أشكر حضرتك. -لا داعي للشكر أيها الفيلسوف.

أخذ جاد يتحدث مع زوجته بلغة إنجليزية لبعض الوقت، ثم قام من كرسيه ودفع للنادلة ثمن المشروبات. وبعد ذلك خرجنا نقصد سيارته المركونة جنب الرصيف، والتي كانت سيارة سوداء أنيقة من نوع *جاگوار إي بيس 2018* تحمل لوحة معدنية صفراء عليها حروف عربية، وثمة إشارةُ فهد نحاسي يزين جبين السيارة، أما من الداخل فقد كانت أشبه بغرفة في فندق باذخ، وما إنْ هويت على المقعد الناعم حتى انطلقت السيارة نحو حي تارگة، كان الصباح قد ولّى والشمس بلغت سِمْتَ الرؤوس.

وصلنا في غضون دقائق إلى تارگة بعدما انعقدت بيننا أواصر التعارف، بادهني ذلك الحي الجميل لما يتميز به من نظافة وهدوء تام، إلى جانب النخيل الذي يحوطه من كل جانب. نزلنا من السيارة ودخلنا ڤيلاّ جاد، وفي هذه اللحظة أخذت أجول بأنظاري في أركان الڤيلاّ؛ إنها ڤيلاّ واسعة بما يكفي، بها حديقة صغيرة مزدهية

Scanned by TapScanner

بأشجار البرتقال تجدها على يمينك مباشرة بعد أن تدخل من البوابة، وبها مسبح تحوطه الأرائك والمنضدات الزجاجية. -أنير، هل أعجبك المكان؟ ابتسم جاد. -حقا رائع. -حسنا، إذاً اتبعني لأشرح لك الوظيفة التي ستقوم بها كل يوم في هذه الڤيلا.

تبعته فيما آنجلينا ابتركت على أحد الأرائك قرب المسبح، أشعلتْ سيجارة وأخذتْ تعبث بشعرها وتتصور بهاتفها عبر طريقة السيلفي؛ صورة بعد أخرى. -كما ترى عزيزي أنير هذه الحديقة ستقوم بسقيها كل صباح بواسطة هذه الخراطيم، وذلك قبل شروق الشمس بنحو نصف ساعة، لأنك إذا قمت بذلك بعد طلوع الشمس فإنّ العشب لا شكّ سيتضرّر. -اتفقنا سيدي. -وهنا المسبح؛ حيث في العاشرة من كل صباح ستقوم بأخذ سطل الكلور هذا، وتغرف منه كأسا كبيرة واحدة لا أكثر من مادة الكلور وتلقيه في ماء المسبح. -واضح جاد. - وعلى رُسْلِكَ حتى لا يرتطم الكلور بملابسك فإنه سيبيضها، أما إذا لحق عينيك فأنتَ تعلم ماذا سيحل بهما، وبعد ذلك ستأخذ هذه السلة اليدوية وتزيل بها كل الشوائب العالقة مثل الفراشات والحشرات وأوراق الشجر التي تسقط في المسبح فتطفو على سطح الماء، أما في المساء حينما تغيب الشمس؛ فإنك ستقوم بتغليف هذه الأرائك وكذلك المنضدات بذلك المشمع الأخضر الموجود في القبو حفاظا عليهم من نداوة الليل، لتزيله عنهم بعد طلوع الشمس، وكن

Scanned by TapScanner

حـذرا حتى لا تتكسـر المنضـدات الزجاجيـة. -كـن مطمئنـا، سـأكون حـذرا. -بقيـت عمليـة واحـدة وهي أنـك كل ليلـة في السـاعة التاسـعة ستقوم بكنس قعر المسبح، لا شك أنه سيكون مضاء، فإذا أمعنت النظر الآن ستظهر لك مصابيح مثبتة في قعر المسبح، إنها تضيء تلقائيا في الليل، على أيٍّ، ستكنسه بهذه المكنسة الكهربائية بعد أن تشبّك خرطوم المكنسة بالماسورة، ومن ثم تقوم بتحريكها داخل قعر المسبح مع الحرص على بقاء رأس التنظيف الخاصة بمكنسة المسبح دائما تحت الماء أثناء الاستخدام حتى لا يتسرب إليها الهواء فيتوقف المحرك، وكن متيقظا باستمرار كيلا يصل الماء إلى المحرك في القبو أسفل المسبح فإنه سيتعطل من فوره وستشتغل حينها عندي حولين كاملين بالمجان كتعويض عن خسارته. ضحك جاد وتابع: وبعد ذلك ستخلد إلى النوم، تعال معي لترى غرفتك.

تبعتـه مـرة أخـرى، وهـذه المـرة إلى الحديقـة حيـث كانـت ثمـة غرفـة معزولـة، وخلفهـا يوجـد حمّـام مـزود بالمـاء السـاخن ومطبخ صـغير، كانـت الغرفـة مـن الـداخل مطليـة بصـباغة بيضـاء زيتيـة، لـم تكـن مفروشة باستثناء سرير خشبي كان موجودا في الركن من دون غطاء أو وسـادة، وتـزين الغرفـة نافـذة واسـعة تطل على المسـبح يمكنـك أن تمد يدك منها لتقطف برتقالة طازجة من الشجرة المحاذية للنافذة، غير أن عيـب الغرفـة يكمـن في سـقفها القصـديري. -انتظر لحظة،

Scanned by TapScanner

سـأعطيك بطانيـة ووسـادة، وفراشـا تضـعه على السـرير. قـال جـاد ودخـل إلى غُـرَفِ الڤـيلا التي لـم تسـنح لي الفرصـة لرؤيتهـا، وأتـاني بالفراش والبطانية. –خُذْ، إنه فراش دافئ. فأمسكتُ الفراش من يده وشـكرته. -يبـدو أنني شـرحت لـك بمـا فيـه الكفايـة الوظيفـة اليوميـة المنوطة بك في هذه الڤيلا، هل بات كل شيء واضحا بالنسبة إليك؟ - واضح جدا سيدي. –ممتاز، إذاً سأغادر الآن بمعية زوجتي وسأعود الاثنـين المقبـل، لأنـه دائمـا في هـذا اليـوم تكـون لـدي أغـراض في القنصلية الأميركية بمراكش، مع العلم أنني سأظل أزورك كل اثنين لأدفـع لـك أجرتـك الأسـبوعية. -تعلـم مبلـغ الأجـرة الأسـبوعية أليس كـذلك؟ -كـلا سـيدي. -وألـمْ يخبرك الضـو بـذلك؟ اسـتغرب جـاد. - مطلقا. -حسنا، الأجرة هي ثمان مائة درهم كل اثنين، هل توافق على هـذا المبلـغ؟ فكـان مـن الأقمـن بي والأخلـق لي أن أوافـق، لـذا أومـأتُ بالقبول.-إذاً سأعطيك الآن تسبيقا من مائتي درهم كي تشتري ما أنت في حاجـة ماسـة إليـه كقنينـة الغـاز، وبعـض الأواني أو شـيئا مـن هـذا القبيـل، وسـأقتطعها لـك مـن الأجـرة الاثنـين القـادم، لأنّ جميـع غُـرف الڤيلا والمطبخ والحمّام إلى غير ذلك سيبقى مقفلا دائما في غيابي؛ بمعنى أن لـك حريـة التصـرف فقـط في غرفتـك ومطبخـك والحمّـام الخـاص بـك، وفي الحديقـة والمسـبح، فضـلا عـن باحـة الڤـيلا. -شـكرا لك. -قلتَ لي في الصباح أنك ستستعد لمباراة التعليم أليس كذلك؟ -

Scanned by TapScanner

بلى سيدي. -هل لديك الوثائق والمراجع التي ستراجع فيها؟ فأجبتُ بالنفي. -إذاً دوّنْ لي بسرعة في ورقة كل ما ستحتاجه في الاستعداد لهذه المباراة، لا تخجل في ذلك دوِّنْ كل شيء، سأشتري لك كل الوثائق والمراجع من مكتبة الألفية الثالثة بالرباط ولن أقتطع لك ذلك من الأجرة. فشكرته على إحسانه هذا ودونت على ورقة عناوين بعض المراجع الخاصة بعلوم التربية، وديداكتيك الفلسفة، وجميع كتب الفلسفة الخاصة بالمتعلِّمين بمختلف الشعب والمسالك، والوثائق المتعلقة بمستجدات علوم التربية، والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة الفلسفة، والمقررات الوزارية السنوية، والمذكرات الخاصة بمادة الفلسفة، وكتاب تاريخ الفلسفة لإميل برييه وقصة الفلسفة لويل ديورانت، ثم أعطيته الورقة. –طالما قرأتُ في الجرائد أن الأستاذ في المغرب أصبح يشتغل في إطار ما يسمى بالتعاقد، والأساتذة في الشوارع يطالبون بالإدماج في أسلاك الوظيفة العمومية، هل هذا صحيح؟ سأل جاد. -الأمر صحيح للأسف. -يا لَلكارثة! إنها وصمة عار على جبين المملكة المغربية، سيضحك علينا العالم يا أنير حتى يضرط، لأننا قدّمنا التعاقد مكافأة على المجهودات التي يبذلها المعلم المغربي في إنتاج "المواطن الصالح"، على الرغم من أن المعرفة التي يتلقاها المتعلم المغربي لا ترقى إلى المستوى الذي سيجعل منه مواطنا صالحا يحب وطنه، ويدافع عن حقوقه، ويعبر

Scanned by TapScanner

بكل حرية عن آرائه، ويناضل ضد الحيف واللاعدل. لكنه واضح جدا أن هذا الذي أراد تطبيق التعاقد في مجال التعليم -مع كل الخزي والعار له- لا يريد الخير للمملكة المغربية وللمغاربة أجمعين من طنجة إلى الگويرة، حيث لم يراعي مسألة استقرار الوطن، ويبدو أن همّه هو إبادة المدرسة العمومية التي يدرّس فيها المغاربة أبناءهم، إنه لا يريد الخير لمغربنا بقدر ما هو متعطش لدماء المعلم وتقويض السلم الاجتماعي، لقد خطا هذا الذي لن يسامحه الوطن خطوة انتحارية بارتكابه هذا الخطأ الجسيم؛ وهو إثارة الفتنة في البلاد، وفعله هذا شبيه بمن زرع ڤيروسا فتاكا في جسم سليم ومتماسك فتفكك هذا الأخير. إن التعاقد يا أنير هو تكريس للهشاشة وثقافة الخنوع، وهو إهانة للمدرسة العمومية المغربية، وإهانة المدرسة هي إهانة للوطن نفسه والسعي إلى تفكيك بنيته. -يقولون يا سيد جاد أنها إستراتيجية جديدة مبنية على التزامات الحكومة المغربية مع البنك الدولي. -إستراتيجية خرائية يا أنير، إستراتيجية من استراتيجيات النيوليبرالية التي تبتغي تفكيك القطاع العام وبيعه لصالح الرأسماليين الكبار! استشاط جاد غضبا وأردف: أنا سأذهب الآن، وداعا يا أنير، وأنصحك إذا أصبحتَ في الغد أستاذا أن تتشبث بمبدأ النضال والاحتجاج إلى جانب زملائك الأساتذة، وذلك اقتداء بالمملكة المغربية الشريفة التي وقعت عقد الحماية وبعد ذلك

Scanned by TapScanner

ناضلت وطالبت بالاستقلال، فكل تعاقد فيه إذعان وظلم ينبغي أن نلغيه بدل أن نخضع له إلى الأبد. إلى أن تنالوا مسعاكم وتُدمجوا في أسلاك الوظيفة العمومية التي هي حق مشروع، وإذا لاحظت يا ولدي أن مطلبكم الوحيد الذي هو الإدماج قد تحور إلى مطالب أخرى شعبوية، أو لامست في بلاغات نقابتكم شعارات ذات حمولة اندفاعية وعاطفية أو مفعمة بالحماس السياسي القائم على الانفعال لا الفعل، أو حتى عدائية، أو إقحام بعض المفاهيم ذات إيحاءات مذهبية، أو ركوب بعض الفصائل أو الأحزاب على قضيتكم ومن تم تسييسها، أو شيئا من اللاّتوازن القائم بين القول والفعل، فإني أنصحك آنذاك يا أنير أن تنسحب بكل اعتزاز وتلتحق بعملك خير لك من الشطط السياسي، لأن المبادئ الأخلاقية تبقى في نهاية المطاف أسمى من كل نضال ملغوم يُبنى على المخاتلة السياسية، وإني أقول لك ذلك عن تجربة شخصية عشتها في ثمانينيات القرن الماضي زمن النضال الحقيقي. على أية حال، الكلام طويل ذو شجون، لكنني سأغادر الآن، أراك لاحقا. -وداعا جاد. -أنير. -نعم سيدي. -بما أنك مجد وتسعى إلى النجاح فإني سأمنحك كل اثنين عندما أكون هنا في القيلا إجازةً من الصباح إلى غاية المغيب، وهو الأمر الذي لم يكن يحظى به الضّو من قبلُ. –شكرا جزيلا لك جاد. -لا شكر على واجب أنير، وداعا. *Good bay Anir*- قالت لي آنجلينا مبتسمة وغادرا.

Scanned by TapScanner

فطفقتُ أتجول داخل الڤيلا الشاسعة وأضحك مثل المجنون، وبعد ذلك أخذتُ أرتّب أرائك المسبح تزجيةً للوقت. وأثناء تجوالي داخل حديقة الڤيلا ألفيتُ بعض قنينات الخمر من نوع *هينيكين* ملقية على العشب فأدركتُ أنّ جاداً لم يكن عدوا للكأس.

أرخى الليل أجِلَّته وحارت النجوم في أفق السماء قبل أن تغطيها السحب الثقال، فأخذت هاتفي واتصلت بصديقي كمال وأخبرته عن العمل الجديد، فعبّر لي عن فرحته الكبيرة وسروره العظيم. وبعد ذلك اتصلتُ بحبيبتي مولا وأخبرتها هي الأخرى بأنني وجدت عملا، وقد وصفتُ لها طبيعة هذا الأخير، وأكدتُ لها أنّ مقترحها الذي اقترحتْه عليّ صائب إلى حدود الساعة ويسير في الطريق الصحيح، فانتابتها فرحة عارمة حتى أخبرتني بأنها لا تستطيع أن تفصح عمّا يعتلج في قلبها من سرور، كما أنني وعدتها بأن أراها كل يوم اثنين. ثم تودّعنا.

لم أقدر في تلك اللحظة على الخروج إلى الدكان لاقتناء شيء أتعشى عليه وذلك من فرط العياء الذي كان يستشري في بدني، فتمدّدتُ في سريري مهدود القوى، وبعد ذلك بقليل استأنف المطر نقره على السقف القصديري واكتسحني النوم فجأة.

Scanned by TapScanner

-18-

بعد خمسة عشر يوما:

مرت الآن خمسة عشر يوما على استعدادي اليومي لمباراة التعليم، متوسلا كل الوثائق والمراجع التي اشتراها لي جاد، ومستغلا هدوء الڤيلا ونعومة الأرائك المتواجدة جنب المسبح، وتلك الطاولات التي كنت أقرأ عليها، بالإضافة إلى التحفيز الذي كانت تدعمني به مولا، وصلوات أمي في أعالي الجبال. وقد تعافى أيضا إصبعي بشكل جيد، ناهيك على أنني اشتريتُ نظاراتٍ طبية وصرتُ أرى العالم بوضوح. لقد سخّر لي الله كل الظروف الملائمة لخوض هذا الاختبار المصيري، وذات صباح بارد وندِيّ من يوم الخميس؛ الموافق للخامس من كانون الأول/ديسمبر؛ وبعدما قضيت كل الأشغال الصباحية الخاصة بالڤيلا، جلست على أريكة المسبح وأخذتُ هاتفي بكل رغبة في النجاح، وولجتُ إلى الموقع الإليكتروني الخاص بوزارة التربية الوطنية، ثم شرعتُ أسجل كل معلوماتي الشخصية المتعلقة بالتسجيل القبلي لمباراة التعليم. وفي يوم الأربعاء الحادي عشر من نفس الشهر، أودعتُ ملف الترشيح الذي يتضمن وثائقي الشخصية ونسخةً من شهادة الإجازة، لدى المديرية الإقليمية للتربية والتكوين بمدينة مراكش مقابل وصل. وفي السبت؛ أي الرابع عشر كانون الأول/ديسمبر على الساعة العاشرة مساء، تم الإعلان عبر الموقع

Scanned by TapScanner

الإلكتروني الخاص بوزارة التربية الوطنية عن لائحة المترشحين المدعوين لاجتياز المباراة الكتابية يوم الاثنين المقبل السادس عشر من كانون الأول/ديسمبر؛ على الساعة الثامنة والنصف صباحا، وقد كان اسمي حاضرا بين لائحة المدعوِّين. وما بين الإعلان عن لائحة المترشحين والمباراة الكتابية؛ حددوا لنا موقع اجتياز الاختبار الكتابي، إذ كانت مدرسة ابن حزم الأندلسي بمدينة مراكش، هي مركز الامتحان بالنسبة إلى المتخصصين في الفلسفة، الذين أودعوا ملفاتهم لدى مديرية المدينة الحمراء. وقبل يوم من إجراء الاختبار الكتابي أي يوم الأحد، أعفاني السيد جاد من أشغال الڤيلا تمهيدا للاختبار في الغد، حيث استيقظتُ عند الفجر وطفقتُ أراجع كل الوثائق والمطبوعات التي كانت بحوزتي، وأستدرك ما يمكن استدراكه، وفي نفس الوقت كان جاد يحفزني عبر الهاتف ويوصيني بألاّ أرهق نفسي أكثر مما ينبغي، فإذما أنا أخفقتُ في مباراة الغد، فإنه سيقوم بمساعدتي على الهجرة إلى أميركا، بيد إنني كنتُ مصراً على النجاح في مباراة التعليم وأن أعمل كمدرس لأبناء الشعب المغربي؛ فأدرسهم القيم الإنسانية وحب الوطن وخدمته، ومبادئ الحرية والفكر النقدي والمسؤولية، وروح التسامح وقبول الاختلاف. كما إنني لا أجيد اللغة الإنجليزية ولا أطيق ضوضاء المدائن الكبرى

Scanned by TapScanner

وضجيج السيارات، لذا لم أكن أستحسن فكرة الهجرة إلى أميركا على الرغم من أنني متيم بحب العالم الجديد؛ من ألاسكا إلى باتاغونيا.

موعد الاختبار الكتابي:

الاثنين السادس عشر من كانون الأول/ديسمبر، استيقظتُ في الخامسة فجرا، واستقليتُ التاكسي أرومُ المدينة العتيقة لمراكش، حيث سأجري الاختبار الكتابي في القاعة رقم سبعة من مدرسة ابن حزم الابتدائية. وصلتُ بعد عشر دقائق فقط، إذ كانت الشوارع مقفرة ومراكش لا تزال نائمة يدثرها الليل، وكانت ثمة ريح باردةُ النسيم قادمة من جبال الأطلس الكبير التي تغطيها الثلوج، والتي تحوط بالمدينة. أخذتُ أبحث هنا وهناك عن مقهىً مفتوح أتناول فيه وجبة الفطور مع فنجان من القهوة، دون أن أعثر عليه للأسف، إذ كانت أبواب المقاهي ما تزال موصدة، وهكذا طفقتُ أتجول في شارع آسَفِي بينما تلتقط أنفاسي برد الندى.

سألتُ أحد حراس السيارات في نفس الشارع عن أين يمكنني العثور على مقهى مفتوح في هذا الوقت، فأخبرني أنّ المقاهي في المحطة الطُرُقية تبقى مفتوحة طوال الليل، وقد كانت المحطة قريبة مني تصدح بضوضاء الحافلات وتنبعث منها رائحة البول، كانت مليئة وقتئذ بالمتشردين الذين يتشاجرون فيما بينهم عن قطعة خبز، وبالذين تفرّقت بهم السبل في مدينة الأجانب، وبالمتسولين النائمين

Scanned by TapScanner

جنب الحيطان، علاوة على العاهرات ممن يبحثن عن حُضن دافئ. جلستُ في مقهى المحطة وتناولت فطوري، ثم أخرجت من محفظتي بعض المطبوعات المتعلقة بمباراة التعليم وأخذتُ أراجعها إلى أن طلعت الشمس، فاتجهتُ صوب مدرسة ابن حزم حيث تجمّع عدد غفير من الشباب والكُهّل الذين ظلوا سنوات طويلة يبيعون البطالة في المقاهي الشعبية. كان الجميع هناك يخمن أسئلة الاختبار، إذ صار كل واحد منهم يدلي للآخرين بتوقعاته حول ما يمكن أن يُطرح من أسئلة في الامتحان، لقد كان حقا مشهدا غريبا ومثل كازينو.

القاعة رقم 7:

دق جرس الثامنة والنصف فدخلتُ إلى القاعة رقم 7، حيث جلستُ في الطاولة ما قبل الأخيرة التي تحمل رقمي: 73951. وزع علينا الأستاذان المراقبان أوراق التسويد وأوراق التحرير، ثم أسئلة الاختبار موزعة على تسعة عشر صفحة، وأعلمانا أن المدة الزمنية للاختبار هي ثلاث ساعات. اطّلعتُ على جميع الأسئلة وكبتتُ ضحكتي نظرا إلى سهولة تلك الأسئلة الفلسفية بالنسبة إليّ، والتي كانت أجوبتها راسخة في ذهني بسبب كثرة القراءة. فرغتُ من الأجوبة على أسئلة الاختبار في أقل من ساعتين ونصف ثم قدمتُ ورقة التحرير الخاصة بي إلى الأستاذ المراقب، حيث أمضيتُ وخرجت إلى أقرب مقهى لأدخِّن وأنتظر الاختبار الخاص بعلوم التربية في الثانية بعد

Scanned by TapScanner

الـزوال، الـذي اجتزتـه هـو الآخـر بكل يسـر مـن الثانيـة إلى الخامسـة عصـرا. فاجـأتني مـولا بانتظارهـا لي أمـام بـاب المدرسـة، إذ عـانقتني وربّتتْ على رأسي مثلما يربت مدرب على رأس لاعب سجل هدفا قاتلا في الأنفـاس الأخيـرة مـن زمـن المبـاراة. -كيـف اجتـزت الاختبـار؟ -في ظـروف جيـدة يـا مـولا. -هـل كانـت الأسـئلة سـهلة؟ -كلهـا. -ممتـاز، سـتظفر بالنجـاح لا مندوحـة من ذلـك. -أتمنى ذلـك. -اطمـئن يـا أنيـر، إني أراك أستاذا.

تحـدثنا قلـيلا في الحديقـة المجـاورة لمدرسـة ابن حـزم الأندلسي إلى أن راحـت الشـمس وحـلّ الليـل، فركبتْ مـولا التاكسـي إلى حيـث تقطـن، بينمـا اتجهـت أنـا إلى ڤـيلا جـاد متوسـلا البـاص، كـان جـاد لا يـزال ينتظرني ليقدم لي أجرة الأسبوع، كما جرت العادة كل اثنين. وفي يوم الأربعـاء خـامس وعشـرين كانون الأول/ديسـمبر، على السـاعة الثامنـة وسـبع عشـرة دقيقـة مسـاء، تـم الإعـلان عـن أسـماء النـاجحين في الاختبـار الكتـابي عبر صـفحة فيسـبوك الرسـمية الخاصـة بأكاديميـة جهـة مراكش-آسـفي للتربيـة والتكوين. وقـد كانـت مـولا هي أول من قـرأ الإعـلان فـأخبرتني بـذلك، وهنـأتني تهنئـة بهيجـة، بل إنهـا أكـدت لي أنهـا كانـت متيقنـة من نجـاحي قبـل صـدور الإعـلان، كمـا سـرّ كثيـرا بنجـاحي كل من صـديقي كمـال وجـاد، بيـد إنني لـم أتصـل بـأمي وأخبرهـا بهـذا الاسـتحقاق، مفضـلا انتظـار النجـاح في الاختبـار الشـفوي حتى

Scanned by TapScanner

تستطيع أن تكتمل الفرحة وحينذاك يمكنني أن أخبرها بنجاحي بكل فخر واعتزاز.

الاختبار الشفوي:

الاثنين ثلاثون كانون الأول/ديسمبر، أقفُ في صباح بارد على الساعة التاسعة أمام بوابة المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بمراكش، وأنظر إلى ساعتي اليدوية باستمرار، مرتديا زيا رسميا بحذاء بني برّاق، إنها بذلة مهداة من مولا بغية اجتياز الاختبار الشفوي في أفضل الظروف. لقد كان عدد المترشحين الناجحين في الاختبار الكتابي هو ثلاثة وثلاثون فقط من أصل خمسمائة وثمان وسبعين ممن أجروا الاختبار الكتابي، وقد كنت أنا واحدا من هؤلاء الثلاثة والثلاثين نشكل طابورا أمام بوابة المركز، حيث كان يقف عند المدخل شخص ينادي بأعلى صوته بعد كل خمس وأربعين دقيقة، على اسم من أسماء المدعوين حسب الترتيب الموجود في اللائحة بين يديه، وقد كنت أحتل أنا المرتبة الثالثة، وفي تمام الساعة الحادية عشرة وسبع عشرة دقيقة، نادى عليّ فدخلت متجها نحو القاعة رقم خمسة كما أمرني. كان في القاعة لجنة مكونة من ثلاثة أساتيذ عبوسي الوجه، طلبوا مني الجلوس إلى طاولة كانت قبالتهم، فجلستُ وعرّفتهم بنفسي، ثم شرعتُ أتحدث باختصار عن موضوع بحثي الخاص بالإجازة بأمر منهم، وقد تحدثت بطلاقة ولغة فصيحة. بعد

Scanned by TapScanner

ذلك أمروني بترجمة مفهومي "الوجود في ذاته" و"الوجود لذاته" إلى اللسان الفرنسي، فتفوقتُ في ترجمتهما. أمّا الأسئلة التي طرحوها عليَّ فكانت كالتالي: "ما المقصود بمفهوم الدَّيْمُومَة عند بِرْجِسُون؟" و"عرِّف مفهوم الحَدَثَيَّة عند مارتن هايدغر" و"ما الفرق بين فلسفة الدين والفلسفة الدينية"، و"ما الفرق بين النُّومين والفينومين؟" و"عرِّف الإنِّيَّة والأيْس، واللَّيْس واللَّمِّيَّة، والعقل المستفاد، في الفلسفة الإسلامية"، و"ما معنى الأَسْفَهْبَنْدْ عند السهروردي المقتول؟" "وما الهباء عند ابن عربي؟" و"تحدثْ باختصار عن صُحبة النَّبات عند ابن عربي"، و"ما معنى الكسب عند أبي الحسن الأشعري؟"، و"من هو صاحب مفهوم الأنْدْرُوجين؟" "وهل يمكن للوعي أن يكون وهما؟"، و"اشرح نظرية طرد الهمّ عند ابن حزم الأندلسي"، وأخيرا "ما الفرق بين الإيمان والاعتقاد؟" وقد أجبت على جميع الأسئلة باستثناء السؤال الأخير وخرجتُ.

الإعلان عن النتائج النهائية:

الأربعاء فاتح كانون الثاني/يناير، أو فاتح السنة الميلادية الجديدة؛ الساعة الخامسة عصرا، حيث كنت جالسا على أريكة جنب المسبح في ڤيلا جاد وأعبث بهاتفي ريثما تغرب الشمس فأغطي جميع الأرائك بالمشمّع. وفي الخامسة وواحد وثلاثون دقيقة وقعتْ عيني على الإعلان عن الأساتذة الناجحين بصفة نهائية، كان قد نشرتْه صفحة

Scanned by TapScanner

أكاديمية جهة مراكش-آسفي للتربية والتعليم على صفحتها الخاصة في فيسبوك قبل دقيقة فقط، كان قلبي يخفق بشدة ويداي ترتعشان بينما أنا أبحث عن اسمي وسط الواحد والعشرون أستاذا الذين نجحوا بصفة نهائية في جهة مراكش، فيا له من حظ جميل! لقد كان اسمي موجودا بين تلك الأسماء، لم أستطع أن أتمالك نفسي فوضعت الهاتف وارتميتُ في وسط المسبح دون أن أحسّ ببرودة الماء من شدة الفرح. ثم خرجتُ من الماء أجري وسط الثيلا وأضرب على صدري صارخا بأعلى صوتي: لقد أصبحتُ أستاذا.. وأخيرا أصبحتُ أستاذا! ولمّا تذكّرتُ أمي اتجهتُ مباشرة إلى هاتفي المرمي فوق الأريكة كي أتصل بها وأخبرها بنجاحي المستحق حتى تستطيع أن تفرح بابنها الذي أصبح أستاذا، فأخذته بعد أن جفّفتُ يدي بمنديل ورقي كان موجودا على المنضدة، كان إعلان الأكاديمية في فيسبوك لا يزال موجودا بعد أن فتحتُ هاتفي، غير أن الجديد هو رسالة من حساب مجهول كانت قد باغتتني للتو عبر الميسانجر. نقرتُ على الرسالة وأخذتُ أقرأ:

عزيزي كوتشو

وأخيرا وجدتُ حسابك على فيسبوك، سنةٌ سعيدة لك ولكافة أفراد عائلتك الكريمة. يؤسفني كثيرا أنْ أخبرك أنني حامل منك، وقد عرف ذلك بابا وماما وكل أصدقائي وأساتذتي بالمدرسة، بعد أن أصبح

Scanned by TapScanner

بطني بارزا قليلا وتراودني أوجاع مؤلمة، كما إنني كنت أتقيّأ داخل الفصل الدراسي. وقد اقتادني بابا إلى الطبيب الذي أكد لنا أنني حامل، لقد ضغطوا عليّ كثيرا يا كوتشو وأخذوا يعنفونني؛ بابا، ماما، عمي، خالتي.. جميعهم ضربوني ضربا داميا. كما أن صديقاتي وأصدقائي في المدرسة وأبناء حومتنا جميعهم صاروا يُعَيِّرونني بصوت واحد: "العاهرة.. لقد جلبتِ أيتها العاهرة العار على مدرستنا وحومتنا!" ويبصقون في وجهي. لقد حكيتُ يا كوتشو لوالديّ كل شيء، كما إنّ بابا ضغط عليّ كثيرا بأن أقول أمام الضابطة القضائية إنّك اغتصبتني بالعنف، وقد فعلتُ ذلك أول أمس فاتهموكَ أخيرا باغتصاب قاصر نتج عنه فض البكرة مع الحمل وهروبك إلى مكان مجهول.

جارتك لمياء.

قرأتُ رسالتها وكسّرتُ هاتفي بعدما ضربته على عرض الحائط، يا له من عام جديد، إنه عام السجن! قلتُ في نفسي.

Scanned by TapScanner

Scanned by TapScanner

الجزء الثاني: في السّجن

السجن ثكنة صارمة قليلا، مدرسة بدون تساهل، مشغل قاتم، ولكنه، في نهاية الأمر، لا يختلف عنها بشيء من الناحية النوعية.

ميشال فوكو، الحِراسةُ والعقاب.

Scanned by TapScanner

Scanned by TapScanner

-19-

انفلق الإصباح، فأيقظتني أولى أضواء النهار الشاحبة التي تسربت في الهواء البارد، بعدما نمت ليلة كاملة في العراء، ممددا على عشب الثيلا، ومبللا بالماء البارد، وقد بات الجوع يقلقل كبدي، حزينا، وحيدا محيدا. حملتُ الشريحة وهي ما تبقى من الهاتف المهروس، والتي لا زلت أحفظ فيها أرقام من هم أقرب إليّ في وقت العواصف والأزمات، وخرجت تاركا ورائي مستقبلي الأخرس، أمشي الهوينى مثل جندي جريح ملطخ بالدم، يرتجف، ينهار، ويدحرج أيامه الأخيرة نحو الموت. توقفت عند بائع السجائر الذي يتهيأ لبداية عمله ببيع أولى سجائره لمعكري المزاج في صباح بارد، كان يرتب بعناية صندوقا جنب الرصيف، مزينا بعلب السجائر الفارغة وقطع الكرتون. -سيجارة گولواز من فضلك. قلت له. -قل صباح الخير أولا. رد عليّ وأضاف: -يا له من صباح لعين. حاولتُ تعديل طريقتي في الحوار هذه المرة فقلتُ: -معذرة، صباح الخير.. گولواز من فضلك. فسألني: -سيجارة واحدة؟ أجبت بنعم. -ليس عندي گولواز. —حسنا، إذاً أعطني سيجارتين. - قلت لك أيها المتشرد ليس عندي گولواز. -إذاً أعطني واينستون. -خذ ها هي ذي. -القدّاحة من فضلك. -هل معك قبل كل هذا نقودا أيها المخبول؟ لأن كثيرا مثلك يأخذون السيجارة ويلوذون بالفرار. -بالطبع لدي نقود. -خذ القدّاحة وانظر إلى نفسك، إنك في حال يرثى لها؛

Scanned by TapScanner

مبلـل، وملطـخ بالوحـل كالكلـب. نظـرتُ إلى هيـأتي فوجـدت نفسـي ملطخا بوحل حديقة الڤيلا، ومبللا أيضا كما نعتني تماما، يتصاعد من ملابسي بخار لازوردي بسبب أشعة شمس الصباح الباكر، كنت حقا مثل متشرد، مثل كلب القمامة، لذلك لم أغضب من كلامه فقلتُ له بكل إذلال: -لو تفضلت، هل يمكن أن تعيرني هاتفك؟ أريد التحدث إلى أمي. فكان رده: -لا بأس بذلك شريطة ألا تتعدى دقيقة واحدة فليس لدي رصيد كاف. أخذت هاتفه واتصلت بأمي فأجابني أخي إكسيل. -إكسيل أتمنى أن تكون بخير، أريد التحدث إلى أمي نادِ عليها بسرعة سينفد الرصيد الآن. قلتُ له. تأسف إكسيل قائلا أنه لا يمكنني أن أتحدث مع أمي، فهي ترقد الآن بالمستشفى الإقليمي بمدينة ورزازات، وقد رافقتها إلى هناك والدتها وهي جدتي عكو باروخ، والخطير في الأمر أن الطبيب صرح لجدتي بأن أمي تعاني من مرض بالقلب، ونصحها بعدم إبلاغها بالأخبار السيئة جدا لأنها قد تموت بسكتة قلبية في أي لحظة. والسبب في تواجد أمي الآن بالمستشفى هو أنه قد أغمي عليها بسببي كما قال إكسيل بعد أن جاءهم عون السلطة بدعوة من الدرك الملكي، ووضح لأمي بأنني اغتصبتُ فتاة قاصر، فلم تستطع المسكينة تقبل النبأ المشؤوم بدعوى أنها أحسنت تربيتي. –وماذا عن حالتها الصحية الآن يا إكسيل؟ هل يجب أن آتي؟ -لا تشغل بالك أخي، إن حالتها الآن مستقرة ولا تدعو إلى

Scanned by TapScanner

القلق. –حسنا، إكسيليتو أخبرني متى ستغادر أمي المستشفى؟ - ستخرج اليوم في المساء كما أن خالي إيدير سيتكفل لها بمصاريف الأدوية. –ممتاز صغيري. –أخي، أريد أن أسألك سؤالا. –نعم إكسيل تفضل. –ماذا يعني الاغتصاب؟ -إكسيليتو، اسمعني جيدا، عندما آتي سأشـ... -أعطني الهاتف وأُغرب عن وجهي أيها المحتال فقد أهدرت رصيدي. خطف بائع السجائر العجوز الهاتف من أذني غاضبا دون أن ينهي إكسيل كلامه.

واصلت المشي على الرصيف خارجا من حي تارغة الأنيق، و من حين لآخر كنت أتوقف لحظة مطلقا العنان لصخب أفكاري، أتحدث إلى نفسي، وأغوص عميقا في خبايا ذاكرتي. لقد تذكرت عبارة الماركيز جاد حيث وعدني بأنه سيساعدني في الهجرة إلى أميركا إذا أنا أخفقت في أن أصبح أستاذا. بدت لي هذه الفكرة أنها الخيار الوحيد المتبقي لدي، فأن أهاجر إلى أميركا، خير لي من أن أصير أستاذا متعاقدا يدرِّس في قرية نائية لا تتوفر على صنبور ماء، بيد إن المشكل يكمن في كون جاد وعدني بمساعدته لي على الهجرة إلى أميركا إذا أنا فشلت في مباراة التعليم، بينما أنا الآن من الناجحين. زد على ذلك كيف يمكنه أن يخاطر بنفسه ويساعد مجرما على الهجرة. لقد شاءت قوانين الطبيعة أن أسجن مع بداية هذا العام الجديد، وينبغي عليّ أن أخضع لمشيئة القدر. وبما أنني كنت أتوقف كل لحظة أثناء المشي

Scanned by TapScanner

على الرصيف، ليجود عليّ دماغي بفكرة جهنمية تحول دون الزج بي في ظلمات السجن، حتى تذكرت أنني لم أحمل معي النقود التي كنت أحصل عليها كل اثنين من عند جاد، والتي كنت أضعها تحت وسادتي. فعدت أدراجي نحو الڤيلا التي نسيت أن أغلق بوابتها، فحملت النقود وغيرت ملابسي المبللة بماء المسبح، إذ ارتديت البذلة الرسمية السوداء مع ربطة العنق والحذاء البرّاق، وهي البذلة التي اجتزت بها الاختبار الشفوي لمباراة التعليم، وحملت حقيبة الظهر، ثم خرجتُ بعدما أغلقتُ بوابة الڤيلا واحتفظتُ بالمفتاح في جيبي. مررت ببائع السجائر نفسه وطلبت سيجارة واينسطون. -هل أنت هو..؟ فغر الرجل العجوز فاهه وهو يتلعثم. نفثتُ دخان السيجارة في وجهه بكل تكبر وعجرفة، ثم صعدت التاكسي من أمام صندوقه. كان أول شيء قمت به ذلك الصباح من يوم الخميس، هو شراء هاتف نقال من أجل معاودة الاتصال بأمي والاطمئنان على صحتها. لكن مع كامل الأسف لم يجب أحد هذه المرة على مكالمتي، فاتصلت بحبيبتي مولا التي قالت إنها باتت تتصل بي من دون جدوى، لأنها كانت تجد هاتفي غير مشغل. لكنني كنت بارعا في الكذب، كما أن لي خيالا واسعا يكفي لتأليف عشرات الروايات، حيث أجبتها أنني ألقيت بنفسي -من كثرة ما فرحت- في المسبح، غير مكترث لأمر الهاتف الذي كان في جيبي. وسرعان ما نسيتْ موضوع الاتصال

Scanned by TapScanner

وهنأتني بمناسبة نجاحي، وقالت إنها ستنتظرني في مقهى إيسبيرانسا على الساعة الواحدة بعد الزوال من أجل تهنئتي.

-20-

ذهبت في الساعة الواحدة بعد الزوال إلى مقهى إسبيرانسا في شارع علال الفاسي، كانت مولا تجلس في الطابق العلوي من المقهى، على طاولة بمحاذاة النافذة التي كانت تنظر عبرها إلى الشارع، واضعة كفها على ذقنها. ابتسمتْ في وجهي ما إن رأتني، وقامت من كرسيها تعانقني معربة عن فرحها بمناسبة نجاحي الفاشل. -ألف مبارك حبيبي. قالت لي وأضافت: لِمَ لَمْ ترد على التهنئة التي كتبتُها لك في صفحتك على فيسبوك؟. – أعتذر حبيبتي لم أَلِجْ حساب فيسبوك، على العموم شكرا جزيلا لك، فأنا نجحتُ بفضل تشجيعاتك طبعا. - لا تقل هذا فأنتَ نجحتَ بفضل عزيمتك وإرادتك الكاسرة التي لا تلين رغم ظروفك القاسية، أنت مثل الفلِّينة التي لا تغرق يا أنير. - وبفضل شيء من الحظ أيضا. قلتُ مبتسما. -الأمر يا حبيبي يتعلق باستحقاق وكفاءة وليس حظا. -هل أنا حقا ذا كفاءة وأستحق أن أكون أستاذا؟ سألتها. فأجابت ضاغطة على يدي: -أنير، ما هذا الكلام؟ طبعا تستحق ذلك بل أنت تستأهل أن تكون أستاذا في الجامعة، ثق في قدراتك عزيزي. شكرتُ لها لطفها وقبلت يدها. - حبيبي لدي طلب. قالت. -طلب؟ أعربتُ عن استغرابي ثم قلت: -نعم

Scanned by TapScanner

عزيزتي اُطلبي ما تشائين. فطلبت مني أن أغمض عيني حتى تأمرني بفتحهما. -اللعنة أيُّ لعبة هذه؟ ضحكتُ وأردفتُ قائلا: -اُنظري لقد أغلقتهما. مهلا لا تفتحهما الآن. لن أفتحهما. قلت لها. -والآن افتحهما. وحينما فتحتُ عيني، وجدت على الطاولة علبة من الكرتون كانت بمثابة هدية. فتحتُ العلبة فكان بداخلها حاسوب Asus ROG Mothership GZ700. -أوه، يا لها من هدية عظيمة! إنه حاسوب خيالي حقا شكرا بِجُزاف غاليتي. قمت وعانقتها. -لا داعي لأن تشكرني حبيبي، أنت تستحق العالم وأشياءه الجميلة، هذه بالنسبة إلي مجرد هدية بسيطة قد تساعدك في وظيفتك الجديدة. أما أنت فلا تقدر بثمن يا أنير. ضغطتُ على يدها وقلت: -أنتِ بشحمك ولحمك أعظم هدية في حياتي، لن تستطيعي تقدير الفرح الذي ينتابني الآن بفضل هذه الهدية الكبيرة، إنه شعور لا يوصف، يزيدني شجاعة وقوة. فكان ردها: -إنه نفس الشعور الذي يخامرني نتيجة نجاحك المستحق، لقد اتضحت الآن معالم مستقبلنا بشكل جلي، وبات زواجنا أمرا وشيكا؛ فأنت الآن ستقضي ستة أشهر في مركز التكوين ريثما أحصل أنا على شهادة الإجازة، وبعد ذلك سنعقد قراننا مباشرة في فصل الصيف قبل تعيينك، وأتمنى بكل صدق ألاّ يبعدوك عن مدينة مراكش. على أية حال فالجميل في كل هذا أنك على الأقل

Scanned by TapScanner

ستخضع للتكوين والتدريب بمدينة مراكش، وهو الشيء الذي سيتيح لنا فرصة رؤية بعضنا البعض.

جلسنا هنالك في المقهى ما يزيد عن ساعة، حيث لم تكن مولا تخوض في حديث آخر غير الزواج والتخطيط له، في حين كنت أنا أصغي لقرقرة بطني بسبب الجوع. لم أكن منتبها بالشكل الجيد لكلام مولا، ولم أكن أكترث لمخططاتها التي ستبوء حتما بالفشل، بقدر ما كنت غارقا في التفكير في مصيبتي، والبحث عن حلول تحول دون دخولي السجن، فبطبيعة الحال لم تكن مولا عالمة بما حدث ولست أظنها ستغفر خطيئتي لو أنها عرفت ما جرى.

أنهينا حديثنا الذي نالت منه مولا حصة الأسد، ثم نظرت إلى ساعتي اليدوية وقلت لها: -حبيبتي ينبغي علي أن أذهب الآن. فسألتني: -إلى أين؟ أجبت كاذبا: -سأسافر إلى قريتنا لرؤية أمي وإخوتي، سأحْدث لأمي مفاجأة وسنفرح جميعنا بنجاحي، لقد أخبرتُ جاد بذلك. -ومتى ستدفع وثائق وظيفتك الجديدة؟ -سأعود قريبا لن أتأخر، من فضلكِ احتفظي بالحاسوب عندكِ ريثما أعود، لا أريد آن يراه أشقائي، لأنهم سيقومون بتعطيله طبعا، تعلمين ذلك. -حسنا سأحتفظ به إلى أن ترجع، بلغْ سلامي الحار لحماتي. قالت لي ذلك وأضافت: -رافقتك السلامة *كَرِينْيُو*. فسألتها: -هل ستمكثين في المقهى؟ فأجابت تقول: -ليس كثيرا، سأراجع فقط محاضرة الأمس. -

Scanned by TapScanner

حسنا بالتوفيق. قلت لها وانصرفتُ. -إي لحظة. نادت عليّ فتوقفت في مكاني دون التفات، فقامت من كرسيها وجاءت إليّ تقول بنبرة الطفلة البريئة: -أنير لِمَ أنتَ حزين؟ -أنا؟ لا، لستُ حزينا. -أنير أُنظر في عيني وأعطني كلمة الشرف بأنك لا تكذب عليّ، هل حدث لك شيء لم أعلمه؟ هل أنتَ بخير؟ -طبعا حبيبتي أنا بخير. فطرحتْ سؤالا جديدا: -لِمَ لستَ سعيدا بنجاحك؟ -بالطبع أنا سعيد بنجاحي، فقط مصدوم قليلا لأنني أصبحتُ أستاذا ولم أستطع تصديق ذلك. -قلت لكَ ثق بنفسك حبيبي. أمسكتْ بكلتا يديّ وأضافتْ: -على العموم رافقتك السلامة، وكن حذرا من أن تخونني، لأنني لن أعيش لحظة واحدة بعد خيانتك لي ولن أتردد في شنق نفسي عند أقرب شجرة أجدها. افتعلتْ ابتسامة ساخرة. -طبعا لن أفعل يا دبدوبتي اطمئني. قبلتني في خدي الأيمن وانصرفتُ. وفي طريقي إلى المحطة الطُّرُقية، تلقيت مكالمةَ كلٍّ من كمال والماركيز جاد كما أفضل أن أسميه، هنأني كل واحد منهما بحرارة بمناسبة نجاحي. بل إن جاد اقترح علي أن يأتي إلى مراكش فنذهب كلانا إلى الديسكو ونحتفل، لكنني أجبته كاذبا بأنني سافرت على وجه السرعة إلى قريتنا بسبب مرض أمي، وإنني جمعت أغراضي وغادرت القيلا. -أتمنى لها شفاء عاجلا. قال لي ثم أضاف: قُل لي يا أنير، هل لا زلتَ تحتفظ بمفتاح القيلا؟ -نعم إنه بحوزتي، وسأحتفظ به إلى أن ألتقي بك في مراكش.

Scanned by TapScanner

-وهـل سـتعود إلـى مـراكش؟ -بـالطبع، حيـث سـأتابع التكـوين البيـداغوجي بمدينـة مـراكش. -آه، جميـل جـدا، ولكـن مـاذا عـن السكن؟ هل ستكتري؟ -في الحقيقة لا أعرف، لا زلت أفكر في الأمر. - لدي اقتراح يا أنير؛ ما رأيك في أن تسكن في الڤيلا وتواصل فيها عملك مادمت ستبقى في مراكش؟ –اقتراح مناسب يا جاد. قلتُ متنهدا فردّ يقول: إذن احتفظ بالمفتاح إلى أن تعود إلى مراكش واذهب إلى الڤيلا، اعتبرها بيتك يا أنير وامكث فيها ما شئت، حتى وإن تزوجتَ فليس عنـدي مشـكلة أن تقطـن هنـاك بمعيـة زوجتـك، وقـد سـبق لي أن اقترحتُ نفس الأمر على الضّوْ، إذ ما يهمني هو أن تعتني بحديقة الڤيلا وتحفظها من الضياع. –شكرا جزيلا *سيْنيور* جاد. –عفوا أنير، وداعاً. أقحمت الهاتف في جيبي ثم ركبت في أول حافلة كانت متجهة إلى كازابلانكا، المدينة التي ظننتُ أنني لن أعود إليها مجددا.

-21-

وصلت إلى كازابلانكا في السادسة مساء، حيث شرع الليل الحزين يغتال فرح النجوم، والبرق يومض في جفون السحاب من بعيد، ما هي إلا لحظات وهطل المطر، فاستقليت التاكسي إلى البار وطلبت ست بيرات من نوع إسبيسيال بعدما جلست بجانب النافذة المطلة على الشارع، كنت أشرب وأنظر من النافذة، بينما المطر الخفيف يواصل هطوله، لم أكن أنظر إلى المارة الحاملين مظلاتهم، ولا إلى

Scanned by TapScanner

السيارات التي تمضي، ولكن كنت ساهٍ أفكر في مشكلتي. أنهيتُ الزجاجة الأولى ثم طلبت من البارمان أن يزودني بالرقم السري للواي فاي، فولجت إلى حساب فيسبوك لأرى إن كانت لمياء قد أرسلت لي رسالة، وهو الشيء الذي وجدته؛ حيث أرسلتْ لي لمياء رسالة مطولة قبل ساعتين. نقرت على الرسالة وقرأتُ الآتي:

مساء الخير كوتشو، أتمنى أن تكون بسلام.. أشكرك كثيرا لأنك لم تقم بحظري من فيسبوك. أود فقط أن أخبرك بأنني حكيت لبابا عن علاقتنا بالتفصيل قبل أن يعتذر مني، ويتأسف عن ضربه لي. أخبرته أننا نحب بعضنا البعض، فأكد لي أنه سيتنازل عن الدعوى إذا ما أنت تزوجت مني. لذا فإنني أمنحك أربعا وعشرين ساعة لتأتي ونعقد القران، فمراكش ليس تبعد كثيرا عن كازابلانكا أستاذي العزيز. ستسألني من أين علمت أنك صرت أستاذا؟ وسأخبرك أني علمت ذلك من خلال عبارات التهاني التي تلقيتها من عند أصدقائك وصديقاتك في صفحتك على فيسبوك، أولها تلك التهنئة الكريهة التي كتبتْها لك في صفحتك على فيسبوك تلك الفتاة التي تظهر من خلال صورتها الشخصية ترتدي ملحفة صفراء كالخراء، ونظارات شمسية واسعة من الموضة التي أكل عليها الدهر وشرب، والتي تضع اسما مزيفا على حسابها؛ أظن أنه أميرة الصحراء. واعلم يا كوتشو أنك إذا قمت بحذف ذلك المنشور السخيف، فإني لا أزال أحفظه عن ظهر

Scanned by TapScanner

قلب وهو كالتالي: "ألف ألف مبارك حبيبي الغالي.. تستحق الأفضل دائما". إني أعلم أن تلك المحتالة تتلاعب بمشاعرك، وتوهمك بأنها تحبك، وقد تواعدتما وذهبتَ إلى مراكش لرؤيتها، أعلمُ ذلك. لقد ولجتُ إلى صفحتها، وعثرت على صورة حديثة العهد، حيث تجلسان في جو رومانسي على تل وسط مدينة مراكش. عزيزي كوتشو اعلمْ جيدا أنك لا تحب تلك البدينة قبيحة الهيئة، ربما لأنك لا تستطيع جرح مشاعر الآخرين، إنها تستغلك يا كوتشو، أعرف جيدا مثل هذا النوع من النساء الذي يتلاعب بقلوب الرجال. كوتشو، ليس لدي متسع من الوقت كي أقنعك بأن تلك القحبة تخدعك، لكن ما أستطيع قوله هو أنه لديك خيارين: إما أن تأتي في الغد ونتزوج، وإما سأفضحك. هل تعتقد يا كوتشو أني فتاة غبية يمكنك التلاعب بها بكل هذه السهولة؟ إنك حقا لمخطئٌ إذا كنت تظن ذلك. بالعكس قد تكون أنت الغبي، وأنا الذكية. لا تحسبنَّ نفسك قد لعبتَ دور المجرم، بينما كنتُ أنا الضحية، لأن العكس قد يكون هو الصحيح، بل إنه صحيحٌ بالفعل، وأنا هنا لأثبت لك أنه صحيح. لقد تأكدتُ جيدا أنك رجل قليل الانتباه، إلى جانب أنك ضعيف النظر. سكنتَ غرفتنا مدة ليست بالقصيرة، ومع ذلك أنا متيقنة أنه إذا سألتك عن لون طلاء جدرانها فإنك لن تذكره. فما بالك إذا أنا سألتك عن الكُوّة في أعلى جدار الغرفة والتي لا يتعدى عرضها الشبر الواحد والتي

Scanned by TapScanner

كانت مغلقة بقطعة قماش بنفس لون الغرفة، ها؟ لم ترها أليس كذلك؟ بلى، أنا واثقة من أنك لم ترها، لقد كانت على اليمين في الأعلى، إلى درجة أنه يمكنك أن تجلس على الدرج وتنزع قطعة القماش تلك بيدك اليسرى لترى كوتشو وهو يعبث بقضيبه ويستمني، وبعد ذلك ترجع قطعة القماش تلك إلى موضعها دون أن يستشعر كوتشو الأبله ذلك هههه. إن تلك الكوة يا كوتشو كنتُ قد وضعتُ فيها هاتف ماما في تلك الليلة، بعدما أخذته من أخي الذي يظل يلعب من خلاله في لعبة فري فاير، كان قد غط في نومه وقتذاك. على أية حال، أخذتُ الهاتف ووضعت فيه بطاقة الذاكرة من ست عشرة جيغا، ثم شغلت كاميرا فيديو ووضعت الهاتف في تلك الكوة. كانت نسبة الشحن في الهاتف على ما أذكر ستون بالمائة، على العموم وضعته في الكوة قبل أن أنزل إليك بالطاجين الشهي. لم تكن هذه خطة جهنمية مِني، وإنما كان غرضي في تلك اللحظة أن أوثق أولى لحظات علاقاتنا الحميمة، فالبدايات مهمة جدا ويجب أن تظل محفوظة في الذاكرة وتقام لها ذكرى سنوية. لذا كنت سأطلعك على شريط الفيديو في اليوم الموالي، لكن خشيت أن تغضب مني وتقوم بحذفه، لم تكن نيتي سيئة أقسم لك. على أية حال عزيزي كوتشو، لن أطيل عليك أكثر، فشريط الفيديو محفوظ بحوزتي، لهذا أتمنى أن تأتي في الغد لعقد قراننا وتقبّل ابنك الذي في بطني،

Scanned by TapScanner

وإذا رفضتَ فإنك تعرف جيدا ما بمقدوري فعله رغم أن الجواب واضح، وهو أنني سأنشر الفيديو في الإنترنيت وأشوه سمعتك، ستغدو ممثل أفلام بورنو مشهور للغاية. كما إنني سأرسله لتلك العاهرة الصحراوية عبر حسابها في فيسبوك لتعرف من أنت، وسأحاول العثور أيضا على حسابات أفراد عائلتك على فيسبوك لأرسل إليهم الفيديو، إن الكرة الآن في ملعبك يا كوتشو فإما أن تصنعني كواحدة من أجمل الأهداف في التاريخ، أو تقذف بي بعيدا صوب الجماهير الغاضبة، لكن لا تنسى أنها فرصتك الأخيرة، إنها آخر دقيقة من زمن المباراة. وداعا كوتشو سأرسل لك الفيديو بعد أن تقرأ هذه الرسالة.. أربع وعشرون ساعة تذكّرْ ذلك.

جارتك المراهقة. أحبك.

توقف قصير.. جاري تحميل الفيديو.

أرسلتْ لي الفيديو، وبعد قليل نقرت عليه لأشاهده، كان بالفعل ما كتبته صحيحا. لم أتحمل مشاهدة الفيديو كاملا، لكن على الأقل تحققت من صدق قولها؛ رأيت نفسي عاريا أمارس الجنس مع لمياء، ويبدو من خلال الفيديو أنني أقوم بتعنيفها؛ لأنه لا يوجد صوت في الفيديو ليثبت العكس، وهذه مشكلة أخرى. لقد خَرْبقَتْ لمياء حياتي بواسطة هذا الفيديو اللعين الذي لا يني يذكرني بأنني رجل غبي وبليد، لقد وضعت ثقتي العمياء في لمياء، وبسبب هذه الثقة

Scanned by TapScanner

العشـوائية أصـبحت منـدورا للحـزن والأسـى، فحتى إذا مـا دخلـتُ السجن فإنني عند الخروج منه لن أعلق مرة أخرى أملا على شيء، وهذا شرط لازب لكي أرفل في سعادة وهناء فيما تبقى من عمري. لا أنكر أنني قبل التعرف على لمياء ولا حتى مولا كنت أرفل في حياة يطبعها الفرح والسعادة، وما إن تعرفت عليهما حتى صرت أكتوي بنار البؤس، وهذا دليل على أن الارتباط بالأشخاص والالتزام تجاههم هو أحد مسببات الألم.

توقفت عن مشاهدة الفيديو وأرسلت لها رسالة كتبتها أصابعي المرتجفة، كتبت لها فيها أنني غير قادر على المجيء غدا، وطلبت منها أن تسـتميحني عـذرا وتؤجل الموعد إلى يوم الأحد. لكنها أجابتني في الحين رافضة التأجيل، بدعوى أنها ستخرج صباح يوم الأحد في رحلة مدرسية إلى غابة المعمورة على الساعة العاشرة، بمعية زملائها في الفصل وتحت إشراف أستاذ مادة علوم الحياة والأرض، فأرسلت لها رقمي وطلبت منها أن تتصل بي صباح الغد.

وضعت الهاتف جانبا وذهبت إلى المرحاض قصد التبول، وأنا عائد إلى طاولتي لفت انتباهي رجل ظننت أنه صديقي رشيد. كان جالسا في الكونتوار؛ مرتديا معطفا أسود، مطأطئا رأسه ينظر إلى هاتفه الذي يحمله بيده اليمنى ويبتسم، بينما يمسك في يده اليسرى زجاجة هينيكين. دنوت منه، فلاحظت أنه يتفرج على شريط فيديو إباحي

Scanned by TapScanner

يمارس فيه رجل الجنس مع رجل آخر. ناديته باسمه فأدخل على وجه السرعة وبارتباك شديد هاتفه في جيب معطفه، ثم التفتَ إلي مستغربا. -أوه، يا لها من صدفة غريبة! قام من مقعده يقول ويعانقني. جلسنا معا في الكونتوار وسألني عن أحوالي؛ هل أحرزتُ شهادة الماستر وهل حصلت على وظيفة. كان جوابي عبارة عن توليفة من الصدق والكذب، إذ أجبته بأنني لم أنهِ دراستي بالماستر بسبب ظروفي القاهرة التي لا تسمح لي بالعيش في مدينة كبيرة مثل كازابلانكا، وإنني عدت اليوم إلى نفس المدينة بغية اجتياز مباراة للتوظيف في مكتبة آل سعود يوم غد الجمعة، مختلقا بذلك كذبة أخرى. تأسف لحالي ووبخني على مغادرتي لسلك الماستر، معتبرا أنني قد ارتكبت خطأ قاتلا، لكنه في نفس الوقت أعرب عن سروره لأنني سأجتاز مباراة التوظيف في مكتبة كبيرة ذائعة الصيت، قائلا إنني لازلت في ريعان شبابي ولازال أمامي وقت كبير يجب علي أن أستغله. سألني إذا ما زلت أقطن في كازابلانكا، فأجبته أنني جئت للتو من قريتنا وقصدت البار لأمضي فيه بعض الوقت، وبعد ذلك سأذهب إلى الفندق. -لن أسمح لك بتضييع نقودك، سترافقني الليلة إلى بيتنا. هكذا قال لي فأجبته بأنني لا استطيع الذهاب معه خشية أن أشكل إزعاجا لعائلته، لكنه أصر إصرارا مطلقا بألاّ أنام الليلة في الفندق،

Scanned by TapScanner

فاستسلمت لكرمه في الأخير، وجلسنا نخوض في كل حديث؛ في السياسة، الدين، وأحوال المثليين في المغرب ومعاناتهم في صمت.
دقت الثانية بعد منتصف الليل فأدى رشيد ثمن الزجاجات جميعا، ومنح البارمان إكرامية وفيرة، ثم عدل بنطاله ممرا يده اليسرى على بطنه المنتفخ بالخمر، وخرجنا. كان المطر قد توقف عن الهطول وباتت السماء صافية تنزف نجوما، كانت سيارته من نوع سْيَاتْ ألهامبرا موديل 1999 مركونة قرب باب البار. -لقد كانت لديك سيارة من نوع ضاسيا أليس كذلك رشيد؟ فكان رده أنه باعها رغم جِدتها، لأنه كان في حاجة ماسة إلى المال بسبب شرائه شقة في طماريس على ساحل المحيط الأطلسي يقضي وأسرته فيها عطلة نهاية الأسبوع. بدا رشيد متحسرا تجاه سيارته التي باعها، تجلى ذلك من خلال تنهيدته العميقة وإعرابه عن ندمه الشديد، لقد ذكّرته بمحبوبته التي فقدها بسبب ظروف مادية. حاولت أن أؤكد له أن هذه السيارة هي الأخرى جميلة رغم أنها قديمة، فالأساس في كل هذا أنها ستوصله إلى مراده. وهنا يكمن مربد الفرس، فهذه السيارة لا توصل رشيد إلى مبتغاه كما صرّح هو نفسه.
صعدنا السيارة، غير إن محرك هذه الأخيرة أبى أن يشتغل، حاول رشيد مرارا وتكرارا تشغيله دون جدوى. -أظن إن المشكل يكمن في البطارية. ارتجلتُ. -ربما السبب هو برودة الطقس، فأنا لست ضليعا

Scanned by TapScanner

بالميكانيك. -هل أنزل وأدفع السيارة؟ سألته. -نعم لعل وعسى هذه القحبة تتحرك. صحتُ بأحد المارة كي يساعدني في دفع السيارة، لكنه أخبرني بأنه مستعجل، وأخذت أدفع بمفردي السيارة الثقيلة بما فيها رشيد حتى انفلتت ضرطة مزعجة من مؤخرتي، واشتغلت السيارة أخيرا نافثة سحبا من الدخان الأسود. توجهنا إلى صناك في درب غَلّفْ، وتناولنا السندوتش باللحم المفروم مرفوقا بالمشروب الغازي على نفقة رشيد بحسبانه المضيف، ثم ركبنا السيارة من جديد نقصد المنزل، وما إن قطعنا مسافة قصيرة حتى توقفت بنا السيارة وسط الطريق. -إيخا دي بوتا. قال رشيد متأففا وهو يضرب براحتي يده عجلة القيادة ويحاول يائسا تشغيل السيارة. صارت السيارة جانحة وسط الطريق الضيق معيقة حركة المرور، فأخذ أحدهم يضرب صندوق السيارة بانفعال شديد ويسب رشيد. — أخرجوا هذه الخردة من هنا أيها القحاب بسرعة، فخرج رشيد من سيارته وسدد لكمة قوية في وجه الرجل فاحتد الضرب بينهما، غير إن رشيد كَرْبَعَهُ ووجه إليه لكمات إضافية، ثم صعد غاضبا إلى سيارته وأشعل سيجارة.

استمرت بعض السيارات من خلفنا بإصدار المنبه الصوتي المزعج، وأيادي السائقين الغاضبين تلوح من نوافذ السيارات وتواكب سبهم وقذفهم لنا، بينما لا يزال الرجل الذي صرعه رشيد ممدا على الأرض.

Scanned by TapScanner

-أظن أن ثمة عطلا ميكانيكيا أو ربما قد نفد منها الوقود. قلت له. - لا، لم ينفد بعدُ، دائما ما تفعل بي هكذا، لقد خدعني ابن القحبة الذي باعنيها. انزل من فضلك وادفع مرة أخرى كي يسكت هؤلاء الأوغاد من خلفنا. نزلت من السيارة ودفعتها بينما رشيد يلتفت ذات الشمال وذات اليمين، وقد ساعدَني في ذلك منحدر الطريق مما جعل محرك السيارة يقلع أخيرا، ثم صعدت إلى جانب رشيد. في تلك اللحظة أرسلت لي مولا رسالة صوتية وسألت كعادتها عن أحوالي وأحوال عائلتي، ثم وصلنا إلى بيت رشيد في الحي المحمدي. –يا إلهي، الأضواء منطفئة في المنزل أيكونوا قد ناموا؟ تساءل رشيد. -أظننا تأخرنا. افترضتُ. لكن رشيد أكد وهو يحاول فتح الباب أنه عادة ما يتأخر ويوصيهم بألا ينتظروه لوجبة العشاء، وهذا بالضبط سبب تناولنا العشاء قبل هنيهة في المطعم. لم يستطع رشيد فتح الباب بعدُ، بل إنه يتثاقل من الثمالة في فتحه، فقد بدأ الكحول يعطي مفعوله الآن في دماغه. سألته إذا ما كان نسي المفتاح في السيارة أو البار، لكنه أكد عدم نسيانه، بل المشكلة تكمن فقط في أن لديه مفاتيح كثيرة، ومع ذلك فإنه يعرف مفتاح المنزل من لونه الأصفر، بالإضافة إلى اعوجاجه قليلا. ساعدته في محاولة إيجاد مفتاح المنزل بتسليطي ضوء الهاتف عليه، فوجدته، ففتحت الباب بنفسي فولجنا المنزل، ثم أمرني رشيد بالارتياح في صالة الجلوس التي تطل

Scanned by TapScanner

نوافذها على الزقاق، بينما ذهب هو لإحضار الشراشف. كان عند مدخل صالة الجلوس صورة لشرطي شاب ووسيم يرتدي بذلة بوليسية، ويقف باستقامة واضعا إحدى يديه على المسدس. -مَن هذا الشرطي الذي في الصورة هناك؟ سألته عندما كان يفترش الشراشف. -هل أعجبك؟ إنه رامزي، شقيقي الأصغر الذي يبلغ من العمر تسع عشرة سنة؟ أجبته بأنني أفضل النساء، فصرح أنه على العكس مني تماما؛ إنه مولع بمضاجعة الرجال.

كان الشرطي شقيق رشيد نائما في الغرفة المجاورة وحذاؤه البوليسي عند مدخل غرفته، لقد أنهى دوريته قبل ساعة، ويشتغل المسكين طيلة أيام الأسبوع كما صرح رشيد، فيما تنام أمه وشقيقته في غرفة النوم. أما نحن، فقد أطفأنا نور الصالة متهيئين لنوم عميق بعد يوم شاق. كنا متفرقيْن في الصالة، إذ حاولتُ أن أنام بعيدا عن رشيد، وقد يُفسَّر ذلك بأنني شخص مريض؛ يعاني من الخجل المرضي، شخص منغلق، معقد، ضحية تنشئةٍ اجتماعية ودينية صارمة تجاه الجنس على وجه الخصوص، تنشئة تلقي بضرورتها الثقيلة على كاهل شخصيتي، والتي لا أستطيع تحملها بعد اليوم. إني لا أطيقها، فتلك ليست شخصيتي الحقيقية، لا أريد أن أعيش بالطريقة التي تحب أمي أو أبي أو مجتمعي، أو بالطريقة التي يمليها معتقد من المعتقدات، بقدر ما أريد أن أعيش لذاتي وأُرضي ذاتي، أعيش

Scanned by TapScanner

بالطريقة الطبيعية التي ولدت عليها بعيدا أن أيِّ خلفية ثقافية صارمة تلغي شخصيتي الحقيقية. إن هذا الكلام لا يعني أنني شخص مثليٌّ، لكن التنشئة التي ترعرعت في كنفها ترى أن اقتراب رجل من آخر مثليٍّ هو فعل محرم، إذ إن المثليين ملعونون، مهانون ومذلون في مجتمعي، وأنا تأكدت بما فيه الكفاية أن رشيد رجل مثليٌّ يحب الرجال، كما إن هذه التنشئة التي ينبغي أن نتحرر منها جميعا تقصي الجسد، وتحرم تعريته، على الرغم من إن هذا الأخير هو ما يجعلنا مرتبطين بأمنا الأرض التي نمشي فوقها بأقدامنا، نفرح ونرقص فيها بأجسادنا الجميلة ذات الألوان والأشكال المتباينة.

حوّل رشيد فراشه إلى جانبي، وأخذ يتحدث لي عن مثليته، وعن صنوف من المثلية بدت لي غريبة كوني لم أسمع بها من قبل، مثل العابرون جنسيا الذين يعانون من حالة ديسفوريا الهوية الجنسية، والمثلي ثنائي الميول، والمثلي أحادي الميول، ثم المثلي الفاعل، والمثلي المنفعل. كما أكد لي أن المثلية قديمة قدم البشر، بيد إنها ظلت مقموعة لآلاف السنين بسبب تحريمها من قبل الديانات السماوية على وجه الخصوص، حيث ظلت تمارس نشاطها في الخفاء، ما عدا في بعض المجتمعات الوثنية كاليونان والرومان فإنها لم تكن ممقوتة -وهنا تذكرت علاقة الفيلسوف اليوناني سقراط بالجندي الوسيم ألسيبياديس- أما الآن فقد آن الأوان للمثلية بأن تصارع من أجل نيل

Scanned by TapScanner

الاعتراف بها، وإنهاء كابوس التخفي والتستر على ما تغرزه فينا الطبيعة، بل إن دعم المثلية أمسى واجبا على كل دول العالم، باعتبار المثلية وسيلة فعّالة للحد من أكبر كارثة تهدد كوكبنا، ألا وهي النمو الديموغرافي المتسارع جدا، والذي أدى إلى استغلال الغابات والأراضي الزراعية بغية توسيع المدن وهو الشيء جعل كوكبنا بقعة ملوثة تسبح في الفضاء. تحدث لي رشيد أيضا عن قصة حب يندى لها الجبين، حيث كان له حبيب يحبه بجزاف، ولما أصيب هذا الأخير بمرض الإيدز تخلى عنه رشيد، ولا يزال منذ تلك اللحظة فريسة لتأنيب الضمير. ربما لازال يحبه، لذا كان يتحدث ويبكي، يمرر أصابعه على وجهي ويبكي. كفكف دموعه بكلتا يديه، وطلب مني أن أنسى ما كان يحكيه للتو لأنه شيء ينتمي إلى الماضي. قال لي ذلك وهو يبتسم كأن شيئا لم يحدث، ثم طفق يغازلني إلى أن تملكتني الإثارة في لحظة من اللحظات، فشرعنا نحتك ببعضنا البعض وكان هو يداعب قضيبي من فوق بنطالي، وفي مرحلة ما، حاول إدخال يده من تحت بنطالي ليلامس قضيبي، لكنني أوقفته، لقد شعرت بنوع من الخزي والعار، بمعنى أدق؛ شعرت بالذنب، لكنه رفض التوقف لأنه كان يشعر بإثارة شديدة، كل ذلك حدث تحت الضوء الباهت المتسرب من الزقاق عبر نوافذ الصالة. فجأة قبّلني في فمي إذ أحكمت غلق شفتي لأول وهلة، لكنني فشلت في تحجيم شهوتي،

Scanned by TapScanner

وسـرعان مـا بادلتـه التقبيـل بعنـف، وبحميميـة حارقـة، فقـد أكـون ثنائي الميول، من يعلم؟ أشعلنا نور الصالة وحملنا فراشنا على وجه السـرعة إلى غرفـة أخـرى، حيـث خلـع قميصـي، وفعلـت لـه الشـيء نفسـه، قبلني على عنقي ببطء وأنا أستشعر حرارة أنفاسه، ثم نزل عبر صدري إلى أسفل جسدي، وشيئا فشيئا وببطء شديد؛ سحب حزام بنطالي. شعرت أن الزمن قد توقف في تلك اللحظة وأنا أعيش تلك التجرُبة، بل إنه لم تعد هنالك لا لحظة ولا حين، شعرت أنه لم يكن في العالم بأكمله أحد غير أنا ورشيد، شعرتُ بشيء لا أستطيع أن أكتبه أو أرويه؛ لقد اتسعت الرؤيا وضاقت العبارة كما قال النِّفَّري الذي كنت أقرأ له في تلك الغرفة الكئيبة التي صارت الآن مصدر أوجاعي، هذه الأوجاع التي لحسن الحظ لم يكتشفها رشيد، ربما لأنها لم تُرسَم على وجهي بفعل الثمالة، وعلى أية حال، فقد تضاجعنا، ونمنا متعانقين في ليلة هياج محمومة.

-22-

استيقظنا صباح يوم الجمعة على الساعة السابعة، تناولنا وجبة الإفطار التي أعدتها طَامُو والدة رشيد، وهي امرأة بلغت من الكبر عُتيا، وقد رحبت بي ذلك الصباح أحسن ترحيب. - أنير ذكِّرني في أي ساعة سيكون موعد الامتحان؟ سألني رشيد - في التاسعة. أجبته – أين؟ -مكتبة آل سعود. -حسنا يعني في كوسطا عين الذئاب. – طبعا.

Scanned by TapScanner

– وهل تهيأت له جيدا؟ -بما فيه الكفاية. –جيد، أتمنى لك النجاح. –غراسياس مي أميغو. –دي ناضا بروفيسور أنير. – في أي ساعة تبدؤون العمل؟ سألته. – في التاسعة أيضا. – أين تعمل هذه المرة؟ - كما تعلم فنحن نعمل في أي مكان، وذلك حسب وُرش البناء، لكنني اشتغل هذه الأيام في الإدارة المركزية لشركتنا بحي سيدي معروف. – يعني أنك لن تمر عبر شاطئ عين الذئاب؟ - في الواقع لا أمر من هنالك إلا إنني سأوصلك إلى مركز الامتحان. – شكرا صديقي رشيد. – أتمنى فقط أن يحالفنا الحظ ولا تتوقف بنا السيارة في منتصف الطريق. – آمل ذلك أيضا. – أين ستذهب بعد الاختبار؟ - سأجلس قليلا في المقهى وبعد ذلك سأعود أدراجي إلى بلدتنا. – ولِمَ كل هذا الاستعجال؟ هل لديك عمل متبوع به أو شيئا ينتظرك؟ -لا، ليس ثمة شيئا ينتظرني. – إذاً عد إلى المنزل مباشرة بعد الامتحان، أنت تعرف الآن بيتنا، حتى وإن كانت لديك ذاكرة سمكة فإنك في هذه الحالة ستسجل عنوان بيتنا في ورقة وتضعها في جيبك، وبعد الانتهاء من الامتحان تعطيها لسائق التاكسي وسيوصلك إلى عتبة بيتنا. – في الواقع لن أستطيع العودة إلى المنزل سأبقى في مكان ما إلى أن تنتهي أنت من العمل. – أنا سأنتهي من العمل في الرابعة والنصف، وأنت ستمكث هكذا تذرع الشوارع جيئة وذهابا في صهد الذروة حتى الرابعة والنصف، هل جُنِنتَ أم ماذا؟ لِمَ لا تريد المجيء إلى بيتنا؟

Scanned by TapScanner

ستكون والدتي في البيت وستحضر لك وجبة الغداء. – سامحني لا أستطيع، أنت تعرفني جيدا؛ شخصية مصابة بفيروس الخجل المرضي. – إذاً لن أرغمك يا أنير على العودة إلى البيت لكن على أية حال انتظرني في أحد المقاهي حتى أنتهي من العمل وأتصل بك. – أنير هل لديك نقود؟ - نعم عندي شكرا. – متأكد أنك لا تكذب؟ - أقسم لك. إذن هيا بنا حتى لا نتأخر.

انتهى هذا الحوار الطويل الذي كان على مائدة الفطور بيني ورشيد، هذا الأخير الذي أوصلني إلى مكتبة آل سعود في الثامنة والنصف. من حسن حظنا أن السيارة لم تتوقف بنا هذه المرة، وكنت آمل أيضا ألاّ تتوقف برشيد وهو متجه إلى عمله كي يصل في الموعد. سألني رشيد قبل أن ينصرف إذا ما كنا قد تأخرنا عن موعد الامتحان لأنه لم ير أي مترشحين عند باب المكتبة، نظر إلى ساعته كي يتحقق من الأمر، فأخبرته أننا وصلنا في الموعد، أما المترشحون فينتشرون في المقاهي المجاورة للمكتبة، يستذكرون ويستغلون ما تبقى من الوقت في إنعاش ذاكرتهم. شرحت له ذلك كاذبا، فتفهم وتمنى لي التوفيق، ثم مضى إلى عمله. تأكدت من أنه اختفى وسط الشوارع المزدحمة، فدخلت إلى مقهى مطل على المحيط الأطلسي البارد، أشعلت سيجارة وطفقت أتأمل البحر بلونه الرمادي وطيور النورس التي تتلاشى في ضباب الصباح، بينما شفتي تنفث خيطا طويلا من الدخان الأزرق.

Scanned by TapScanner

جلست هنالك حتى حدود الحادية عشرة، وفي هذه الفترة اتصلت بأمي لأطمئن على صحتها؛ كانت تعاني من مرض في القلب، إلا إنها لم تكن خائفة ممّا قد ينتج عن هذا المرض اللعين، ولكنها خائفة عليَّ من ظلمات السجن، وحزينة للغاية، حزينة لأنها لا تملك المال، ليس من أجل العلاج، وإنما من أجل توكيل محامٍ يدافع عني. بكت كثيرا، فحاولت تهدئتها مؤكدا أنني سأتدبر أمري، وأوصيت إخوتي الصغار أن يعتنوا بها ريثما أعود. كما ظلت جارتي المراهقة في ذلك الوقت تتصل بي دون أن أجيب على مكالماتها، فيما اكتفت حبيبتي مولا كعادتها بإرسال المقاطع الصوتية، والقلوب الحمراء، والقبلات الافتراضية عبر الواتساب.

فكرت أن قصة حبي بمولا هي قصة مندورة للزوال، لا مندوحة عن ذلك، فكيف يعقل أن تظل تحبني بعد أن تعلم أنني دخلت السجن وبالتالي فقدت عملي، والأخطر من ذلك حينما تعلم أنني دخلت السجن بسبب خيانتها، وهي التي هددت بالانتحار إذا ما أنا فعلت ذلك، وهو أمر لست أشك فيه مطلقا لأنني على دراية بطبعها وكبريائها الزائدة عن الحد.

استيقظتُ من حلم اليقظة ذاك، وحاولتُ أن أنفض عني هذه الأفكار السقيمة، التفتتُ إلى أرجاء المقهى فرأيت أن الناس بدؤوا يتوافدون على المقهى، حتى استحال هدوء هذا الأخير إلى نوع من

Scanned by TapScanner

الهرج والمرج، وهو الشيء الذي يمقته أناي. لكن من أنا؟ وما الشيء أو الأشياء التي يفضلها أناي؟ أنا شخصية غريبة الأطوار كما جرت العادة أن أسمع من الناس منذ طفولتي، هكذا كانوا ينعتونني. أنا شخص لا يحب التجمعات والازدحام، أحب أن أجلس بمفردي وحيدا وبعيدا عن الغير، أن أضع سماعات هاتفي في أذني وأتسكع بعيدا في المدى، في الخلاء، في الغابات، في الشواطئ، في الجبال، وفي كل الأماكن الخالية من الغير اللعين، الذي يعكر صفو روحي، ويملي عليّ قراراته وآرائه التي لست مقتنعا بها، وفي عزلتي أطابق ذاتي وأجد حريتي. أفضل في كثير من الأحايين أن أمشي وحيدا مسافات طويلة على قدمي بدل أن أستقل سيارة الأجرة أو الباص، وأكره أشياء من قبيل الحزب، أو النقابة، أو الجمعية، أو التنسيقية... لأن أسوء الشرور بالنسبة إلي هي أن يتكلم الغير باسمي، أو يقرر باسم الجماعة أشياء لا يرغب فيها أناي أصلا. لذا كل من سولت له نفسه أن يتحدث باسمي أو يفرض عليّ رأيه، بصقت في وجهه من دون تردد. أتودون حقا أن تعرفوا من أنا وماذا أفضل؟ حسنا، إلى جانب أنني شخص يحب العزلة فأنا شخص سريع الغضب والانفعال، ومرد ذلك أنني اعتدت في عزلتي أن أرفل في حياة يسودها الهناء وراحة البال، وبالتالي فإن أبسط الأشياء ومهما بدت تافهة قد تزعجني وتعكر صفوي، كوني لم أتعود في وحدتي على شيء اسمه الشقاء.

Scanned by TapScanner

لدي عدد محدود جدا من الأصدقاء؛ لأنني سرعان ما أتشاجر معهم لأنهم يعكرون سعادتي، وهاتفي مليء بأرقام الناس الشخصية، لكن يستحيل أن أتصل بأحدهم. أنا شخص مكبوت جنسيا، لا أفي بوعودي، كثير التفكير والتخطيط والطموح، قليل الفعل والتطبيق على أرض الواقع، وهذه مشكلة أخرى. شخص كذاب؛ لا أستطيع أن أنكر ذلك، لذا قد أكذب وأنا أصف شخصيتي يا قارئي العزيز. على أية حال ولأنني هكذا، لا أحب الضجيج، فإني غادرت المقهى نحو الشاطئ، وجلست على صخرة هنالك أفكر، وتفكر معي أمواج كثيرة. عندما اتصل بي رشيد متأخرا في حوالي الخامسة والنصف عصرا؛ وجدني أتسكع حينها في ساحة الأمم المتحدة وسط المدينة، اعتذر مني على تأخره الناتج عن مروره بمحل إصلاح السيارات بغية إصلاح عطب في محرك سيارته. طلب مني أن أنتظره هنالك كي يأتي ويقلّني بسيارته إلى المنزل، فوقفتُ انتظره عند باب محل لبيع الملابس النسوية يدعى لاغلوريا، وحينما وصل، قمنا معا بتركين السيارة هنالك في إحدى الأزقة المتشابهة، وذهبنا للبحث عن مقهى ندخن فيه قليلا ونحتسي القهوة، لأن رشيد كان في حاجة إلى تحسين مزاجه قبل الذهاب إلى البيت. جلسنا في المقهى قرابة الخمس دقائق، فتذكر رشيد أنه نسي هاتفه في السيارة، ولكونه كان متعبا بسبب العمل، فقد أعطاني مفتاح السيارة الذي كان مرفوقا بمفاتيح أخرى

Scanned by TapScanner

كثيرة ميزتُ من بينها مفتاح المنزل؛ الأصفر والمعوج قليلا. وفي طريقي إلى الزقاق الذي ركنا فيه السيارة سألتُ أحد المارة عن محلٍّ لإصلاح المفاتيح، فقال لي إنه يوجد في نهاية الزقاق على اليسار، فذهبت مباشرة أقصد ذلك المحل. نزعت المفتاح الأصفر من حلقة المفاتيح، وطلبت من الناسخ أن ينسخه على وجه السرعة لأنني سأعود إليه بعد دقيقتين. حاول أن يقول شيئا، لكنني أدخلت يدي إلى جيبي فأخرجت ورقة نقدية لم أنتبه إلى قيمتها وألجمت بها كلامه، تعجب ناسخ المفاتيح لحالي لكنه لم ينبس بكلمة واحدة، فتوجهت بعد ذلك إلى السيارة، فتحتها وأخذت الهاتف. وأنا عائد إلى المقهى، مررت أولا بناسخ المفاتيح، وحصلت على نسخة جديدة من المفتاح الأصفر.

جلسنا في المقهى ربع ساعة، احتسينا القهوة ودخنا السجائر قبل أن نتوجه إلى بيت رشيد. كنت أرغب في الواقع أن نواصل الجلوس في المقهى لأجل مشاهدة مباراة ساخنة من الدوري الإسباني، بيد إن رشيد ألح على الذهاب كونه يشعر بالتعب، وفي طريقنا إلى البيت سألني هل أنا جائع. فكان هذا جوابي: - لست جائعا، لقد تغذيت على السردين المشوي بمرسى المدينة. سألني أيضا كيف أجريتُ الامتحان وهل كان سهلا، فأكدت له أنه كان مناسبا جدا. – إذاً سنحتفل مسبقا بنجاحك هذه الليلة في الديسكو خاصة أنها عطلة نهاية الأسبوع. اقترح عليَّ. – في الحقيقة لا أستطيع الذهاب الليلة إلى أي

Scanned by TapScanner

مكـان، لا أريـد أن أنـام متـأخرا، كـوني سأسـتيقظ غـدا في الصـباح البـاكر، سـأرجع إلـى بلـدتنا. – أوه، لقـد تـذكرت للتـو أن والـدتي ستوقظني أيضا غدا في الصباح الباكر من أجل الذهاب إلى منزلي في شـاطئ طمـاريس، إنهـا عطلـة نهايـة الأسـبوع؛ الوقـت الوحيـد الـذي أتحرر فيه بمعية أمي وشقيقتي كاميليا من ضوضاء كازابلانكا وتلوثها. -في أي سـاعة سـتذهبون غـدا إلى طمـاريس؟ سـألته. – في السـابعة صباحا. – حسـنا، أنـا أيضـا سأسـافر في ذلـك الوقـت. -إذاً سأوصـلك بالسيارة إلى المحطة الطرقية. – شكرا لك رشيد.

-23-

في صباح يوم السبت، استيقظنا في السادسة والنصف، حيث أعدت لنا كاميليا شقيقة رشيد وجبة الإفطار، وبعد ذلك ساعدْتُهم في نقل بعـض الأغـراض إلى السـيارة، ثـم صـعدتْ والـدة رشـيد وأختـه إلى المقاعـد الخلفيـة للسـيارة، بينمـا جلسـت أنـا في الأمـام جنـب رشـيد. توجهنـا إلى المحطـة الطرقيـة أولاد زيـان حيـث نزلـتُ وودعـتُ أفـراد الأسرة الذين كانوا في السيارة واحدا تلو الآخر، وهم بدورهم تمنوا لي سـفرا سـعيدا، وحظا وافرا. انتظرتُ مرة أخرى حتى ابتعدت السيارة وتلاشـت وسـط زحـام المركبـات، ثـم اسـتقليت التاكسـي وتوجهـت إلى سـوق غـراج علال، حيـث اشـتريت سـكينا كبيرة من ذلـك النـوع الـذي ينحـرون بـه العجـول، وفي نفـس الوقـت اقتنيـت مقـدة ومشـواة كـيلا

Scanned by TapScanner

يشكك أحد في أمري، خاصة أن البقال نفسه الذي باعني السكين، عندما لاحظني أحاول إقحام هذه الأخيرة في حقيبة الظهر وأغطيها بالملابس أعرب عن شيء من التعجب، لكنني سرعان ما أزلت ذلك الاستغراب الذي أضحى مرسوما على محياه حينما أخبرته أن لدي عقيقة ابنتي في الغد. ومن هناك طلبته أن يمدني بمشواة، كان من الممكن أن أطلب شيئا آخر كي أتخلص نهائيا من أي أثر للشك كان باد على وجهه، بيد إنني لست على علم بما يحتاجونه في مناسبة حفل العقيقة، كما أنه لم تكن لدي ابنة ولا حتى زوجة. اشتريت أيضا من محل آخر ملاءة وفأسا صغيرة كتلك التي تستعمل في تقليب الحدائق المنزلية، كما اقتنيت كذلك قفازين قطنيين أسودا اللون استعملتهما مذ اشتريتهما بسبب برودة الطقس، وبعدها توجهت عبر الباص إلى مديونة، عند مخرج مدينة كازابلانكا. نزلت من الباص ودلفت مشيا على الأقدام إلى مطرح النفايات الضخم الذي تُفرغ فيه كل أزبال كازابلانكا، قطعت مسافة طويلة حيث يوجد المطرح في الخلاء، يظهر من بعيد كتلال ناشزة من النفايات والرماد تحيط بها هالة من شاحنات الأزبال التي تفرغ حمولتها في كل حين. ويغطي المطرح دخان متصاعد في الأرجاء تتلاعب به تيارات الهواء، كما تحوم هنالك أسراب من طيور النورس واللقلق في جو ضبابي، فضلا عن قطعان الكلاب وبعض البشر ممن يجدون في المطرح لقمة

Scanned by TapScanner

عيشهم وسلاحا يصارعون به من أجل البقاء. مررت بمَكَبِّ النفايات ذاك واضعا كمي على أنفي في محاولة لتجنب تلك الروائح اللاذعة ما أمكن ذلك، وفي طريقي وجدت رجلا يفرغ عبوات معدنية من مشروب بيبسي ويضعها في عربته، توقفت عنده فأخرجتُ المشواة من حقيبتي وأعطيتها له، ابتسم في وجهي قائلا وهو يقلب المشواة بين يديه: -إنها لا تزال جديدة. –نعم إنها كذلك. –لا يمكنني أن آخذها قد تحتاجها سيدي إنها جديدة. – لا أحتاجها يمكنك الاحتفاظ بها. –شكرا سيدي. –هل أنت مدير شركة سيطا لجمع النفايات؟ سألني. –لا، لست كذلك. –وهل تبحث عن شيء ما؟ كن حذرا سيدي من أن تتسخ ملابسك، فهي تبدو أنيقة جدا. –لماذا تقوم بإفراغ هذه العبوات؟ -آه، هذه العبوات.. لقد أتت قبل قليل شاحنتين من شركة بيبسي اللعينة، وطرحوا العديد منها هنا، إنها مشروبات فاسدة مضى على تاريخ انتهاء صلاحيتها خمس سنوات. –وماذا تفعل بها أنت؟ -أنا..؟ -نعم أنت؟ -لا شيء سيدي.. فقط أقوم بإفراغها من المشروب الغازي وأحتفظ بالعبوات. –ولماذا تحتفظ بها؟ -لأبيعها في سوق دالاس بالحي الحسني وأعيل أولادي. –بكم يباع الكيلو الواحد من الألمنيوم؟ -بأربعة دراهم. –إنه ثمن زهيد. – لكنه حلال طيب عكس ما تفعل بعض مافيات سوق دالاس. –ماذا يفعلون؟ -الكلام خطير، لكن بما أنك لا تعرفني فلا ضير في أن أبوح لك به. – يمكنك

Scanned by TapScanner

أن تبوح بذلك أعدك أنني لن أفشي شيئا قط. – هناك جماعة في سوق دالاس تسرق في أثناء الليل الكابلات الكهربائية النحاسية وتلك المتعلقة بالاتصال المدفونة تحت الأرض، فيصهرونها لتحويلها إلى قطع من النحاس الخالص يبيعونه بثمن باهظ. – ألا ينقطع التيار الكهربائي على بعض الأحياء عندما يبترون هذه الكابلات؟ - ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك، ولا أعلم من أين يسرقون هذه الكابلات، فهم معروفون في سوق دالاس بكونهم يشترون قطع الغيار والقصدير من عند بسطاء الناس ونابشي القمامة، بيد إن صديقا لي كانت تجمعه بهم كراهة وحسابات عدائية قديمة، تجسس عليهم فرآهم يفرغون شاحنات من هذه الكابلات في ضيعة معزولة تابعة للجماعة القروية رأس العين بإقليم اليوسُفية ويذوبونها. وقد وثق تلك العملية بشريط فيديو رأيته بأم عيني بعدما وعدته بعدم إفشاء السر، إلا إنني لم أقدر على كتم ذلك الفعل الإجرامي، وحينما التقيت بهم في سوق دالاس أخبرتهم أنني رأيت بنفسي ما يفعلون في المكان الفلاني، فبهتوا من هول الصدمة وهددوني بأنهم سيقتلونني ويرمون جثتي في البحر. إنني لست خائفا منهم، فأنا أخشى الله وحده. - متى وقع كل هذا؟ - قبل ستة أيام سيدي. قال بتنهيدة عميقة حينها حاولت تغيير هذا الموضوع الفارغ قائلا: -أيمكنك أن تمدني بعبوة مملوءة من هذه العبوات؟ –نعم تفضل خذها، هناك العديد منها

Scanned by TapScanner

كما ترى. التقطَ بيده اليمنى واحدة من الأرض وأعطانيها. -شكرا. -هل أنت خبير في التغذية سيدي الكريم؟ لم أجب على سؤاله وطفقت أتفحص تاريخ صلاحية العبوة، لقد مضى فعلا على نهاية صلاحيتها خمس سنوات. –كما ترى يا سيدي، هؤلاء الأوغاد يرمون هذه السموم هنا، سيقتلون الأطفال والمتشردين لعنة الله عليهم، لا ضمير لديهم، أتمنى من سيادتكم الموقرة أن تكتبوا تقريرا عن هذه السموم فترسلهم جميعا إلى السجن والمجد كل المجد لكوكا كولا الخالدة. – سأفعل ذلك كن مطمئنا. ودّعته، وذهبت بعيدا عن المطرح بينما الريح اللئيمة تعبث بربطة عنقي. تركت تلال النفايات تلك خلفي بنحو كيلومتر واحد تقريبا، وحفرت تحت شجيرة شوكية حفرة بالفأس التي اشتريتها، فدفنت السكين والمقدة فضلا عن الملاءة، بعدما وضعتهم جميعا في كيس بلاستيكي. ثم عدت أدراجي إلى قلب كازابلانكا النابض بالحياة، وحجزت غرفة بالفندق ثم نمت ببذلتي الرسمية التي لم أبدلها مذ جئت من مراكش ومن دون أن تضايقني ربطة العنق. وعندما استيقظت كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف ليلا، إذ ذهبت مباشرة إلى الحانة وطلبت قنينة ويسكي، شربت قليلا جدا للحفاظ على صفاء ذهني، ومكثت هناك أعبث بهاتفي إلى غاية الثالثة بعد منتصف الليل محروما من النوم والثمالة، ثم حملت حقيبتي ومشيت مترنحا في الشارع أقصد منزل

Scanned by TapScanner

رشيد، تحت مطر لجوج، وريح قوية تكاد تقلع الأشجار من جذورها. كنت لا أزال أرتدي البذلة الرسمية السوداء بحذاء لامع وقفازين، وشالا قطنيا يغطي وجهي المدفون في صدري اتقاء الريح الصرصر العاتية، أغد السير على الرصيف جنب شاحنات السلع التي تنام تحتها القطط والأطفال المتشردون وعويل الوطن، أقف أحيانا لأطل على هؤلاء التعساء فأضحك وأبكي في نفس الوقت ثم أواصل سيري، وأحيانا أخرى أتوقف لأشم رائحة البحر وأسمع بكاء السماء، بينما الريح الممزوجة بالمطر تتلاعب بي تحت الأضواء الباهتة، كنت مبللا ولكنني لا أشعر بالبرد، فيكفي أن أفكر في هؤلاء الأطفال المتشردين حتى يغلي دمي.

وقفت أمام منزل رشيد الذي كانت كل نوافذه مغلقة، والغرف غير مضاءة، التفتت يمنة ويسرة، لكن الزقاق كان مقفرا ومضاء بنور باهت يصدر عن أعمدة الإنارة، وبذلك وضعت أذني على نافذة المنزل وطفقت أصيخ السمع وأنا أرتعش من المطر البارد الذي بللني، غير إنني لم أسمع سوى ثجيج المطر وخواية الهواء، وحينما انقطع المطر في لحظة وجيزة، سمعت شخيرا بعيدا يصدر من المنزل نفسه، فتأكدت من أن شخصا ما نائم في المنزل. أخرجت من جيبي المفتاح الأصفر وفتحت الباب بهدوء جنائزي، وأغلقته بالطريقة نفسها، ثم خلعت حذائي ووضعته عند مدخل المنزل على ممسحة البلاط كيلا

Scanned by TapScanner

أسترعي الانتباه، وشرعت أمشي دون جلبة كالأفعى. كانت خيوط النور الصادرة عن عمود الإنارة تتسلل من زجاج النوافذ وترشدني في طريقي، رمقت بواسطة ذلك النور الباهت حذاء الشرطي موضوعا أمام غرفته، كان الشرطي غاطا في نوم عميق، ومتدثرا بدثاره، كان وجهه أيضا مغطى، دنوت منه بضع خطوات فيما البرق يومض في جفون السحاب ويخترق هو الآخر زجاج النوافذ، كان لا يزال نائما ومصدرا شخيرا صاخبا، وعلى مقربة من رأسه توجد مائدة صغيرة عليها علبة سجائر ومسدس وأصفاد معدنية، وأشياء أخرى دقيقة لم أستطع تمييزها. اقتربت أكثر من الشرطي، وفجأة انقضضت عليه وأخذت أخنقه بملاءته، كان في البداية يقاوم بشدة، يهمهم، ويتخبط في سريره. هاجمت أنا بدوري من فوقه بكل ما أملك من قوة، وكان هو الآخر يجرني بيده اليمنى من ربطة عنقي ويحاول أن يمد يده صوب وجهي حتى سقطت نظاراتي. وبعد مواصلتي خنقه بالملاءة خارت قواه وأرخى يده، فأشعلت الضوء ونزعت عنه الملاءة، غير إنه كان لا يزال يتنفس ببطء، فأخذت الوسادة واستمررت في خنقه إلى أن توقف نبض قلبه، فأخرجت عبوة البيبسي وأفرغت نصفها في فمه ثم وضعت عليها يده وأصابعه كي تترسخ عليها بصماته، ثم وضعتها على المائدة جنب رأسه.

Scanned by TapScanner

أعدتُ توضيب فراشه الذي بات مبعثرا، وأخذت المسدس واضعا إياه في حقيبة الظهر، وحملت أيضا نظاراتي، ثم ارتديت حذائي وخرجت دون أن أطفئ ضوء غرفته. أغلقت خلفي باب المنزل بشكل طبيعي جدا، كان المطر حينها قد توقف عن الهطول فتوجهت إلى الحانة عبر التاكسي لإكمال زجاجة الويسكي التي لا زالت تنتظرني على الطاولة، كان البار دافئا، باهت الضوء، وخاليا من الزبائن في ذلك الوقت المتأخر من الليل، جلست هناك وحيدا، منتشيا ومحلقا في سماء أفكاري مثل طائرة ورقية.

-24-

مزقت الشمس قناع الليل، وأسدلت خيوطها الذهبية عبر نافذة غرفتي لتوقظني من نومي المضطرب، كان يوم أحد جميل ومشمس. تناولت فطوري على حساب الفندق، وفي التاسعة استأجرت سيارة بيضاء من نوع ضاسيا لوغان، وذهبت إلى المكان المجاور لمكب النفايات حيث دفنت أغراضي، اِنْتَشَلْتُهم من تحت التراب ووضعتهم في صندوق الأمتعة مغطيا إياهم بالملاءة، وبعد ذلك اشتريت مجرفة وشريطا لاصقا، بالإضافة إلى لتر من البنزين قد أحتاجه إذا دعت الضرورة، ثم سافرت إلى غابة المعمورة. استغرقتُ ساعة لأصل إلى هناك، وأربعين دقيقة أخرى لأبحث عن حافلة مدرسية أو مجموعة من التلاميذ والتلميذات الذين من المحتمل أن تكون لمياء بينهم،

Scanned by TapScanner

وبعدما ارتدت الغابة متراً متراَ، بلغت في الأخير مرادي، حيث لمحت بين أشجار الصنوبر حافلة صفراء للنقل المدرسي، وغير بعيد عن هذه الأخيرة كان ثمة تلاميذ يلعبون كرة القدم، وتلميذات في الجانب الآخر يلعبن الغميضة أو شيئا من هذا القبيل. ركنت السيارة خلف شجيرات متشابكة وأطفأت المحرك كيلا أثير الانتباه، ثم غطيت وجهي بالشال وارتديت القفازين. نزلت من السيارة أمشي بخطى ثقيلة تجاه التلميذات، حاملا المسدس في جيبي، أجول بناظري من خلف الشجيرات والأعشاب العالية بحثا عن لمياء. وحينما وقعت عيني عليها، اقتربت منهن شيئا فشيئا وتسمرت مختبئا وراء جذع شجرة كبيرة أتحيّن فرصة ابتعاد لمياء عن زميلاتها، انتظرتُ طويلا، لكنها ظلت لصيقة بزميلاتها، كانت ترتدي بذلة رياضية لفريق الوداد البيضاوي وتعتمر قبعة شمسية يتهدل منها شعرها الكستنائي من الخلف على رقبتها. لم ترني مع حسن الحظ، لأنها كانت ملتفتة تلعب مع صديقاتها تارة وأخرى تلتقط صورا لأشجار الصنوبر وتتفحص الصور في هاتفها، سمعتها تقول في الأخير لزميلاتها: - انتظرنني سأعود حالا. وذهبتْ خلف شجرة ضخمة لتتبول. وفي الوقت الذي رفعت فيه بنطالها كنتُ أنا خلف ظهرها، أغلقت فمها بيدي اليسرى ووضعت فوهة المسدس على رأسها فحاولت أن تعض يدي وتضطرب، لكن حينما أشهرت مشط المسدس المملوء بالرصاص،

Scanned by TapScanner

هـدأتْ. – إذا أنـتِ هـدأتِ والتزمـتِ بمـا سـأمليه عليـكِ لـن أقتلـكِ، وستعودين إلى بيتك سالمة، مفهوم؟ أومأتْ بنعم وهي تُقَفْقِف. – إذاً تحركي أمامي، هيّا، وبهدوء. اقتدتها من بين الشجيرات المتشابكة نحو السيارة، ومددتها على المقاعد الخلفية بعدما قيدت يديها ورجليها، ووضعت الشريط اللاصق على فمها، ثم غطيتها بالملاءة درءا لأي خطر محتمل، وصعدتُ إلى السيارة أسير مسرعا وسط الأشجار مثيرا زوبعة من الغبار. شرع قلبي يخفق بشدة بينما أحاول مراوغة الأشجار بالسيارة، يا إلهي تراني ماذا أفعل الآن؟ هل أنا واعٍ بما أفعله؟ كنت قابضا على عجلة القيادة بعصبية شديدة غير مدرك سبب اختطافي للمياء، ولست أعرف أيضا ماذا عساني أفعل بها بعد أن اختطفتها، هل أغتصبها؟ وهل سأحقق لذة إثر ذلك؟ لا، لا يمكن أن أشعر بأي لذة، لأنني خائف، كما إنني لست المرة الأولى التي سأكون قد لمست فيها جسد لمياء. هل سأقتلها وأدفنها تحت الثرى؟ لكن ماذا سأجني وراء ذلك؟ ماذا ربحتُ من قتل الشرطي؟ لقد قتلته بدم بارد من أجل أن أقتل لمياء، ولماذا سأقتل لمياء؟ في الواقع لست أدري. يا إلهي هاتفي يرن، لكن إنها لمياء نفسها هي التي تتصل بي. - كيف تجرئين على الاتصال بي أيتها القحبة وأنت مقيدةُ اليدين؟ سألتها بغيظ شديد بعدما ضغطت على فرامل السيارة بعنف. أصابتني دوخة حينما اكتشفت أن الفتاة خلفي ما تزال مقيدة

Scanned by TapScanner

والهاتف لا يزال يرن، أشهرت المسدس في وجهها قائلا: - إذا قمتِ بأدنى حركة فإنني لن أتردد لحظة واحدة في تفجير دماغك. ثم أجبتُ على المكالمة: - ألو مرحبا. فجاء الرد كالتالي: - أيها الوغد، لماذا لا ترد؟ لماذا لم تأتِ؟ لقد سئمنا من انتظارك ووعودك الكاذبة أيها المغتصب اللعين، سنقحمك السجن مدى الحياة فأنت تستحق ذلك. والآن أجبني أين أنت؟ - أنا.. أنا.. أنا آت في الحال.. لقد كنت مترددا وخائفا من أبيك، لهذا السبب لم أستطع المجيء. – آه يا كوتشو بالله عليكَ، لا تخف، بالعكس سيصبح بابا صهرك وهو سعيد بذلك، هل تريد أن تتحدث إليه الآن؟ - لا داعي، أنا قادم، انتظريني في مقهى بريماڤيرا بدرب السلطان. حسنا، اتصل بي حالَمَا تصل. – ألم تذهبي اليوم إلى غابة المعمورة؟ - للأسف لم أذهب لأنني لم أكن في حال جيدة بسبب الحمل، لكن يبدو الأمر شبيها بحضوري؛ فابنة عمي ندى أرسلت لي صورا جميلة من النزهة. أقفلتُ الخط والتفتتُ إلى الفتاة خلفي لأنزع عن فمها بقوة الشريط اللاصق: - من تكونين بحق الجحيم؟ - أنا ندى. قالت والدموع تغطي وجهها ثم أضافت: ماذا تريد مني يا كوتشو؟ أقسم أنني سأخبر لمياء بكل شيء، أعلم أنك اغتصبت ابنة عمي وتريد أن تغتصبني كذلك. -اخرسي. وضعت الشريط اللاصق على فمها مجددا.

Scanned by TapScanner

كان الضباب الكثيف قد أخذ يحجب أشعة الشمس في ذلك الوقت.
- انحني تحت الغطاء وإلا ثقبت جمجمتك. شغلت السيارة وتوغلت في الغابة التي يلفها الضباب من دون تحديد الوجهة التي سأقصدها، فكرت في نفسي أن أكبر خطأ يمكنني اقترافه هو ترك ندى حية، لأن تركها حية معناه الزج بي في السجن لمدة لا تقل عن ثلاثين عاما، معناه أنني اختطفت قاصرا تحت تهديد السلاح الناري الذي سرقته من شرطي قتلته عمدا، فضلا عن حيازة أسلحة بيضاء. بعد تفكير سريع خلصت إلى أنه يجب عليّ قتلُ ندى، فحددت الوجهة وأدرت عجلة القيادة بعنف منعطفا ناحية اليمين باتجاه البحر الذي ما فتئ ينفث ضبابا كثيفا، توقفت بمحاذاة جرف صخري عال تتكسر عليه أمواج المحيط المظلم كالقبور، كان المكان خاليا من البشر، لا شيء يظهر بوضوح، ولا شيء يسمع سوى هدير الأمواج الوحشية التي تنفث إلى ساحل البحر كل الذكريات والمواعيد، وسراويل العاهرات وأحلام الشباب. فتحت الباب الخلفي للسيارة، وأخرجت ندى جارا إياها من شعرها وهي مغلولة اليدين، حاولتْ ركلي ومقاومتي برجليها، لكن من دون جدوى، كانت تحاول أن تصرخ بشدة لولا الشريط اللاصق الذي كبت صراخها. أخرجت المسدس وأطلقت على جبينها من مسافة قريبة جدا فاخترقت الرصاصة جمجمتها، ثم جررتُ صخرة ثقيلة الوزن وشددتها بواسطة الملاءة على بطن الجثة

Scanned by TapScanner

المضرجة بالدم، ودفعتها بيديّ ورجليّ من حافة البحر العالية. وقفتُ عندئذ متنهّدا ويديّ على خصري لأشاهدها تهوي وسط الضباب، وتغوص بعيدا في بحر الظلمات متجهة إلى مثواها الأخير. أفرغت لتر البنزين على دمائها الممزوجة بالوحل وملح المحيط، وأحرقتها، كما رميت المسدس والمجرفة والسكين وكل تلك الأغراض اللئيمة بعيدا في البحر، وصعدت السيارة متوجها نحو كازابلانكا كأن شيئا لم يقع، لكن قبل مدخل الطريق السيار المفضي إلى المدينة البيضاء غسلت السيارة بعناية في محطة الوقود.

أنْ تكون ندى مذنبة أو بريئة لا يهم في شيء، كونها لو تُرِكَتْ على قيد الحياة لفضحت بدون شك أمري، إن الموت بالنسبة إلي أفضل من التعفن في السجن مدة ثلاثين عاما، إن هذا الأخير هو نفسه موت من نوع آخر، موت بقلب يخفق، لكنه مؤلم للغاية، فأي معنى للحياة داخل أسوار مغلقة لمدة ثلاثين سنة؟ لذلك كان من الأفضل أن ترقد روح ندى المسكينة بسلام من أجل أن أتفادى ذلك الجحيم الدنيوي اللعين. هذا هو الإنسان، يعيش على حساب أخيه الإنسان، يموت الغير ليعيش الأنا، إنه القانون الحتمي للطبيعة البشرية الشريرة.

اتصل بي رشيد وأنا في طريقي إلى كازابلانكا، قال لي والأسى يمضغ قلبه بالألم أنهم عثروا هذا الصباح على شقيقه ميتا في غرفته. أبديت له هول صدمتي وسألته عن سبب وفاته، فصرّح أنهم

Scanned by TapScanner

ينتظرون نتائج التشريح الطبي على أحر من الجمر، كما أعرب لي عن مدى حيرتهم تجاه اختفاء مسدس شقيقه، فنعيتُه في وفاة هذا الشاب المسكين، معبرا له عن أسفي الشديد، ومتمنيا له أن تصل الشرطة إلى نتائج ملموسة، وأن ينال المرحوم العدالة إن كان مقتولا، ويعاقَب قاتلوه أقصى درجات العقاب. فكرتُ في نفسي بعدما أنهيت المكالمة مع رشيد أن احتمال اكتشاف أمري من قبل الشرطة بعيد جدا، لأنني لم أترك أي أثر لبصماتي، أما مسألة اختفاء المسدس - وهذه مشكلة أخرى- فإن الشرطة ستفترض على ما أعتقد أنه قد سُرِق منه خارج المنزل، أو أتلفه في مكان ما، فهناك العديد من الاحتمالات المتشابكة والمعقدة التي ستفترضها الشرطة العلمية، حقا لست أعرف شيئا، ما أعرفه الآن هو أنني خائف للغاية.

وصلت إلى كازابلانكا، ودفعت السيارة مغسولة ونظيفة بعناية إلى أهلها في شركة كراء السيارات الذين يشتغلون طيلة أيام الأسبوع، وفي الوقت نفسه تلقيتُ رسالة نصية عبر واتساب من لمياء تقول فيها أنني تأخرت، وإنها لا تزال تنتظرني في مقهى بريماڤيرا، فأجبت على الرسالة قائلا إني في الطريق إليها، قادم من حي الألفة في الباص الأصفر اللعين رقم 143. وأجبت في نفس الوقت على رسالة مولا كيلا تغضب وتقول إنني ولجت الواتساب ولم أرسل لها رسالة، كانت مولا تعبر في رسالتها عن مدى اشتياقها لي، وتسألني عن حالي وأحوال

Scanned by TapScanner

عـائلتي جميعـا، وعـن موعـد عـودتي إلى مـراكش، كمـا ختمـت رسـالتها كعادتها بكلمة "أحبك".

دخلت مقهى بريماڤيرا فلم أجد لمياء بعدما ألقيت نظرة في جميع أركان المقهى، أثار غيابها استغرابي فاتصلت بها، أجابتني غاضبة أنها خرجت لشراء تعبئة من الحانوت لأنها كانت تود أن تتصل بي للتو بسبب تأخري وهي عائدة الآن إلى المقهى. كان في الحقيقة صوتها مضطربا يشي بتصنع في القول، أو ربما كذب. استويتُ على مقعد هنالك في المقهى، وأخذت من على الطاولة جريدة يومية كانت أولى صفحاتها تتحدث على شرطي وُجد ميتا ومسدسه المهني مفقود، وعندما رفعت رأسي قليلا لأقلب الصفحة، فوجئتُ بوجود رجلين يقفان أمامي، أحدهما كهل ذو شارب كثيف يرتدي معطفا جلديا أسود اللون ويعتمر قبعة كلاسيكية، والأخر شاب طويل القامة أصلع الرأس يرتدي نظارة شمسية. – هل أنتما من عائلة لمياء؟ سألتهما. فأجاب الرجل الكهل: - نحن من عائلة الشرطة، قم وتفضل معنا. – الشرطة؟ وماذا تريدان مني؟ تفضلا بالجلوس أولا، ماذا تريدان أن تشربا؟ - نحن من سيعرض عليك المشروب، لكن ليس هنا. – وأين؟ - في مفوضية الشرطة، هيا قم فليس لدينا وقت لنخسره. كاد يغمى عليّ عندما علمت أنهما شرطيان، وفكرتُ أنهم عرفوا لا محالة أنني المجرم الذي قتل الشرطي أو ندى أو هما معا. –

Scanned by TapScanner

لن أذهب معكم إلى أي مكان، أنا بريء لم أفعل شيئا. فرد الشرطي الشاب بعدما أمسكني من كتفي الأيسر: - يمكنك قول ذلك في مفوضية الشرطة، والآن هيا بنا. في تلك اللحظة تخضَّلت عيني بالدموع، وشعرت أن وجودي شرع في الانهيار داخل هذا العالم مثل جبال الجليد الذائبة في عرض المحيط، شعرت بذلك عندما طفق الشرطي يقيدني بالأصفاد المعدنية. وحينما كانا يقتادانني إلى الخارج باتجاه سيارة الشرطة المركونة أمام باب المقهى؛ صُدِمتُ بوجود لمياء واقفة بمعية والدها الذي كان واقفا على جانبها الأيسر، واضعا يده اليمنى على كتفها الأيمن ومستندا بيده اليسرى على باب سيارة الشرطة، بينما هي مشبكة ذراعيها على صدرها تجهش بالبكاء وتومئ برأسها معبرة عن الرفض: -حرام عليك يا بابا.. حرام..إنه سيتزوجني ولهذا السبب جاء إلى المقهى ليتحدث معي حول الموضوع نفسه. حينما سمعت هذه الكلمات التي تقطع نياط القلب تنفستُ الصعداء، وأدركت أن الأمر لا يتعلق بجريمتَيْ القتل، بقدر ما يعني أن والد لمياء غدر بي واتصل بالشرطة لما علم بمجيئي، أو إنه تجسس على هاتف ابنته ليملي عليها قسرا ما فعلته للتو؛ أي خروجها من المقهى. وحينما أردت صعود السيارة بصق والد لمياء في وجهي: - كلب، مجرم. بينما علا بكاء لمياء، وحُشِر الناس حولنا. وضعتُ أول قدم داخل السيارة فقالت لي لمياء: - كوتشو إني أحبك، أقسم أنني أحبك

Scanned by TapScanner

ولم أؤذيك أو فكرت في أن أؤذيك في يوم من الأيام، سامحني كوتشو، أعدك أنني سأفعل كل ما بوسعي فعله لأخرجك من السجن. التفتتُ إلى الشرطي الذي يمسكني من ذراعي وقلت له: -هل تأذن لي دقيقة بالحديث معها؟ -نعم بالطبع يمكنك ذلك. رد الشرطي. وصحتُ بلمياء فدنت مني فضغطتْ على يدي وهي تبكي. -لمياء لا مزيد من البكاء فأنا على دراية بأنكِ لم تتصلي بالشرطة، وعلى علم كذلك بأنكِ تحبينني، لكن لدي طلب للمرة الأخيرة قبل أن أدخل السجن. - ما هو طلبك يا كوتشو؟ قله لا تتردد، لأنني سألبي طلبك بلا شك. — أريدك أن تحافظي على مؤلفات الفلاسفة المغاربة القدامى إلى أن أخرج من السجن، إني أعزها كثيرا، وأكثر من أي مؤلفات أخرى. — هل تقصد الكتب المعزولة في صناديق من الكارتون؟ -طبعا، سبعة صناديق معزولة في الركن الأيمن من الغرفة بها كتب ابن حزم وابن رشد وابن عربي وغيرهم. —كن مطمئنا يا كوتشو إنها أمانة في عنقي، سأسهر على حفظها، وسأشرع ابتداء من اليوم في نقلها إلى غرفة نومي. —*موتشيسيماس غراسياس* لمياء، اعتنِ بنفسكِ وبالجنين. نظرتُ في وجهها للمرة الأخيرة ثم دخلتُ، فأغلق الشرطي الباب وتحركت السيارة، فنظرتُ من الزجاجة الخلفية فرأيتُ لمياء تلوح لي بيد وتكفكف دمعها بالأخرى، ثم احتضنها والدها، لقد كان حقا

Scanned by TapScanner

بطنها بارزا وقد زاد وزنها، كما ظهرت على محياها ملامح التعب والإرهاق.

حملوني إلى مفوضية الشرطة المتواجدة بمقاطعة سباتة، وأدخلوني إلى مكتب لا يوجد به أحد سوى سرير متهالك كان في إحدى أركانه، وتركوني هنالك وحيدا لما يقارب ساعة من الزمن ليدخلوني بعد ذلك إلى مكتب التحقيق؛ حيث توجد مرقنة لتدوين تصريحات المعتقلين، وشرعوا يتعاقبون عليّ في التحقيق. في كل مرة كان يأتي شرطي مختلف عن سابقه ليطرح عليّ أسئلة جديدة، فتارة يأتي شرطي شاب، وتارة أخرى شرطي يقف على أعتاب التقاعد. مرة كان يسألني شرطي ودود، وأخرى عميد شديد الانفعال يسبني أكثر مما يطرح عليّ الأسئلة، وكانت هذه الأخيرة تختلف من شرطي لآخر. سألوني عن اسمي واسم والدي، ومحل إقامتي، ناهيك عن وظيفتي، ثم عن طبيعة علاقتي بلمياء وكيف تعرفت عليها ومتى كان ذلك بالضبط، وهل كنت في كامل قواي العقلية لحظة اغتصابها أم أنني كنت تحت تأثير المخدرات، ولماذا هربت إلى مدينة مراكش بعد عملية الاغتصاب، وكثير من الأسئلة المملة. اعترفت لهم بأنني أعرف لمياء، وأنني كنت أستأجر غرفة من والدها، بيْد إنني نفيت مطلقا عملية الاغتصاب، مؤكدا أن ذلك كان بالتراضي وعن طيب خاطر، بعيدا

Scanned by TapScanner

عن كل عنف أو ابتزاز، وإن ذهابي إلى مراكش لم يكن هروبا، بقدر ما كان سفرا طبيعيا لأجل غرض شخصي. غير إنهم لم يتقبلوا تصريحاتي، مصرّين على أنني اغتصبت لمياء طبقا لتصريحاتها نفسها، فضلا عن مقتضيات الشهادة الطبية التي تثبت أنها تعرضت للاغتصاب، وأنني سأنال جزائي، خاصة عندما رفضت الزواج منها. وهنا تدخلت لأقول لهم إنني لم أرفض الزواج منها، بل على العكس من ذلك جئت إلى مقهى بريمافيرا لأتحدث مع لمياء حول موضوع الزواج، إلا إن أباها قدمني إليكم، أما الآن فإنني أعلن رفضي التام الزواج من لمياء والسجن أحب إليّ مما تدعونني إليه.

بعد أكثر من نصف ساعة من التحقيق، والشتم، والصفع أحيانا، دخل شرطي متوسط العمر، كان ودودا إلى أقصى الحدود، ومن طينة بالغة العدل والوقار. سألني هذا الشرطي عن سبب مجيئي إلى كازابلانكا، فأجبته أن غرضي من ذلك هو الدراسة، فابتسم ودخل معي في نقاش شبه ثقافي حول البحث الأكاديمي والجامعة، وأحوال الدراسة. كما أخبرني أنه ينحدر من قرية تغبالت بإقليم زاكورة، وهو الشيء الذي جعله يعاملني معاملة حسنة، بحسباني أنتمي مثله إلى منطقة الجنوب الشرقي للمملكة المغربية الكبرى، مقتنعا أن أساريري لا تنم عن ارتكاب جريمة، بعكس ما تشير ملامحي إلى طالب بريء لا يعرف سوى الكتب. دخلنا في صمت ذاهل، ثم جلس على

Scanned by TapScanner

حافة المكتب وقال: - أخشى أنك ضحية فتاة قاصر، على الرغم من كونك طالب ناضج يدرس الفكر النقدي بسلك الماستر، أخشى صراحة أن تكون هذه الفتاة قد استدرجتك إلى شَرَكها مثل عصفور جائع وغبي. استمررت في صمتي ثم قلت له: - هل أجد عندك سيجارة؟ - بالطبع موجودة، تفضل خذ. أعطاني السيجارة والولاعة ثم شرعت أدخن. – هل لديك طلب آخر؟ - نعم أريد أن أجري اتصالا إذا كان القانون يسمح بذلك. – بالطبع يسمح بذلك، سأذهب لإحضار هاتفك. قال ذلك وخرج، ليعود بعد عشر دقائق تقريبا ومعه الهاتف ونصف لتر من الحليب، بالإضافة إلى قطعة كعك. منحني ذلك، وخرج مرة أخرى ليترك لي فرصة الاتصال على انفراد.

أخذت الهاتف بين يدي وفكرت في الاتصال بمولا، فكرت أن أصارحها، وأبوح لها بما فعلتُ قبل أن تكتشف سري بنفسها، غيرَ إنني كنت مترددا في فعل ذلك بسبب الخوف من ردة فعلها، كنتُ في الحقيقة خائفا جدا مذ أدخلتني الشرطة إلى هذا المكان الكئيب، لم أكن أخاف على نفسي، ولكن كنت خائفا على حال أمي وردّة فعل مولا عندما ستعرف الحقيقة. وبعد تفكير حثيث، استطعتُ أخيرا أن أخمد حمأة الخوف تلك، واتصلتُ بمولا لأخبرها الحقيقة بشكل مباشر ومن دون مقدمات، أخبرتها أنني كنت أخونها طيلة الفترة التي

Scanned by TapScanner

كنت أقيم فيها بكازابلانكا مع جارتي المراهقة التي كنت أكتبري غرفةً في منزلهم، وإن هذه الأخيرة حاملٌ الآن بابني، كما إنني لم أسافر إلى قريتنا، بل جئت إلى كازابلانكا لتسوية المشكل بيني وجارتي المراهقة، إلا إن الشرطة الآن ألقتْ عليّ القبض بتهمة اغتصاب قاصر. أكدت لمولا أنني كنت أكذب عليها، جاعلا إياها تعيش في عالم من الأوهام والوعود الكاذبة، لم تصدقني في البداية، كانت تضحك، وتسألني هل أنا سكران أو مخدَّر، أم إنني أريد فقط أن أمزح معها لاختبر ردة فعلها مثل ما يفعلون في برامج الكاميرا الخفية، حاولت أن أبين لها بشتى الطرق أنني لست أكذب عليها، غير إنها لم تصدقني. أقفلتُ الخط، وولجتُ الواتساب فأرسلتُ لها الفيديو الذي يوثق العلاقة الجنسية بيني ولمياء، إلى أن تأكدتُ من أنها شاهَدَتْه فحَذَفْتُه مِن كِلاَ الجانبين كيلا تنتقم وتقوم بنشره فتشوّه سُمعتي. اتصلتْ بي مباشرة بعد أن شاهدت الفيديو، لقد كانت مذهولة، وغير قادرة على التصديق، فجأة شرعت تبكي بكاء لا سلوى له، وتصرخ بأعلى صوتها، كانت تسبني بألذع أنواع السب والشتم، قالت إن الكارثة العظمى تكمن في أنني خُنتها مع مراهقة لم تمسح بعدُ مخاط أنفها، على حد تعبيرها، وأن قتلها لي عاجلا أو آجلا بسبب هذه الخيانة الشنعاء هو أمر لا رادّ له.

Scanned by TapScanner

دخل على حين غرة عميد الشرطة بوجهه العابس، وهو الذي سبق أن طرح عليّ أسئلته الاندفاعية قبل ساعة، فأقفلت الخط قبل أن تنهي مولا الجريحة تهديداتها، وأقحمت الهاتف في جيبي دون أن ينتبه لذلك. ثم لحقه الشرطي الودود، فأخذ مني الهاتف أمام أنظار عميده وأطفأه ثم وضعه على مكتب التحقيق، كنت آمُلُ أن لا يفتشا هاتفي كيلا يعثرا على الفيديو الفاضح، ومن حسن طالعي أنهما لم يفعلا ذلك. شرعا يحققان معي من جديد، كما سألني عميد الشرطة إذا ما كنت أبغي الاعتراف بالتهمة الموجهة إليّ، فكان جوابي ثابتا؛ وهو أنني لم أغتصب لمياء. وعندما بدأ التحقيق يفتر، سألاني إذا ما كان لدي شيء أريد أن أضيفه، فأجبت بالنفي.

شربتُ نصف لتر الحليب ذاك واحتفظت في جيبي بقطعة الكعك، ثم صاح العميد بالشرطي الحارس، آمرا إياه أن ينزلني إلى الزنزانة، فنفّذ هذا الأخير أمره، كان الليل قد حلّ، والزنزانة تَغُصُّ بالسكارى والنشالين، وممن يتعاطون حبوب الهلوسة، ناهيك عن حملة السيوف الذين يهددون سلامة الأشخاص، كما كان بلاط الزنزانة مليئا بالقيء. لقد غرقتُ في حالة وهن محموم إثر ذلك المنظر الشبيه بالجحيم، وقد كنتُ أتمنى بفارغ الصبر أن يحملونني إلى السجن في أقرب وقت كي أتخلص من ذلك الضجيج والعربدة التي لا تطاق، فلجأت نحو ركن شاغر من الزنزانة، ودفنت وجهي في قميصي تجنبا

Scanned by TapScanner

لرائحة القيء والخمر الرخيص، وبقيت على تلك الحال حتى استسلمت للنوم.

-26-

أيقظني الشرطي الحارس من نومي في حوالي الثامنة صباحا قائلا: - خذ هاتفك واستعد، ستذهب الآن إلى سجن عُكاشة. عندما سمعت ذلك وأنا لازلت حينئذ في غيبوبة النعاس انتابني شعور بالفرح شديد، لأنني سأستطيع أخيرا أن أتخلص من هذه الروائح النتنة، ولا أظن أن أحدا سيطيق تحمل رائحة القيء. لقد قيدوا يدي وحملوني في سيارة شرطة ذات نوافذ غير شفافة تقريبا لأنها مغلفة بنوع من البلاستيك الأسود المقوى، فضلا عن الشباك الحديدي الذي يحمي زجاج النوافذ، كانوا بطبيعة الحال يتجهون نحو سجن عكاشة في حي عين السبع. كان معي في السيارة أربعة من رجال الشرطة؛ اثنان منهما يجلسان جنبي في الخلف، والآخر يجلس في الأمام بجانب الشرطي السائق.

وصلنا إلى سجن عكاشة بعد حوالي ربع ساعة، وقد عرفت أننا وصلنا من خلال التوقف المتكرر للسيارة، وسماع صليل مزلاج الباب عند فتحه. لم تكن الرؤية واضحة عبر نوافذ السيارة، لكنني تأكدت رغم ذلك أنه توجد أكثر من بوابة واحدة للسجن كانت تمر منها السيارة وقت دخولها، وبينما كانت هذه الأخيرة تعبر بوابات السجن خامرني

Scanned by TapScanner

شـعور غريـب، شـعور باكتشـاف مكـان مجهـول لأول مـرة، وفي نفـس الوقـت اعتراني شيء من الخـوف، لدرجـة أن دمعـة سـقطت من عيني لمّـا تـذكرت مـا كـان يحكيـه لي أحـد أصـدقائي عـن ويـلات السـجن وأهوالـه، كمـا كنـت أفكـر في ردة فعـل مـولا بعـدما عرفَـت الحقيقـة، وحـال والـدتي، كنـت أيضـا مشـوش الـذهن حُيـال مسـتجدات قضـية الشرطي الـذي قتلتـه بدم بـارد، متسـائلا أين وصـل تحقيـق الشـرطة في هـذه المسـألة. لقـد طرحـت على نفسـي أسـئلة عديـدة، كان أبرزهـا: كـم سأمكث داخل هذا السجن؟

عندما أنزلوني من السيارة، كان أول شيء اكتشـفته في السـجن هـو أن لـون الأبـواب أزرق مثـل لـون المحـيط، أو السـماء الفسـيحة. كان ثمـة سُـلما صـغيرا صـعدت مـن خلالـه والشـرطيان يمسـكانني مـن ذراعي، حيث أدخلاني إلى غرفة صغيرة بها رجل يجلس في مكتبه، وقـد كان في الغرفـة مجموعـة من الصـناديق الصـغيرة المتراصـة، أدخلاني الغرفـة وانصرفا مغلقان الباب من ورائهما، ومن ثَم قدّم لي الرجل الـذي كان يجلـس في مكتبـه صـندوقا صـغيرا، وطلـب مني أن أضـع فيـه كـل مـا أحملـه معي، فوضـعت هنـاك الهـاتف والمفـاتيح، وسلسـلة العنـق، والخاتم، فضلا عن حافظة النقود التي بها أيضا وثائقي الشخصية، ثُـم أخـذ الصـندوق وأعطـاني بطاقـة كُتـب عليهـا الـرقم 15، وبعـدها طلب مني أن أتفضل معه إلى غرفة مجاورة حيث أمرني بخلع ملابسي

Scanned by TapScanner

كلها، بينما أخذ يضع في يديه قفازين طبيين، ففعلت ذلك دونما تردد، فطفق يفتش مؤخرتي وتحت خصيتي، وذلك بعدما كان يأمرني برفع يدي عاليا وجلوس القرفصاء أيضا.

انتهى من تفتيشي فارتديت ملابسي، ثم طلب منّي أن أتبعه مرة أخرى عبر رواق طويل، وأنا أسير خلفه رأيت العديد من الناس في ذلك الممر، فمنهم من جاؤوا بهم للتو إلى السجن، ومنهم من سيذهبون بهم إلى المحكمة بغية محاكمتهم، وآخرون على وجوههم يرتسم الفرح لأنهم سيفرج عنهم. انعطفنا يسارا ثم دخلنا غرفة بها مكتبان وموظفان طلبا مني الوقوف باستقامة، ثم الالتفات يمينا فيسارا، بينما كانا يلتقطان لي صورا فوتوغرافية. بعد ذلك أخذا جميع بصمات أصابعي بما في ذلك الإصبع المشوهة، ودوّنا اسمي الكامل وأعطياني رقم الاعتقال الخاص بي، ثم خرجت أتبع من جديد الرجل الذي فتش جسدي إلى ما يسمونه هناك بجناح الاعتقال. ونحن نسير بخطى سريعة كان يقول لي لا تخف ولا تحزن فكل شيء سيكون على أحسن ما يرام، فأنت بالنسبة إلينا ضيف، وما علينا نحن إلا أن نكرم الضيف ونحسن معاملته. لم أنبس بأي كلمة بينما استمر الرجل يصف لي السجن، ويحاول إقناعي بأن السجن مخالف تماما لتلك الصورة التي يمررونها لنا عبر الأفلام السينمائية. واصلنا المشي عبر رواق كبير، حيث مررنا بمطبخ السجن، والمكان المخصص

Scanned by TapScanner

للمحامين، وغير ذلك من القاعات حتى وصلنا إلى الباب الحديدي الكبير الذي كان يفصل إدارة السجن عن المساجين. كان بمحاذاة الباب مكتب رئيس المعقل، وموظف آخر يقوم بمهمة فتح الباب وغلقه، وهو الذي سجل اسمي ورقم اعتقالي وأشياء أخرى لست أعرف عنها شيئا، ثم فتح لنا الباب. وعندما تجاوزنا الباب الحديدي الكبير كان أمامنا مسلكان فقط؛ واحد إلى اليسار، والآخر إلى اليمين، بينما اتجهنا نحن ناحية اليسار ثم انحرفنا يمينا، ثم يسارا، فيمينا، لنسلك بذلك ممرا طويلا وواسعا على يمينه ويساره توجد أبواب الأجنحة، إذ كان ثمة جناحا خاصا بالقاصرين، وجناحا مخصصا للطلبة، ثم جناح العزلة، إلى أخره من الأجنحة.

دخلنا الجناح رقم 11 الذي كان يترأسه رئيس يجلس في مكتبه، إلى جانب مجموعة من الموظفين يحيطون به مثل حرس يحرسه، سلمني له الرجل الذي جاء بي ثم انصرف، فاستقبلني رئيس الجناح بابتسامة فاترة، وطلب مني أن أتفضل معه إلى الزنزانة رقم 5. أدخلني إلى هذه الأخيرة ثم أقفل من ورائي باب الزنزانة ذو القضبان الفولاذية، وغادر إلى حاله. لقد كان في الزنزانة ثلاثة سجناء؛ أستاذ جامعي أشقر متهم بقضية الجنس مقابل النقط ويقول أنه مظلوم، وبرلماني متهم بنهب المال العام، وقائد جماعة قروية سُجن بسبب

Scanned by TapScanner

أخـذه الرشـوة وتوقيعـه شـواهد عـدم العمـل لأشـخاص يعملـون في القطاع الخاص أو العام.

استقبلني السجناء جميعهم بصدر رحب، فيما وقفت أنا مشلولا من الـذهول بسـبب صـغر الزنزانـة التي لا يكـاد يتعـدى عرضـها وطولهـا حوالي مترا وثمانين سنتيمترا، والتي كانت تبدو لي شبيهة بقفص صغير بـه ثلاثـة حيوانـات مفترسـة. كـان داخـل الزنزانـة على يمـين البـاب مرحـاض صـغير جـدا، إلى جانـب مجموعـة مـن الأسـرّة بعضـها فـوق بعض، بيْد إن الرجل البرلماني وهو شخص بَدين للغاية، كان له سرير واسـع في الأسـفل، بـالموازاة مـع الأسـرّة الأخـرى الصـغيرة الموجـودة في الأعلى، والتي ينـام عليهـا القائـد والأسـتاذ الجـامعي. أعـدوا لي سـريرا في الأعلى، وأعطوني ملاءة نتنة الرائحة، وما إن تمددت على السرير من أجل نيل قسـط من الراحة حتى شرعوا يسألونني عن سبب اعتقالي، وحينمـا أجبـتهم أنني اغتصـبت قاصـرا فـتح الأسـتاذ الجـامعي نقاشـا طـويلا عريضـا عـن كيـد النسـاء وعهـرهن، وكيـف ينـتقمن مـن الرجـال الذين لا يذعنون لرغباتهن الشيطانية.

-27-

في وقـت مـن الليـل، لا أذكـر في أي سـاعة بالضـبط لأنني كنـت تحـت تأثير النعـاس، أيقظني الأسـتاذ الجـامعي من أجل تنـاول وجبـة العشـاء معهم، حيث جلسـنا نحـن الأربعـة نتحلّق حـول المائـدة الصـغيرة وسـط

Scanned by TapScanner

الزنزانة، جالسين على حافات الأسِرَّة، لقد كنت جائعا بما يكفي، وكانت وجبة العشاء الدسمة المكونة من الخضار واللحم، كفيلة بأن تسد رمقي. انتهينا من وجبة العشاء التي لم أساهم في تحضيرها لا من قريب ولا من بعيد، ولكي أكفر عن ذلك، ابتغيت غسل الأواني التي أُستعمِلت في تحضير العشاء لحظتئذ، وتوضيبها في مكانها المخصص لها، إلا إن السجناء جميعهم رفضوا ذلك، بدعوى أنني لا أزال سجينا جديدا لم يكمل يومه بعد، فتكفل الأستاذ الجامعي بغسلهم، وعدت أنا إلى سريري لاستكمال نومي.

استيقظت في التاسعة صباحا، على وقع ضجيج غير معهود نتج عن فتح حراس السجن جميع أبواب الزنازن التي كانت مزاليجها تصدر صريرا مزعجا، وقد كان الحارس بعد أن يفتح الزنزانة، يلقي نظرة على السجناء بغية التأكد من عددهم، وذلك استنادا إلى لائحة يحملها في يده عليها أسماء السجناء وأرقامهم، كان الأمر شبيها بتسجيل الحضور في المدارس. وحينما تأكد الحارس من وجودنا نحن الأربعة، غادر وترك باب الزنزانة مشرعا، فلحقه بعد ذلك موزع الفطور، يدفع عربة يدوية، وهو أيضا من السجناء، أعطاني كوبا من القهوة، وعلبتين صغيرتين؛ واحدة من مربى المشمش، والأخرى من الزبدة، وخبزة. أما السجناء الذين معي، فلم يأخذوا منه سوى الخبز، لأن مستلزمات الفطور كانت متوفرة لديهم في الزنزانة؛ مثل الشاي

Scanned by TapScanner

والحليب المعقم، وزيت الزيتون، علاوة على المكسّرات، وهكذا اجتمعنا نحن الأربعة على المائدة الصغيرة، وتناولنا فطورا متنوعا. وفي حوالي التاسعة والنصف، خرجنا نتسكع في ساحة الجناح، إذ جلس القائد والبرلماني في ركن مشمس من الساحة، بينما طفقت أنا والأستاذ الجامعي ندخن ونطوف حول الساحة، متبادلين أطراف الحديث. كان في الساحة عدد كبير من السجناء اليائسين الذين يحملون بين أكتافهم شقاء العالم، فمنهم من يمشي منخفض الرأس وهو حزين، منهم المثلي الذي يبيع جسده مقابل الحماية، منهم من يبيع الممنوعات في الخفاء، بعضهم يجري ليزيل عن جسمه القذارة وبعضهم يقعي ليشعل سيجارة، وآخرون محبطون ينتظرون رصاصة الخلاص.

لقد اعتبرني الأستاذ الجامعي صديقا يمكنه الوثوق به، فشرع يحكي لي عن تفاصيل حياته، وعن أموره الشخصية، وأنا بدوري كنت أروي له لحظتئذ تفاصيل مشكلتي. حكيت له عن مولا وعن لمياء، لكنه ذهل حينما أخبرته بأنني نجحت للتو في مباراة التعليم وأصبحت أستاذا، أستاذٌ التحق بالسجن عوض مركز تكوين الأساتذة، فكان رده مختصرا؛ وهو أنه لا يجب عليّ مطلقا أن أبقى في السجن، وينبغي أن أفعل المستحيل من أجل الالتحاق بعملي. سألته عن الحل إذن، فطلب مني أن أعطيه مهلة للتفكير، وفي أثناء

Scanned by TapScanner

الفسحة المسائية سيخبرني بالحل، سألني أيضا عما إذا كنت أحتاج إلى الاتصال بشخص ما، لأن لديه هاتفا مخبأ في الزنزانة، أجبت بأنني في حاجة ماسة إلى الهاتف، وسأكون ممتنا له كثيرا إذا أعارني هاتفه، فقال إنه سيزودني به هذه الليلة حينما يكون السجناء يتفرجون على شاشة التلفاز في مباراة الوداد البيضاوي التي ستُلعب هذه الليلة في الخامسة والنصف مساء.

انتهت الاستراحة الصباحية في حوالي الساعة الحادية عشرة، حيث أمرَنا حراس السجن بالدخول إلى الزنازن، فدخلنا وأغلقوا الأبواب من خلفنا. وحينما ولجنا زنزانتنا، تكلفت أنا شخصيا بتحضير وجبة الغذاء، فتناولنا غذاءنا المكون من طاجين مغربي بلحم البقر وبضع تفاحات نصفهن خامج، مشكلين كالعادة مائدة من أربعة أفراد، ولما انتهينا استلقى كل واحد في سريره وناموا جميعهم القيلولة، أما أنا فأخذت كتابا أعطانيه الأستاذ الجامعي، فصعدت إلى سريري وطفقت أقرا، كان الكتاب لـ ماريو بارغاس بعنوان: من قتل بالومينو مولير، ولا زلت أذكر أنه كان يبتدئ بالعبارة التالية: *يا لأبناء أعظم العاهرات*. لم أخلد إلى النوم كباقي السجناء الثلاثة، وإنما واصلت قراءة الكتاب بدون تدبر كلماته؛ أفكر في الحل الذي سأسمعه من الأستاذ الجامعي، حتى أتى حارس السجن، وفتح باب زنزانتنا وباقي زنازن الجناح، فأيقظت الأستاذ الجامعي من نومه كي نخرج إلى

Scanned by TapScanner

الساحة نستنشق بعض الهواء النقي خلال الاستراحة المسائية. فخرجنا معا، فيما ظل السجينان الآخران نائمين، وابتركنا في ركن من الساحة؛ ندخن السجائر. –لقد قلتَ لي في الصباح إنك ستقدم لي حلا للخروج من ورطتي حالما تصل فترة الاستراحة المسائية، فها هي ذي الفترة المسائية، ولهذا السبب أيقظتك من نومك، فما هو هذا الحل يا ترى؟ -آه يا أنير، لا زلتُ تحت تأثير النوم، لكن اطمئنْ، سأخبرك بالحل الآن. قال متثائبا واستطرد: سأقدم لك يا أنير نصيحة من ذهب أتمنى أن تعمل بها. –وما هذه النصيحة؟ قُل لي الآن، أنا في الاستماع إليك. –حسنا، بما أنكَ أصبحت الآن أستاذا، ولم يتبق لك سوى ستة أيام كآخر أجل لدفع وثائق التسجيل في المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، ولمياء حامل منك، وتحبك كما قلت لي في الصباح، ومولا هي الأخرى علمتْ بحقيقة الأمر، وأضحت تكرهك إثر ذلك، فلِمَ لا تتصل إذن بوالد لمياء و... –وما ذا سأقول له؟ قاطعتُه. -ستقول له إنك أصبحت أستاذا بالتعليم الثانوي التأهيلي، ومستعد لتعترف بابنك، وتتزوج من لمياء، وتعيشوا معا بسعادة، ومن ثمة فإنه لا شك سيتنازل عن الدعوى. –إنك تطنز عليّ يا دكتور، إني لا أظنه سيقبل ذلك. –أكيد لن يرفض يا أنير، رجاء لا تكن غبيا، لأنه لا يوجد أب على هذه الأرض اللعينة سيرضى بالعار، وسيقبل بأن يطعن في شرف العائلة من خلال ابنته التي

Scanned by TapScanner

ستنجب طفلا بطريقة غير شرعية، إن المغرب دولة محافظة يا أنير. –آه محافظة مع كامل الأسف، مُحافظة يا دكتور. كرّرتُ مُنْحَني الرأس. –أنا بدوري يا أنير لن أرضى بأن تحمل ابنتي من دون زوج رغم أنني أنحدر من مجتمع متسامح تجاه المرأة. –هل لديك ابنة يا دكتور؟ -طبعا لدي ابنة واسمها زِيوَا، وهي ابنتي الصغيرة والوحيدة من بين ثلاثة ذكور، لقد اشتقتُ إليها كثيرا يا أنير، لقد حرموني من ابنتي الغالية بسبب هذا الباطل الذي نزل بي كالصاعقة، أقسم يا أنير أنني لم أفعل شيئا ممنوعا، أقسم أنني دخلت السجن بسبب طالبة كانت مغرمة بي، مغرمة بعيوني الخضراء وشعري الأشقر، وحينما رفضت الإذعان لرغبتها كادت لي وألقت عليّ بهتانا عظيما، قالت إنني حاولت اغتصابها واقترحتُ عليها نقطا عالية في الامتحانات مقابل إقامة علاقة جنسية معها، والغريب في ذلك أن عددا كبيرا من زملائها الطلبة شهدوا ضدي انتقاما مني، لأنهم كسالى ولا يتجاوزون في امتحاناتي النقطة خمسة، آه يا أنير كم كنت غبيا حينما حذفت رسائلها الغرامية! قال وهو يمسح دموعه. –ولِمَ حذفتها يا دكتور؟ - حذفتها كيلا تقرأها زوجتي. –يا لها من قحبة لعينة! قلتُ له وبصقت في الأرض ثم تابعتُ أسأله: ومن أي من منطقة تنحدر يا دكتور؟ -أنا من حي آيت أُوخْلِيف بجماعة تونفيت الواقعة تحت سفوح جبال الأطلس الكبير الشرقي الشامخة. –تشرفنا يا دكتور. صافحته وغيرنا

Scanned by TapScanner

لغة تواصلنا إلى الأمازيغية رغم اختلاف اللهجتين. –على أي حال يا أنير إن والد لمياء سيفرح كثيرا بقرارك الشجاع هذا، وسيتنازل عن دعواه، خاصة حينما سيعلم بأنك عدت أستاذا. –لكن، دعنا نفترض يا.. –سِيفَاكْسْ، اسمي سيفاكس. –لنفترض يا سيفاكس أنني لم أتصل بوالد لمياء، وبالتالي لم يتنازل عن دعواه، فبكم سنة سأُحاكم؟ إنك رجل قانون يا سيفاكس، ولا شك ستجيبني على سؤالي هذا. –حسنا، يجب أن تعلم يا أنير أن الفصل 486 من القانون الجنائي المغربي ينص على أن الاغتصاب جريمة يُعاقَب عليها بالسجن من خمس إلى عشر سنوات، أما إذا كان سن الضحية يقل عن ثمان عشرة سنة فإن الجاني يعاقب بالسجن من عشر إلى عشرين سنة. –يا للهول يا سيفاكس! –هذا ما يقوله القانون يا أنير، وما عليك سوى أن تتصل بوالد لمياء كي يتنازل عن دعواه. –وهل يرتبط التنازل عن الدعوى بإجراءات معقدة أو شروط معينة؟ – الأمر بسيط للغاية يا أنير ويخلو من أي تعقيدات، فإذا كانت جريمة الاغتصاب والمتابعة تقوم بناء على شكاية الضحية، فإن التنازل عن الشكاية يضع حدا للمتابعة، ويُحتفظ بملف القضية إذا كان لدى وكيل الملك، حيث يمكن لهذا الأخير أن يقوم بالمتابعة رغم التنازل، وهذا احتمال مستبعد جدا. –وبماذا سأبرر لوالد لمياء جريمة الاغتصاب يا سيفاكس؟ هل سأصارحه بالقول إنني لستُ من فضّ

Scanned by TapScanner

بكرة ابنته؟ -إياك أن تفعل يا أنير، لا تزد جرحا على جرح، لديك ما يكفي من الأعداء كما قلت لي في الصباح، فلا تضف إليهم لمياء كذلك، لأن هذه الأخيرة ستكرهك كثيرا إذا أنت خرّبت علاقتها بوالديها، وقد يصيبها أمر غير محمود، أو تلقي بنفسها إلى التهلكة، لذا اتبع نصيحة الفيلسوف أرسطو وكن متريثا، لا متهورا، وحافظ على علاقتك الطيبة بلمياء لئلا تخسرها هي أيضا، انسَ أمر الاغتصاب، حاول فقط أن تتحدث إليه باحترام، وتحرّى ضبط النفس، أخبره إنك ارتكبت خطأ شنيعا وأنت الآن نادم على ذلك، وتود الاعتذار وتصحيح الخطأ، إنه سيسر بذلك يا أنير، وسيتنازل لا محالة عن دعواه قبل الإعلان عن محاكمتك.

لقد بدت لي نصيحة سيفاكس أنها بالفعل نصيحة ذهبية ستنقذني من ويلات السجن اللعين، لهذا سأعمل بها، ومن هنا قررت أن أتصل في المساء بوالد لمياء، لأن مصلحتي أولى من كل شيء آخر، والدفاع عن المصالح الشخصية يقتضي شيئا من التنازل عن بعض المفاهيم التي نحسبها خطأ أنها مبادئ مطلقة، والحال أنها مفاهيم نسبية مثل الكرامة والحقيقة والأخلاق نفسها، كما إنني لن أترك أمي تعاني بسبب وجودي في السجن، وسأتزوج من جارتي المراهقة، وأحتضن ولدي عندما يخرج إلى هذا العالم القذر، وأخبره أن العيش في هذه

Scanned by TapScanner

الرقعة الجغرافية ليس بالأمر الهين، كما سأهتم بعملي الذي أحبه من أعماق الفؤاد، وأُنقذ أمي من ويلات الفقر.

انتهت الاستراحة المسائية، وشرع الحراس يدخلون السجناء إلى زنازنهم، اشترينا من السجن ما سنحتاجه في تحضير العشاء، بالإضافة إلى السجائر، ثم دخلنا الزنزانة وقام الحارس مرة أخرى بإلقاء نظرة علينا، ثم أوصد الباب، فشغلنا التلفاز وشرعنا نشاهد كباقي سجناء الجناح مباراة الوداد البيضاوي، حيث كان السجناء في كل الزنازن يتفاعلون مع محاولات تسجيل الوداد للأهداف التي كانت تبث فيهم حماسة متأججة. وحينما سجل فريق الوداد هدفا مبكرا في شباك نادي الزمالك المصري، تعالت هتافاتهم، وكأنهم في مدرجات الملعب، وعندئذ أعطاني سيفاكس الهاتف بعدما أخرجه من تحت السرير، وقال لي أنه يتوجّب عليّ أن أدخل المرحاض، وأغلقُ الباب كي أتحدث بكل ارتياح. لقد كانت لمياء أول شخص اتصلت به بعد أن أغلقت باب المرحاض، لأنني كنت أحفظ رقمها عن ظهر قلب، لم تتعرف إليّ في البداية، ولما علمتْ أنني أنير بكتْ، وقالت إنها خائفة عليّ من ظلمات السجن، بل إنها لا تستطيع النوم كونها تفكر فيّ دائما، وتتساءل إذما كنت بخير أم لا. حاولتُ أن أطمئنها وأبين لها بأن الحياة في السجن عادية جدا، لهذا فأنا على أحسن ما يرام ولست أعاني من شيء، أخبرتها بأنني أريد أن أتحدث ضرورة مع

Scanned by TapScanner

والـدها، فتـرددتْ وبـدت خائفـة، ورفضـتْ أن تحـوّل الهـاتف لوالـدها شـريطة أن أقول لها سبب رغبتي في الحديث معه. ومتى أكدتُ لها أنني أريـد أن أخبره بقراري المتعلق بالزواج منها؛ فرحت وخافت في الوقت نفسـه، خافـت مـن أن أقـول لوالـدها إنهـا كانـت على علاقـة بشـخص يسـمى إليـاس، بيـد إنني طمأنتهـا بعـدم البـوح بـذلك السـر المنسـي، فحولتْ أخيرا الهاتف إلى والدها، وتحدث إليه مخبرا إياه بأنني قررت الاعتراف بابني، وبالزواج من ابنته، وأنني أصبحت أستاذا، ويجب أن التحـق بمركـز تكـوين الأسـاتذة قبـل نهايـة الأجـل، كمـا أننـي سـأسـكن بمعية زوجتي في إحدى الفيلات التي يملكها صديق لي بمدينة مراكش ريثما أحصل على التعيين بمقر عملي، فأجابني أنه يعلم أنني صرت أستاذا، ويريـدني أن أتـزوج مـن ابنتـه وهـذا أمـر لا ريـب فيـه، غير إنـه تعمـد إدخـالي السـجن كي أشـعر بـذنبي، وبعمـق الجـرح الـذي تسـببت فيـه لـه، ولكافـة عائلتـه على حـد قولـه، قـال لي إنني طعنتـه في شـرفه، واسـتغللت ضـعف ابنتـه القاصـر وطيش عقلهـا بسـبب سـن المراهقـة، فقدمت له اعتذاري الشـديد، كما تحدثت مع زوجته معتذرا منها هي الأخرى، دون أن أتلقى منها تنديدا أو صيحات. وقالا لي في الأخير إنهما في الغـد سـيتنازلان لي عـن الـدعوى، وسـيتم الإفـراج عني كي أتهيـأ للـزواج من لمياء، وحـوّلا في النهايـة الهـاتف للميـاء حيث أنهيت المكالمة بـالقول: -لميـاء اسـمعيني جيـدا، عنـدما سـأخرج مـن هنـا سـأتزوجك

Scanned by TapScanner

وسنسكن معا بشكل مؤقت في إحدى الڤيلات بمدينة مراكش الجميلة، فاستعدي لذلك. -حسنا كوتشو سأكون مستعدة، أحبك. لقد آتت نصيحة سيفاكس أكلها وبلغتُ بذلك مسعاي الأخير، وهو التخلص من غياهب السجن ومعانقة الحرية الملازمة للمسؤولية، والتخلص في نفس الوقت من الشعور بالذنب. أغلقتُ الخط وحوّلتُ الاتصال إلى صديقي رشيد الذي قتلت شقيقه، وسألته عن مستجدات تحريات الشرطة حول البحث عن القاتل، وهل عثروا على المجرم، فأجابني يثقل عليه الحزن والهم بأن الشرطة عثرت من خلال البصمات، على المجرم الذي قتل شقيقه ميتا بطعنة في قلبه، وملقى في شاطئ سيدي رحال، منتفخا بالماء بعدما لفظه البحر. قال لي إنهم في حيرة من أمرهم تجاه هذا اللغز الذي لم تستطع الشرطة تحليله، مكتفية بالقول إن الأمر يتعلق بعصابة إجرامية هي التي قتلت أخاه. قال ذلك وودعني. وعلى إثر ذلك انفرج همي قليلا تجاه هذا الإعضال، إذ أدركت جيدا أنه الرجل الذي التقيته في مكبِّ النفايات، والذي ترك بصماته على عبوة البيبسي.

كان كمال آخر من اتصلت به في تلك الليلة، فشرع يصرخ في وجهي ويلومني على عدم الرد على مكالماته، وقد بررت له ذلك بانعدام شبكة التغطية في بلدتنا الجبلية. حاولت أن أمتص غضبه بالحديث عن مباراة الوداد الرياضي، وتقدم الفريق في النتيجة، لأنه مشجع

Scanned by TapScanner

وفيٌّ لنادي الوداد الرياضي، إلا إن محاولتي لإخماد غضبه باءت بالفشل حينما قال لي بأنه لا يشاهد الآن المباراة، وغير مكترث لأمر الوداد، فكيف ستحلو له الفرجة وزميلته في الفصل وُجدت مشنوقة بحبل. –على رسلك يا كمال، عن أي زميلة تتحدث؟ سألته مندهشا فكان رده: -ألم تعلم يا أنير؟ لقد انتحرت مولا؛ عثروا عليها مشنوقة بحبل، ومعلقة بشجرة زيتون قرب مؤسسة العراقي. عندئذ سقط الهاتف من يديّ قبل إغلاق الخط، وتحول جسدي إلى ما يشبه الرميم بفعل عمق الصدمة، كدت أنا الآخر أن أسقط مستندا إلى جدران المرحاض، إلى أن سقطت ببطء فاغرا فمي، ومذهولا بسبب هذا الخبر الحزين جدا، الذي خلَّف لدي انطباعا بأنني بدأتُ أشيخ في تلك اللحظة، حيث أحسست بقشعريرة في جسدي كمن يغطس أول مرة في ماء بارد، وشعرت أنني تماديت كثيرا في ذنوبي. لقد أثقل عليّ في تلك اللحظة بالذات شعور بالذنب عظيم، لأن اعترافي بذلك الخطأ العابر هو المسؤول عن تلك الميتة المؤلمة، وأدركت حينها أن الاعتراف بالخطأ قد يكون قاتلا، وبالتالي فإن دروب الحياة الوعرة، تتطلب منا أن نُبقِي على أخطائنا في الماضي قيد الكتمان، إذما أردنا أن نسلك هذه الدروب بنجاح.

خرجت من المرحاض يعذبني إخفاق طموحاتي الذريع، وحياتي التي انقلبت رأسا على عقب، أعطيتُ الهاتف لسيفاكس وشكرت له

Scanned by TapScanner

فضله، ثم صعدت إلى سريري وتدثرت بالملاءة وشرعت أبكي وقتا طويلا، بينما كان السجناء يحسبونني نائما، وعندما دعونني لتناول العشاء، قلت لهم إنني لا أشعر بالجوع، وتدثرت من جديد مواصلا البكاء اللاإرادي يراودني طيف الماضي، ماضي مولا المفعم بالحب، هذا الأخير الذي تحول إلى هبّات قلق وكآبة. وحينما نام السجناء جميعا في ليلة القلق تلك، استسلمت أنا لجائحة الأرق وبت واقفا أمام باب الزنزانة وقفة تأمل، ممدا يدي اليسرى خارج القضبان، بينما أدخن باليمنى، كنت غارقا في أفكاري وأحزاني، يستبيحني الشعور بالذنب. وفي الهزع الأخير من الليل، خبت جذوتي والتأم جرحي، فتشبثتُ بقراري؛ ألا وهو الزواج من لمياء مهما كانت الظروف، والعيش بجانبها في ڤيلا جاد مؤقتا. لقد ماتت الآن مولا وصارت من العدم، أما جارتي المراهقة فلا تزال تنتمي إلى هذا الوجود، وقد شاءت الأقدار أن تكون حبي الأخير بدل أن تموت وتُقطّع على يدي، إنها الآن حياتي وعمري، فهي الآن كل شيء بالنسبة إليّ، هي العجلة والشراع، والسفينة والبحر والمجداف، وسحقا للعالم أجمع، فليس يهمني أمر مولا، ولتذهب هي وكمال وغيرهما إلى الجحيم، ليمت من يمت، وليعش من يعيش فذلك لن يثنيني عن عزمي.

Scanned by TapScanner

-28-

تنـازل السـيد حميـد صـبري والـد لميـاء عـن دعـواه القاضـية بـأنني اغتصبت ابنته، وتم بموجب ذلك الإفراج عني. اشتريت باقة ورود وذهبت إلى منزل لمياء في حي مولاي رشيد، فرحب بي السيد حميد وزوجه السيدة صوفيا الأندلسي، إلى جانب ابنيهما لمياء وآدم أحسن ترحيب. تحدثنا عن مسألة الزواج من لمياء، حيث اقترحت عليهم الاكتفاء بإمضاء عقد القران بحسبانه وثيقة رسمية سنعتبر من خلالها أننا زوجان بموجب القانون، ولا داعي إلى إقامة عرس قد يكون مكلفا من الناحية المادية. إلا إن السيد حميد اعترض على اقتراحي هذا مؤكدا أن لمياء هي ابنته البكر وهي عنده بمثابة الشمس للعالم، وبهذا قرر أن يقيم لابنته عرسا باذخا في قاعة أفراح متنقلة تكون في وسط الحي، غير عابئ باختفاء ابنة أخيه ندى، ولا بمشاعر أخيه نفسه الذي تفطر قلبه إثر هذا الاختفاء الأليم. كما قررت زوجته صوفيا أن تستدعي جميع الجيران الذين كانوا يقولون أن لمياء جلبت العار إلى الحومة، ليعلموا جيدا أن الفتاة التي جلبت العار على حد زعمهم هي نفسها التي تزوجت من الرجل الذي تحبه ويحبها؛ وهو الأستاذ أنير أزناگ، ابن الجبال الشامخة للأطلس الكبير الغربي. اتفقنا جميعا على أن حفل الزفاف سيقام بعد شهر، كما قرر السيد حميد أنه سيتكفل بشكل كلي بنفقة زفاف ابنته، ولكن قبل ذلك

Scanned by TapScanner

يتوجب عليّ كما قالت لي السيدة صوفيا، أن أسافر في الغد إلى بلدتي كي أُعلم أمي بالأمر، وأحضر الوثائق التي سأحتاجها في توثيق عقد القران، خاصة شهادة العزوبة التي تثبت أنني لست متزوجا من امرأة أخرى، وفي نفس الوقت أضع ملف التسجيل الخاص بي في المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بمراكش، أما المهر فينبغي أن يكون على قدر الاستطاعة، بحسب قول لمياء نفسها، وهو ما أكده والداها. وبعدما تناولنا وجبة الغداء، استأذنتهم في الخروج إلى المقهى، وأخبرتهم بأنني سأعود في المساء، ولما خرجت اتصلتُ برشيد الذي كان في إجازة بسبب ما حل بشقيقه، أخبرته أنني أمام كلية ابن مسيك؛ وقد جئت إلى كازابلانكا لآخذ بعض الوثائق من الكلية، فسألني هل نجحت في ذلك الاختبار المتعلق بمكتبة آل سعود فكان جوابي أنني لم أنجح.

بعد نصف ساعة من الانتظار جاء رشيد؛ وقد صار نحيفا للغاية، ثم نقلني بسيارته إلى مقهى ليبيرتا بشارع سقراط، حيث طلبت قهوة سوداء، فيما طلب هو حليبا ساخنا باللويزة. —أين وثائقك يا أنير؟ هل نسيتها في السيارة؟ -أيُّ وثائق؟ -الوثائق التي قلت لي إنك جئت لتأخذها من الكلية؟ -آه، لم آخذها بعد، لقد ذهب الموظفون لتناول وجبة الغذاء، لذا طلب مني بواب الكلية أن أرجع في المساء. —جيد، إذن سأقلُّك بالسيارة إلى هناك حينما سأكون متجها إلى الحي

Scanned by TapScanner

المحمـدي. – شـكرا لـك رشـيد. –يؤسـفني جـدا أنـك لـم تـنجح في الاختبار. –عن أيِّ اختبار تتحدث يا رشيد؟ -الاختبار الذي أجريتَ في مكتبـة آل سـعود، هـل نسـيت بهـذه السـرعة؟ - آه، آه تـذكرت للتـو. تلعثمـت وتابعـت أقـول: لا تشـغل بالـك يـا رشـيد، تلـك سُـنَّة الحيـاة، نخفق في اختبار، وننجح في آخر. -طبعا أنير، الحياة كلها اختبارات، لذا أتمنى لك التوفيق في قادم الفرص. -لقد أصبحت نحيفا جدا يا رشيد. -أتعلم يا أنير، لقد جافاني النوم منذ مقتل شقيقي، ولم يعد بمقدوري التفكير في أي شيء آخر غير رمزي، كما إن شهية الأكل لدي تناقصت كثيرا وأصبحتُ كثير الإدمان على الكحول، زد على ذلك أن مسالة الموت المحيرة باتت تؤرقني كثيرا، إذ صرت خائفا جدا من الموت بعد أن رأيت جثمان رمزي. –رشيد، ضغطتُ على يده وتابعتُ أقول: أنا في غاية الأسف، أعجز عن تخيل ما قد تشعر به، إنه حقا لشيء يحز في النفس أن يموت شاب طيب في ذلك العمر، كل التعازي القلبية صديقي، ولترقد روح رمزي في سلام.

خفض رشيد رأسه، واضعا كفيه على خديه والدموع تنزل من عينيه، لم أعد قادرا على البقاء جالسا، فنهضت واتجهت نحو النافذة، مررت إصبعي حول ياقة قميصي لأفكها وأشعلت سيجارة، كنت أنظر إلى شارع سقراط حيث كان ثمة شجيرات عارية من الأوراق ترتعش في الريح. -أنير هل تخاف من الموت؟ -ولِمَ تسأل يا رشيد؟

Scanned by TapScanner

قلت من دون أن ألتفت. فكان رده وهو يمسح دموعه: إنني خائف يا أنير من أن تقتلني العصابة الإجرامية التي قتلت رمزي من أجل الانتقام لأنني تابعتهم لدى الشرطة. مجَجْتُ نفَسا طويلا من سيجارتي مثيرا سحابة زرقاء من الدخان انتظرتها حتى تلاشت ثم قلت من فوق كتفي: -لا يا رشيد، أنا لست خائفا من الموت. -ولماذا لستَ خائفا؟ -لأنني كلما تذكرت الموت تذكرت معه حكمة لوكريتيوس التي تقول:" *حيث أكون، لا يكون الموت، وحيث يكون الموت، لا أكون أنا.*" –يا إلهي إنها حكمة منطقية للغاية تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الفلسفة مفيدة للحياة؛ لأنها استطاعت على الأقل أن تُحَجِّم خوفك من الموت. قال ذلك مبتسما وأردف: لكن ما رأيك في الجنة وجهنم، هل تعتقد بوجودهما؟ فأجبته: في الحقيقة لا أؤمن بهما، ولا أظن أن ثمة جنة أو نارا؛ هذه مجرد إسقاطات دنيوية على عالم أنتجته المخيلة البشرية، لأن أصل كلمة جَهَنَّمُ يعود إلى التاريخ المصري القديم، حيث ظهرت كلمة جَهَنَّمُ بالنقوش المصرية القديمة بهذه الصيغة. جلستُ إلى الطاولة وأخرجتُ من جيب قميصي مفكرتي وقلمي، وأخذت أوضح له عن طريق الرسومات. - أُنظر يا رشيد هكذا تنطق كلمة جهنم المصرية *(شَ - إِنْ - أَمُو)*. كتبتُ له الكلمة المصرية بحروف عربية ونطقتها بتأنٍّ. لكن يجب ألا ننسى أنها تكتب مع رمز النار هذا . -وماذا تعني هذه الكلمة في

Scanned by TapScanner

اشـتقاقها اللغـوي المصـري القـديم؟ -إنهـا تعني بحـر أو بحيرة النـار، وتوجـد لـديهم في عـالم ما بعـد المـوت الـذي يسـمونه *دوات*. وهـذا رسـم الكلمة المصرية، أُنظر يا رشيد كيف سأرسمها على الورقة رغم أنني لا أجيد رسم الطيور هههه:



- يا إلهي! عجيب جدا. فغر رشيد فاهه. وضعت المفكرة جانبا وتابعت أوضح لـه: -مـن المعـروف يـا رشـيد أن جَهَنَّمَ لـدى المسـلمين لهـا درك أسـفل، والـدرك في اللغة العربية هو القعر الأقصى للبحر أو البحيرة وأضـراب ذلـك، حيـث جـاء في لسـان العـرب: *"والـدَّرْكُ والـدَّرَكُ: أَقـصى قَعْر الشيء.. كالبحر ونحوه."* كما يجب أن ننتبه يا رشيد إلى أن كلمة جَهَنَّمُ في ديانات الشرق الأوسط القديم دائما ما تتخذ شكل شيء له عمـق، وبالتـالي لـه درك أو قعـر. ففـي الديانـة اليهوديـة التي لحقـت الديانة المصرية القديمة والتي كانت مجاورة لها بشكل كبير، نجد أن جهـنم تحيـل إلى واد عميـق في أورشـليم اسـمه بالعبريـة جي-هـنم **גיהנום** كمـا ورد في سـفر يشـوع، ومعناهـا وادي هنـوم، وهنـوم اسـم

Scanned by TapScanner

لرجل؛ أي وادي هنوم الذي يقع شرقي أسوار المدينة القديمة لأورشليم، وكان يسمى قديما وادي الموت، حيث كان اليهود يلقون فيه الأزبال، وجثث الموتى من المجرمين. كما أنه كان محرقة للأطفال الذين يقدَّمون كقرابين للإله مولوخ الكنعاني في عهد ملوك إسرائيل القدامى، وبالتالي فقد كان مكانا للنار التي يُحرق بها الأطفال، إنه مكان ذو ضباب ودخان، ورائحة نتنة. –يا لغرابة هذه المعلومات يا أنير! إني أخشى أن ينطبق الأمر نفسه على جنة عدن أيضا. –بحسب معرفتي المتواضعة باللغة والأدب العبريين فإنّ عدن كلمة عبرية تعني *بهجة*، وتدل على أرض خصبة بها حدائق وأنهار. –وأين كانت تقع هذه الأرض الخصبة يا أنير؟ -أظنها كانت في القسم الجنوبي من العراق حيث الماء والزرع، وهي سهل بابل الذي كان يسمى في العصر القديم باسم *عدنو*. –يا إلهي كم هو عظيم تاريخ اليهود! –بالطبع يا رشيد، إنه تاريخ موغل في القدم، على أي حال فجهنم وجنة عدن مكانان واقعيان ينتميان إلى الأرض وثم إسقاطهما على عالم ماورائي مع الاحتفاظ بنفس اللغة البشرية الأرضية، ففي اعتقادي يا رشيد أن ما يوجد بعد الموت هو الظلام، وهو نفسه الظلام الذي يكون قبل ولادتنا، إلا إننا انشغلنا بظلام البَعد وتجاهلنا ظلام القَبْل، لأن الزمن يسير في اتجاه خطي مستقيم ولا يرجع إلى الوراء، إنه الزمن نفسه المسؤول عن فساد واضمحلال وموت كل الكائنات، ومن ثمة أرى أن

Scanned by TapScanner

الموت مسألة فيزيائية طبيعية جدا. وأنت ما رأيك يا رشيد؟ أطرق مفكرا لبرهة ثم رفع رأسه وقال: -لا أخفيك سرا أنني لا أؤمن بوجود إله أصلا، وأرى أن الضمير أو العقل هو المشرع الحقيقي للأخلاق، إذ لا يهم أن تكون متدينا، ولكن، من المهم أن تكون إنسانيا، وخلوقا، ترفع شعار التحرر، وتنصت لصوت الوعي الأخلاقي النابع من الإرادة الخيرة والحرة، التي لا تخضع لسلطة خارجية أو مصلحة معينة. لن يخسر الإنسان شيئا إذا اعتقد بوجود إله يا أنير، ولا أظنه سيبذل جهدا كبيرا إثر إيمانه، لكن، إذا كان إيمانه سيصنع منه شخصا غير متسامح؛ سواء تجاه المرأة، أو تجاه الناس الذين هم على غير دينه، فهذا إعضال كبير. –صحيح يا رشيد إنه ليتوجب على الشخص أن يعتنق الإنسانية أولا، ثم يعتنق ما شاء من الأديان. -هذا بالضبط يا أنير.

انزلقنا إلى الصمت، ثم قلت لرشيد إنه يتوجب عليّ أن أذهب إلى حي مولاي رشيد قبل أن أتأخر، فحملني بسيارته إلى هنالك، ومن ثم غادر إلى منزله في الحي المحمدي. وفي العاشرة ليلا سافرت إلى بلدتي على الرغم من إن لمياء ووالديها قد ألحوا عليّ بالبقاء إلى غاية الغد على الأقل، بيد إنني كنت مستعجلا جدا بسبب الوثائق الخاصة بالتسجيل في مركز تكوين الأساتذة، والتي ينبغي عليّ تحضيرها قبل نهاية الأجل المحدد لذلك، ويتعلق الأمر بنسخ أصلية من عقد

Scanned by TapScanner

الازدياد، وتوقيع التزام معين، فضلا عن شهادة الإجازة الأصلية ووثائق أخرى. وفي طريقي إلى بلدتي اتصلتُ بجاد الذي كان في ذلك الوقت بمعية زوجته أنجلينا في البار، أخبرته أنني أُحضِّر هذه الأيام للزواج، وسأعود عما قريب إلى الڤيلا رفقة زوجتي إذا أذِن لي بذلك، فهنأني وتمنى لي زواجا سعيدا، مؤكدا على أن عودتي إلى الڤيلا بمعية زوجتي لا تشكل له أدنى مشكلة على الإطلاق، وهو الذي سبق أن اقترح عليّ هذه الفكرة.

وصلت إلى قريتنا الباردة في أعالي جبال الأطلس الكبير الغربي، فتحت لي أمي أريناس الباب ثم عانقتني عناقا حارا وهي تبكي من كثرة ما اشتاقت إليّ. لم تكن أمي تعرف أنني وضعت قدمي في السجن، غير إنها كانت على دراية بمسألة الاغتصاب المزعوم، وحاولتْ أن تتأكد من صحة هذه الدعوى في الوقت الذي كنت أتناول بمعيتها فطورا أمازيغيا، مغربيا أصيلا، طالما اشتهيته، وهو المكون من زيت الأركان وأملو الرائع، وحساء الشعير الممزوج بحليب الماعز، وجوز جبال الأطلس الكبير، فضلا عن زبدة الماعز التي كانت تحصل عليها من عند جدتي عكو باروخ وهي والدة أمي أريناس. لم أجب في تلك اللحظة على سؤال أمي المتعلق بقضية الاغتصاب، وانتظرت حتى استيقظ أشقائي الصغار بعد ساعة، فقدمت لهم هداياهم البسيطة التي فرحوا بها فرحا لا ضفاف له، خاصة أنهم اشتاقوا إليّ

Scanned by TapScanner

كثيرا، ثم أخبرت أمي وبحضور جميع إخوتي أنني أصبحت أستاذا للتعليم الثانوي التأهيلي بمراكش، وإنني سأعتني بهم جميعا. فزغردت أمي وعانقتني من شدة الفرح، ثم انتظرت حتى هدؤوا من فرحة الخبر الأول لأعلمهم بعد ذلك بالخبر الثاني، والذي مفاده أنني سأتزوج هذه الأيام من فتاة جميلة وطيبة، اسمها لمياء وأن عرسنا سيكون بعد شهر واحد فقط، ويسعدني أن أرى أشقائي وأمي وجدتي عكو سعداء بزواجي.

لقد سر إخوتي كثيرا بهذا الخبر الأخير أيضا، غير إن أمي تجهم وجهها وسرعان ما اعترضت مستغربة من هذا الاستعجال الذي اعتبرته تسرعا وتهورا لاعقلانيا، لأنني لا أزال شابا صغيرا على حد قولها. وفي هذه اللحظة بالذات، خشيت أن يكون الخبر صادما بالنسبة إليها ويؤثر بالتالي على صحتها كونها تعاني من مرض في القلب، لكن عندما أجبتها أخيرا على سؤالها السابق معترفا لها بأنني حقا ضاجعت لمياء وبرضاً منها، وآيُ ذلك أننا نحب بعضنا البعض وهي الآن حبلى بابني وإذا ما أنا رفضتُ الزواج منها والاعتراف بابني فإن مصيري السجن بتهمة اغتصاب قاصر، وبالتالي ضياع وظيفتي ومستقبلي ككل ولا مندوحة عن ذلك. هنا وافقت أمي على مسالة الزواج وباركت لي ذلك متمنية لي السعادة الأبدية، والذرية الصالحة، كما أنها قررت أن تسافر معي بعد يومين إلى كازابلانكا لإمضاء عقد القران والتعرف

Scanned by TapScanner

على زوجتي وعائلتها. وفي المساء جاءت جدتي وأخوالي بمعية زوجاتهم حيث يقطنون القرية نفسها، وقدموا لي التهاني جميعا وجمعاوات بمناسبة حصولي على الوظيفة، كما قدموا لي التبريكات أيضا بمناسبة الخطوبة. وقد قرر خالي إيدير وهو أستاذ للغة العربية بدولة الإمارات أن يستغل عطلته تلك ويحضر معنا إلى حفل توثيق عقد القران، وأنه هو من سيتكلف شخصيا بتسديد المال المخصص للمهر. ووعدني كذلك بأنه سيطلب الشهر المقبل إجازة قصيرة لحضور حفل الزفاف، وسيتكلف بنقل العروس بسيارته ليلة الزفاف من كازابلانكا إلى مراكش حيث سأعمل أستاذا متدربا، وسيشتري لي كل ضروريات الأثاث المنزلي.

-29-

في صباح اليوم الموالي ذهبت إلى المركز الإداري لجماعتنا القروية، وطلبت من موظفي مكتب الحالة المدنية أن يزودوني بنسخ أصلية من عقد الازدياد، ونسخة من رسم الولادة، ووثيقة أخرى تثبت أنني أعزب موقعة ومصادق عليها، غير إن الموظفين رفضوا تسليمي هذه الأخيرة، مؤكدين على ضرورة إحضار شاهدين يشهدان لي عبر إمضائهما بأنني رجل أعزب، مع الإدلاء بنسخة من بطاقتيهما الوطنية. ولأن منزلنا كان بعيدا جدا من جماعة إغرم نُوگْدَالْ ولم أستطع إحضار أمي وجدتي عكو مثلا للإدلاء بشهادتيهما، فإن أحد

Scanned by TapScanner

الموظفين هناك لحق بي إلى خارج المركز حيث كنت أود أن أهاتف أمي، فسألني عن عمري، ولما أجبته اقترح عليّ أن أمنحه مائتي درهم فيشهد بأنني لستُ متزوجا، فوافقت على ذلك، وهو نفس المبلغ الذي أعطيته أيضا لحارس الدراجات خارج المركز الإداري للقيام بنفس المهمة، وقد أمضيا كلاهما بأنني لست متزوجا، رغم عدم معرفتهما بي على الإطلاق. ومن ثمة استلمت شهادة العزوبة بإمضاء من رئيس الجماعة، لأتوجه بعد ذلك إلى عيادة طبية متواضعة جدا بغية الحصول على شهادة طبية تثبت سلامتي الجسدية والنفسية، وقد حصلت عليها في دقيقتين فقط بعدما سألني الطبيب سؤالين سخيفين.

اتصلت بصهري حميد، وأخبرته بأن الوثائق المتعلقة بعقد القران باتت جاهزة، وأننا سنأتي إلى كازابلانكا خلال يومين. بيد إنه وضح لي أمرا لم أضرب له حسابا؛ وهو أنه يلزمنا أولا دفع هذه الوثائق إلى جانب الوثائق الخاصة بلمياء إلى مكتب العدول ثم ننتظر موافقة القاضي، وقد يدوم هذا الانتظار أسبوعا كي يتحقق القاضي عبر اطلاعه على وثائقنا التي ستكون واحدة من بين عشرات الوثائق التي يتوصل بها عبر العدول من المخطوبين، سيتحقق من بلوغنا السن القانوني للزواج، ومن سلامة صحتنا العقلية والجسدية التي ستسمح لنا بتوقيع عقد القران. وبالتالي فقد أرسلت له الوثائق عبر

Scanned by TapScanner

الحافلة التي تتجه إلى كازابلانكا كي يدفعها إلى مكتب العدول، ثم شرحت لأمي الأمر كفاية وفي اليوم الموالي جمعت أغراضي وسافرت إلى مدينة مراكش.

نزلت من الحافلة وأشعلت سيجارة، بينما أتأبط ملف وثائق التسجيل، وأحمل في ظهري حقيبة ملابسي، كان الجو في مراكش مشمسا، والشوارع تنغل بالحياة. وما إن خطوت بضع خطوات، حتى تراءى لي طيف مولا، كانت تسير بجنبي في الشارع وتقول: "إن أعظم سجن ستدخل إليه يا أنير هو سجن الزواج، والفرق بين هذا السجن والسجن ذو الأسوار والحراس؛ هو أن هذا الأخير تدخله غصبا عن إرادتك، بينما الأول تدخله بمحض إرادتك، وتمشي إليه بنفسك مسلِّم الروح والجسد، والأمر شبيه برجل غبي لم يقارف أي جرم ومع ذلك يذهب عند الشرطة ويطلب منهم أن يدخلوه إلى السجن مدى الحياة، هذا هو الزواج يا أنير ومع ذلك فإنني تزوجت." كانت تقول ذلك وهي تسير بجنبي، فيما أنا منحني رأسي، أدخن سيجارة بعد أخرى، ثم اختفتْ.

وضعت ملف التسجيل في إدارة المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين مقابل وصل الإيداع، ثم اتصلت بجاد الذي لم يكن حينذاك في مدينة مراكش، فذهبت إلى الڤيلا وسقيت حديقتها التي لولا زيارة جاد إلى الڤيلا مدة غيابي وسقيه للحديقة بنفسه، لذهبت خضرتها

Scanned by TapScanner

وصارت هشيما تذروه الرياح، كما رتبت ما يتوجب علي ترتيبه، ثم استلقيت في سريري بغية نيل قسط من الراحة استعدادا لمباشرة التكوين في صباح اليوم الموالي؛ حيث ستكون لدي أول حصة رسمية في مركز التدريب. وبعد أسبوع من التكوين المرهق الذي كانت تتوزع حصصه إلى صباحية ومسائية؛ جاء الخال إيدير بسيارته نيسان *إِنْ ڤِي 200* إلى مراكش خلال صباح باكر، تجلس بجانبه جدتي عَكُّو، وفي الخلف تجلس أمي أريناس، وزوجة خالي إيناس، وابنتيهما التوأمين سيليا وساليسيا وأشقائي، زد على ذلك جهاز العروس المرتب بعناية في صندوق السيارة.

ركبت معهم وتوجهنا إلى كازابلانكا لإمضاء عقد القران، حيث وصلنا في العاشرة صباحا، كان بيت لمياء يغص بأفراد عائلتها الكبيرة، ويصدح بالزغاريد والفرح، وعلى عتبة المنزل كانت تطفو رائحة ذكريات مليئة بالخطيئة. ونحن ندخل المنزل؛ توقفت لحظة أنظر إلى الغرفة التي كنت أعيش فيها في الطابق الأرضي، كانت الغرفة موصدة، وعلى بابها بقايا ضئيلة وغير مفهومة من العبارة التالية التي كتبتها لمياء سابقا بأحمر الشفاه: *أيها القدر، قُل لـ مُولا أن حبيبها يوماً ما سيغدو زوجي أنا!* والآن، ها هو ذا القدر يستجيب لجارتي المراهقة. وحينما كنا نصعد الدرج؛ لاحظت وجود الكوة التي وضعتْ فيها لمياء الهاتف، حيث سجلتْ علاقتنا الحميمة، ووقفتُ أنظر إلى الكوة في

Scanned by TapScanner

دقيقة تأمل واضعا يدي على الدرابزين مُعَبَّس الوجه. على أيّ حال، لم نجد لمياء في البيت، إذ كانت لا تزال في صالون التجميل، وحينما انتهت اتصلت بي، فأخذت سيارة إيدير وذهبت إليها بمعية والدتي وصوفيا. كانت ترتدي فستانا رائعا باللون الرملي، ويديها الجميلتان مزينتان بنقش الحناء، ومثقلة بأساور مغربية زادتها جمالا. أزحت الغطاء على وجهها فكانت جميلة جمالا أخّاذا، تبدو مثل هيلين طروادة، فقبّلتها في فمها أمام أنظار الجميع، مكسرا بذلك طابوهاً كبيرا وسط مجتمع محافظ. استغربت لمياء من تلك القبلة المتمردة، حيث لم يطاوعها قلبها على فعل ذلك، فخفضتْ بصرها من شدة الخجل، كما كانت تُقَفْقِفُ من الخوف الممزوج بالفرح، وغطيط تنفسها يتعالى. أخذتُ بيدها وأجلستها بجنبي، ثم توجهنا جميعا إلى المنزل حيث استقبلتنا العوائل بالزغاريد ونثر بتلات الورد.

حضر العدول بعد نصف ساعة، في شخص رجلين كهلين ضليعين بعلوم القانون والدين، ووثقا زواجنا، ثم طلب إمضاءاتنا. ومن ثم أُعتبِرنا رسميا كزوج وزوجة بموجب القانون، ومن دون أية شروط، لا من قِبل لمياء ولا من قِبلي، في جو عائلي يطبعه الفرح والحبور، والابتسامة والتهاني الطيبة. وعلى الرغم من أن لمياء أضحت الآن زوجتي الشرعية، إلا إنها ستمكث في منزلها إلى أن يقام العرس بعد شهر، آنذاك يمكنني أن أصطحبها معي طبقا للأعراف والتقاليد

Scanned by TapScanner

المغربية، رغم إن هذه التقاليد تختلف من منطقة مغربية إلى أخرى. وفي صباح الغد، عادت عائلتي إلى القرية، بينما نزلت أنا في مدينة مراكش بحسبانها منتصف الطريق بين كازابلانكا وبلدتنا، واستأنفتُ تكويني.

بعد شهر:

خلال هذا الشهر، وقبل حفل الزفاف، برز حادثان مفاجآن كانا بمثابة صدمة بالنسبة إليّ، فقد تبين غِبّ هذا الشهر الذي أحب أن أسميه شهر الصدمات؛ أنّ إقدام مولا على الانتحار هو محض افتراء وإشاعة مغرضة، فقد اتصل بي كمال وأخبرني أن مولا لا تزال على قيد الحياة، فالفتاة التي عُثر عليها مشنوقة بحبل، ومعلقة على شجرة زيتون، لم تكن مولا، وإنما هي طالبة تنحدر من مدينة السَّمَارة في الصحراء المغربية، وتعيش في الحي الجامعي بمراكش، غير إنها كانت تعاني من اكتئاب حاد منذ الوقت الذي مات فيه والداها وشقيقها في حادث مروع بمنعرجات بْوِيزَكَارَنْ جنوب المملكة المغربية، وقد نجت هي لوحدها بأعجوبة من تلك السيارة التي هوت في الأخير إلى سفح الجبل. لكن لحظة انتحار هذه الفتاة المسماة قيد حياتها السَّالكَة والتي كانت تتابع دراستها بكلية العلوم الواقعة بعيدا عن كلية الآداب، غابت مولا عن الأنظار غيابا غير مسبوق، اختفت من الجامعة ومن مراكش بشكل عام قبل الحادث بأيام قليلة، وهي

Scanned by TapScanner

الأيام التي غيرت فيها رقم هاتفها، مما جعل أصدقاءها يحاولون ربط الاتصال بها، لكن من دون جدوى. وفي هذا الشهر الذي سبق حفل الزفاف، اتصلت مولا بكمال من مدينة بوينوس آيريس الأرجنتينية من خلال رقمها الجديد الذي بدا له أجنبيا يبتدئ بالرقم 54+، أخبرها أنه كان يظنها انتحرت، إلا إنها سخرت منه على حد قوله، وأصدرت ضحكات صاخبة وساخرة، مؤكدة له أنه لا يوجد أي سبب سيدفعها للانتحار، وحتى إن وجد سبب ما، فإنها لا يمكنها مطلقا أن تفكر في الانتحار مهما بدا هذا الأخير موضوعيا، بل بالعكس فهي الآن كما قالت لكمال تعيش حياة سعيدة بمعية زوجها في بلاد التانگو. استغرب كمال مما قالته مولا، ولم يستطع تصديق ذلك، بيد إنها واصلت التواصل معه عبر الواتساب، وأرسلت له صورا رأيتهم بنفسي؛ حيث كانت بمعية زوجها؛ وهو ابن خالتها، صحراوي صرف من مدينة الداخلة يقيم في الأرجنتين منذ مدة طويلة، ويعمل مديرا في شركة لصنع الأحذية بشراكة مع مستثمر إيطالي، الأمر الصادم هنا والذي لم يستوعبه دماغي هو أن مولا كانت تتواعد مع ابن خالتها هذا، وتتبادل معه الحب في الفترة التي كنت أنا أيضا حبيبها كما كانت تدعي، كما كانا يخططان أيضا للزواج. وقد برّرت ذلك لكمال من خلال تسجيلات صوتية عبر واتساب، سمعتها بنفسي تقول إنها كانت حقا تحبني، لكنها في نفس الوقت كانت خائفة على

Scanned by TapScanner

مستقبلها وتود حياة أفضل، قوامها الرفاه ورغد العيش، وفي نفس الوقت ظلت غير واثقة من ابن خالتها الذي يكبرها بخمس عشرة سنة، لأنه لم يزر المملكة المغربية لمدة طويلة، ومن ثم فقد وضعتني أنا في منصة الاحتياط داخل قلبها لئلا يخلف ابن خالتها وعده، فتجدني بديلا له. أكدتْ لكمال أيضا أنها رغم تواصلها السري مع ابن خالتها هذا، إلا إنها لم تكن تحبه، وكانت تحبني أنا. اعترفتْ أن سيارته من نوع *ألفا روميو ستيلفيو* كانت تغريها، وكذا الڤيلا التي يعيش فيها، وما إنْ علمت بخيانتي حتى استسلمت لمغرياته، ولم تتردد في أن تصبح زوجة له، حيث تزامن ذلك مع زيارته المفاجئة للمملكة المغربية بسبب وفاة والده، هذه الزيارة التي دامت ثلاثة أيام فقط، قدم فيها التعازي لأشقائه وعائلته، وعقد فيها القران مع مولا، ثم طارا إلى الأرجنتين معا، من دون إقامة أي عرس، بسبب ضغط العمل لديه في أمريكا اللاتينية.

قبل موعد الزفاف، كنت كثير اللقاء بصديقي كمال، ففي البدايات الأولى للتكوين كنت ألتقي به في المقهى كلما انتهيت من حصص التكوين، فعلى الرغم من أن مركز التكوين يوجد بحي المحاميد، إلا إنني كنت كثير التردد على حي الداوديات بسبب الذكريات الجميلة التي قضيتها هناك أيام الدراسة بسلك الإجازة، كما كان كمال أيضا يزورني أحيانا في ڤيلاّ جاد، إلى أن طردتني والدة هذا الأخير وشقيقته

Scanned by TapScanner

من الـثيلا بعـدما تـم إلقـاء القـبض على جـاد وزوجتـه بتهمـة التهريـب الـدولي لمخـدر الكوكايين، ومـن ثـم ذهبـت إلى الاسـتقرار مـع كمـال في منزلـه بحي الـداوديات، متعـاونيْن معـا على تسـديد نفقـات الكـراء. وخـلال هـذه المـدة تحديـدا، كان كمـال يحكي لي عـن تواصـله بمـولا، ويُسْـمِعُنِي تسـجيلاتها الصـوتية التي كانـت ترسـلها لـه عبر واتسـاب، وصـورها أيضـا بمعيـة زوجهـا ميشـان، وكلبهـما المسـمى ڤينيسـيوس في شـواطئ مَارْ دِيلْ پْلاَتَا.

حان موعد الزفاف، ولازلتُ حائرا بشأن الـثيلا التي وعدتُ زوجتي أننا سـنعيش فيهـا مؤقتـا لمـدة عـام كامل، حيـث لـم أسـتطعْ إخبارهـا بهـذه الحقيقة المريرة. على أيِّ حال، فقد عـاد خالي إيدير من دولـة الإمارات العربيـة المتحـدة، وذهبـتُ بمعيـة عـائلتي بالإضـافة إلى صـديقي كمـال الـذي دعوتـه لحضـور زفـافي، حيـث وصـلنا صـباح يـوم الخمـيس، يفصـلنا يومـان عـن ميعـاد العـرس المزمع تنظيمـه مسـاء يـوم السـبت. وفي اليـوم المـوالي الـذي لحـق مجيئنـا؛ أي الجمعـة، صـار منزل السـيد صبري مكتظا عـن آخره بالعوائل وأطفالهم الصـغار، وبالزغاريد وقرع الطبـول، على اعتبـار أن الجمعـة مسـاء هـو موعـد مـا يسـمى بليلـة الحِنّـاء، حيـث ارتـدت زوجتي قفطانـا مغربيـا أصـيلا؛ أبيضـا ومطـرزا بـاللون الأخضـر، وحضـرت النقاشـة التي زينـت يـدي لميـاء ورجليهـا بفسـيفسـاء من الحنـاء الممتازة لقريـة إفْـرَطْ التابعـة لجماعـة تغبالـت،

Scanned by TapScanner

وسـط مجمـع نسـائي صـرف يسـوده الـرقص على إيقاعـات الموسـيقى الشعبية المغربية الأصيلة.

انطلـق حفـل الزفـاف في التاسـعة مسـاء مـن يـوم السـبت، غصـبا عـن كـريم؛ شـقيق حميـد الـذي حـاول جاهـدا وبـذل كـل مـا في وسـعه لتوقيـف هـذا العـرس ومنْعِ إقامتـه بسـبب اختفـاء ابنتـه نـدى التي لـم يـتم العثـور عليهـا إلى يومنـا هـذا رغـم البحـث المتواصـل عنهـا مـن قبـل أفـراد الشـرطة، ووسـائل الإعـلام، وهيئـات المجتمـع المـدني، مُعبـرا عـن غضـبه، ومعتبـرا أن مـن الواجـب علـى العائلـة الكبيـرة والصـغيرة جمـيعهم أن يحزنـوا إثـر اختفـاء ابنتـه نـدى، لا أنْ يقيمـوا الأفـراح ويرقصـوا على جراحـه. ولهـذا لـم يحضـر لا هـو، ولا زوجتـه النصـرانية مارسـيلاّ إلى هـذا الزفـاف، واسـتمرّا في حزنهمـا، على الـرغم مـن أنّ شـقيقه حميد حاول مواساتهما وتهدئتهما، يحذوه الأمل في العثور على ابنة أخيه التي فطرت قلوب كل من يعرفها من قريب أو بعيد، داعيا إياهمـا إلى التحلي بالإيمـان، وأنْ يحضـرا إلى هـذا العـرس البهـيج، ويفرحـا خـلال هـذه الليلـة التي لـن تتكـرر، باعتبارهـا وسـيلة للسـرور، وترياقـا ضـد هـذا الحـزن المؤقـت الـذي أصـاب العائلـة كَكُلّ، على حـد قولـه. لقـد ألـحّ عليهمـا كثيـرا بـأن يحضـرا بمعيـة صـغيريهما مَاكَرِينـا وسـيرخيو، بحسـبانهم مـن أفـراد العائلـة، فضـلا عـن أنهـم جيرانـه،

Scanned by TapScanner

وأخيرا هدأ كريم ذو القلب المفجوع، واستجاب لدعوة شقيقه في تلك الليلة، بعدما وافقتْ زوجته الكولومبية مارسيلاّ على الحضور.

جلستُ أنا وزوجتي بقفطانها المغربي ذو اللون الذهبي في منصة العروسيْن، نشاهد المدعوين وهم يرقصون على إيقاعات الأغاني المغربية الجميلة؛ الشعبية والأمازيغية والعصرية، كانت تسرني كثيرا رؤية أمي أريناس البالغة من العمر واحدا وأربعين سنة مزينة بمكياج الأعراس، تبدو مثل شابة عشرينية، ولابسة زيا أمازيغيا في غاية الروعة. كنت أشاهدها وهي ترقص رقصات جميلة، تهز كتفيها على إيقاعات الموسيقى الأمازيغية السوسية، ومن حولها أشقائي الذين لا يتوانون عن الرقص أيضا، ويبدون في غاية الجمال، تطبعهم البهجة وهم يلوحون لي بأيديهم. كنت ماسكا بيد زوجتي، مشبكا أصابعي بأناملها الرقيقة، وعلى شفاهنا ترتسم ابتسامة دافئة في ليلة العمر تلك، والمدعون منهم مَن يرقص، ومنهم العجائز الذين يجلسون على الكراسي جلوسا رزينا، ومنهم من يلتقط برفقتنا صورا تَذكارية، وآخرون ينظرون إلينا من بعيد نظرة تنم عن غيرة وحسد. وفي تلك اللحظة بالذات اقتحم عدد من عناصر الشرطة قاعة الزفاف، فتوقف الفرح من توه، وتوجهوا إليّ مباشرة ملقين عليّ القبض وأنا ماسك بيد زوجتي. اندفعتْ عليهم أمي هائجة لتبعدهم عنّي بينما كانوا يقيدونني بالأصفاد المعدنية، فعضت عميد الشرطة وهي تصرخ

Scanned by TapScanner

غارزة أنيابها في كرسوع يده. -افلتوا ابني، أفلتوه، هو لم يفعل شيئا، إنكم مخطئون في العنوان. وبينما كانوا يسحلونني إلى الخارج، كانت أمي تجرني من قميصي لتفلتني من قبضتهم، إلى أن دفعها الشرطي وسقطتْ، كما كان إخوتي يمسكونني من رِجْلي، ويجرونني في مشهد مثير للشفقة، فيما الجميع يشاهدون من دون أن يحركوا ساكنا، ويشمل ذلك عائلتي المكونة من خالي إيدير، وزوجته، وجدتي عكو. أما كمال فرأيته ينسل مِن بين الجمهور الحاضر كانسلال الشعرة من العجين، منحني الرأس والكتفين بقامته الطويلة، يزيح الأطفال عن طريقه حتى خرج من القاعة فارّا، بينما تجمدت لمياء ووالديها في أماكنهم من هول الصدمة. وحينما أخفق رجال الشرطة في ثَنْيِ عزم أمي التي لا تني تجرني من قميص الزفاف الذي بات ممزقا، وقف أخيرا عميد الشرطة وجها لوجه أمام أمي، وصرّح بالقول التالي: "ابنك يا سيدتي، المدعو أنير أزناگ، متهم بجريمتَيْ قتل؛ الأولى قتله للشرطي رمزي خليف مع سرقة مسدسه الوظيفي، والثانية قتله للتلميذة ندى صبري رميا بالرصاص ورميها في شاطئ مدينة سَلاَ." وما إن أنهى كلامه، حتى سقطتْ أمي وتوفيت عند قَدَمَيَّ بسكتة قلبية أمام أنظار إخوتي الصغار، فتناسى الجميع ومنهم زوجتي ميتتها، واندفعوا إليّ هاجمين يضربونني بكل ما وجدوه أمامهم، يدوسون على جثة أمي؛ على بطنها ووجها، غير واعين بذلك من شدة الغضب،

Scanned by TapScanner

بينما تحاول جدتي العجوز عكو باروخ وخالي إيدير إبعادهم عن جثة أمي وجرها بعيدا عن ذلك الجمع الغفير من المدعوين. لقد حاولت الشرطة حمايتي منهم بصعوبة بالغة، ثم أدخلوني إلى سيارة الشرطة وأنا مضرج بالدماء.

-30-

خاتمة.

مضت سنة واحدة على دخولي السجن، لقد كان الحُكم عليّ بالمؤبد حكما قاسيا جدا، حيث سأقضي بقية عمري في هذه الزنزانة التي أكتب إليك منها الآن قارئي العزيز، وهي الزنزانة رقم 7 من جناح العزلة في سجن عكاشة. لكن موت أمي أمام ناظريَّ، وعيش إخوتي الصغار أيتاما من دون أم ولا أب لَهُو شيء أكثر قسوة من الجحيم نفسه، خاصة أنني وعدتهم كما وعدت أمي بأنني سأعتني بهم جميعا، فكيف سأعتني بهم الآن وأنا حبيس أربعة جدران ومحكوم بالسجن المؤبد؟ يا إلهي!

يتبادر إلى ذهني كل يوم سؤال محير للغاية، وهو بِمَ ستجيب طليقتي لمياء ابننا الذي خرج إلى حيز الوجود؟ هل ستعترف له بعد أن يكبر قليلا أنّ أباه الحقيقي مجرم محكوم بالسجن المؤبد؟ أم ستكذب عليه وتخبره أنّ أباه هو كمال الذي صار الآن زوجها بعد أن دخلتُ السجن، وهو الذي كان صديقا محببا إلى قلبي، وأنا الذي ساعدته

Scanned by TapScanner

طيلة شهر كامل في مدينة مراكش للاستعداد لمباراة التعليم حتى صار الآن أستاذا للفلسفة. أنا لن ألومه أبدا، ولن أحسده على شيء معرض للزوال، فهذه طبيعة العالم بأكمله، ويتحتم عليّ تقبلها بكل روح رياضية، العالم يا قارئي العزيز مليء بالأحزان، والنكبات، ولا وجود لسعادة فيه إلا ما كان عابرا فقط، لقد أدركتُ الآن ذلك جيدا، وهي أيضا طبيعة البشر المتقلبين؛ فدائما ما تكون البدايات جميلة، غير إنها لا تدوم أبدا، لأن الإنسان كائن يمل باستمرار، حتى من الأشياء الجميلة. لذا لن ألوم صديقي كمال أبدا، خاصة أن لمياء فتاة في غاية الجمال، وكل من يراها يُعجب بها، وقد رآها هو في حفل زفافي الذي لم يكتمل فأعجب بها. أتساءل أيضا كيف كان شعور إخوتي الصغار بعدما انقطعت فرحتهم وهم يرقصون حول أمي؟ كيف كان شعورهم وهو يقلّبون جثة أمهم؟ كيف كان شعورهم بعدما عرفوا أن أخاهم الأكبر مجرم قاتل؟ يا إلهي كم هذا فظيع!

شيئان الآن لا يزالان يجمعاني بطليقتي لمياء: ابني يمين، وكتب الفلاسفة التي أودعتها عندها. وها أنا الآن أُحرَم من ابني وكتبي، آه، لا شيء يدوم! لا شيء ثابت على حاله، كل شيء في تغير وتحول، وجريان دائم. على أية حال، ها هي ذي السنة الأولى من السجن قد مرت سريعا، وسبب هذه السرعة هو أنني قضيتُ هذه السنة في كتابة هذه الرواية التي أنا الآن بصدد ختمها، على الرغم من أنني كتبتها

Scanned by TapScanner

بشكل بطيء للغاية، إذ كنت أكتب بعد أن ينام جميع السجناء. وهي رواية كتبها بالدارجة المغربية، دونت فيها تلك الأحداث التي عشتها مع تلك المراهقة المسماة لمياء، والتي كانت جارتي أيام دراسة الماستر بكازابلانكا، ولهذا آثرتُ أن أعنون هذه الرواية بِـ جارتي المراهقة. وسأرقّم كل هذه الأوراق المجعدة والمبعثرة التي دونت فيها أحداث الرواية، وأرتبها بعناية لأرسلها بواسطة صديقي الطيب إلياس، الذي عاش معي مدة سنة كاملة في هذه الزنزانة، وهو الحبيب السابق لجارتي المراهقة، العائد من العراق بعد تفكيك المنظمة الإرهابية التي كان ينتمي إليها، والذي سُجن في المغرب بتهمة الانتماء إلى منظمة إرهابية، وها هو ذا الآن سيودع السجن بفضل عفو ملكي بعدما أعلن انفصاله عن الإرهاب، وعن كل فكر ظلامي. سأرسل من خلاله مسودة هذه الرواية إلى كاتب صاعد ينحدر من مدينة الشَّمَّاعِيَّة لينشرها بلسان عربي كما طلب صديقي إلياس نفسه، حتى تكون في متناول بعض أصدقائه العراقيين والسوريين الذين خرجوا أيضا مؤخرا من ظلام الإرهاب وعانقوا نور التحرر، أما أنا فسأظل سجينا إلى الأبد، سجينَ هذه الجدران، وسجين ماضيَ الأليم، إني أفضل أن أظل مجهولا إلى الأبد.

انْتَهَتْ.

Scanned by TapScanner

Scanned by TapScanner



وُلد عبد الوافي الفضمي في ١٥ أيار/مايو ١٩٩٥ بمدينة الشَّمَّاعِيَّة الواقعة علـى بُعـدِ ثمانين كيلومترا شـمال مدينـة مُراكش المغربية. حصل سـنة ٢٠١٨ على شـهادة الإجازة في الفلسفة من جامعة القاضي عياض بِمراكش، ثم نال شـهادة الماستر فـي الفلسـفة والمجتمع مـن جامعة الحسـن الثانـي بالدار البيضاء عام ٢٠٢٠. يعمل عبد الوافي الفضمي أسـتاذا للفلسفة بالثانوي التأهيلي، ويعيش بمدينة تمارة. من أعماله: رواية جارتي المراهقة، ودراسـتيْن أكاديميتيْن؛ الأولـى بعنـوان: نظرية الحب عند ابن حـزم من خلال كتابه طـوق الحمامة، من إشـراف الدكتور مصطفـى لَعريصـة، والثانية بعنـوان : نقد ابن حـزم للعقيدة المسيحية، من إشراف الدكتور نبيل فازيو.

دار زهدي للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - الجامعة الأردنية - شارع الملكة رانيا العبد اللّه

خلوي : 00962795555279

00962788771930

Email: dar.zuhdiforpublishing@hotmail.com

Scanned by TapScanner